قراءات فى موسوعة المجتمع المصرى

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : **تصيل عن قاعدة نصب سعد زغلول بالقاهرة**

التقنية : **رليف**

محمود مختار

فنان مصرى، يعد الأب الحقيقى للفن المصرى الحديث، لم يكتب لفنان مصرى معاصر أن تعاطـ معه جماهير شعبه مثلما تعاطفت مع محمد مختار، فقد شيد تمثال نهضة مصر بتبرعات الجماهير، النساء بحليها، والخطباء يدعون فى المساجد لإقامة التمثال ويجمعون القروش عقب الصلاة، واستجابت طوائف الشعب المختلفة فأقيم التمثال. ويقول الفنان محمود مختار: إننى أؤمن أن أعظم شعبين فى فن النحت هما مصر أولا، وبعدها فرنسا. لقد أوجد الأغريقيون نحتاً فيه رشاقة عن النحت المصرى، ولكن لا أحس فيه صفاء نحت مصر القديمة وما يحمله من طاقات القوة والحياة.

محمود الهندى

قراءات فى موسوعة المجتمع المصرى

د. سيد عويس



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

قراءات فى موسوعة المجتمع المصرى

د. سيد عويس

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
المشرف العام :
د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

إلى المفكر الكبير صاحب القلم المستنير ،
الذى عاش من أجل فكره ومات فى سبيله ،
إلى العزيز الصديق الصدوق . .
الأستاذ ابراهيم عامر . .
تحية لتاريخه المجيد فى عالم الفكر والصحافة .

المقدمة

المجتمع المصرى هو عندى موسوعة ثقافية اجتماعية حية . وأراه أحياناً كأنه معمل ثقافى عظيم . والدراسة الحالية تتضمن بعض الموضوعات التى واجهتها فى الماضى ولا أزال أواجهها حتى الآن . وإننى إذ أعرض موضوعات الدراسة الراهنة ، أنشد الاستئناس برأى القارىء لأننى فى مسيس الحاجة إلى هذا الرأى . وإننى أرى بكل الصدق أن المعلومات التى تضمها هذه الدراسة تحتاج إلى التروى والتفكير الهادىء العميق ، فضلاً عن المشاركة فى الرأى .

وموضوعات الدراسة الراهنة هى نتاج بعض البحوث والدراسات التى قمت بإجرائها . وقد يعرف بعضها العديد من القراء ، وربما لم تتح الفرصة للآخرين أن يطلعوا عليها . والملاحظ أن البحوث والدراسات المشار إليها هى بحوث ودراسات ثقافية اجتماعية تاريخية تحاول أن تقرأ بعض سطور قليلة من موسوعة المجتمع المصرى الحية . ومن ثم فهى : مجرد قراءات فى هذه الموسوعة الخالدة .

وقد جمعت حقائق الموضوعات التى تضمها الدراسة ميدانياً باستخدام أدوات عديدة ، منها :

الملاحظة والملاحظة بالمشاركة والمقابلة الحرة ، والمقابلة المقننة وصحيفة الاستبيان وتحليل المضمون (الوثائق) .

وقد جمعت هذه الحقائق الميدانية من مجالات جغرافية عديدة أيضاً ، منها :

الحارة (دورة حياة سكانها من الميلاد حتى الوفاة) والقرية (وبخاصة فى المناسبات مثل مولد النبى وشهر رمضان والأعياد) ، والمقاهى و« الكازينوهات » والجمعيات الاستهلاكية فى الأحياء المختلفة فى مدينة القاهرة ، والمزادات العلنية ، والقرافة وأضرحة القديسين والأولياء ، والموالد (وبخاصة فى محافظة القاهرة) والمساجد والكنائس (الأورثوذكسية وبخاصة فى الأعياد ومناسبات الزواج أو الوفاة وغيرها) ، والمدارس والجامعات وبعض الطرق الصوفية (حلقات الذكر خاصة) ، ودواوين الحكومة والمستشفيات وعيادات الأطباء ، والمحاكم (وبخاصة الجنائية منها ومحاكم الأحداث والأحوال الشخصية) والشهر العقارى ، والسجون وأقسام الشرطة والمؤسسات الاجتماعية والأندية الرياضية والاجتماعية والمعسكرات الشبابية وما شابهها ، فضلاً عن المساكن التى تأوى أعضاء الطبقة الكادحة وهى موزعة على أحياء محافظة القاهرة دون استثناء ، والمصانع والأماكن العامة وبخاصة الأماكن التى توجد فيها الآثار القديمة واليونانية والرومانية والمسيحية والإسلامية والمتاحف وملاعب الكرة والمسارح والمصايف والمطارات . . . . إلخ .

وقد أفدت كثيراً من مقابلات العديد من القادة الثقافيين الرسميين وغير الرسميين ، ومن الأخيرين مقابلاتى مع القوابل (الدايات) والنوادب

(الندابات) والحانوطيين وبعض القسس ، وبعض المشايخ المسلمين وبعض كبار السن من النساء ومن الرجال . . . . إلخ .

كما أفدت من العديد من الكتب العلمية . وكان أهمها كتب التراث المصرى القديم ، وكتب التراث المسيحى المصرى ، وكتب التراث الإسلامى المصرى ، وكانت المصادر التى أخذت عنها الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة والأزجال والمواويل كتباً فى بعض الأحيان ، وفى كثير من الأحيان كانت مصادرى الحافظين لها من أعضاء المجتمع المصرى .

ويعتبر عام ١٩٣٨ وحتى كتابة هذه السطور المجال الزمنى (الفترة الزمنية) الذى بدأت فيه قراءاتى فى موسوعة المجتمع المصرى الحية .

ورجائى الحار أن يتقبل القارىء المصرى الكريم الدراسات الحالية قبولاً حسناً . فهى تتضمن ألواناً من الثقافة فى حياة أعضاء المجتمع المصرى المعاصر . وقد كان موضوعها شغلى الشاغل منذ أمد طويل . ولولا المشاغل العديدة التى واجهتها فى حياتى ـ فضلاً عن الأعمال الأكاديمية وغير الأكاديمية التى آثرت أن أبادر باخراجها إلى النور قبل ذلك ـ لكانت الدراسات الحالية لها الأولوية فى إجرائها توطئة لنشرها .

والملاحظ أن الدراسات الحالية تعالج ظواهر ثقافية اجتماعية مصرية . ومثلها قد توجد فى المجتمعات غير المصرية وإن تباين مضمونها . ويرجع هذا التباين بالضرورة إلى تباين الظروف الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتاريخية التى عاشتها وتعيشها هذه المجتمعات . وأرجو أن يوافقنى القارىء على أن هذه الظروف فى المجتمع المصرى غيرها فى أى مجتمع إنسانى آخر ، وذلك لأن هذا المجتمع قديم ومستمر ، وأن مصادر ثقافته

عديدة فضلاً عن أنه بنى الحضارة الأولى لبنى الإنسان على وجه المعمورة .

ولعل نتائج الدراسات الحالية أن تعكس ألواناً من الثقافة فى حياة أعضاء المجتمع المصرى المعاصر . وإننى أرى أن العودة إلى هذا الواقع فى ضوء الموضوعية ييسر لنا بناء المستقبل المشرق الذى نرجوه نحن المصريين لمجتمعنا ، وبخاصة وهو يواجه العناصر المادية للثقافة الغربية التى أصبحت أو كادت أن تصبح عناصر ثقافية مادية للإنسان فى كل بقعة من بقاع العالم . والثقافة الغربية بعناصرها المادية وغير المادية ، كادت أن تكون ، ثقافة عالمية ما فى ذلك من شك . ومع ذلك فإننا نجد أنها ثقافة قد تحمل فى ثناياها ــ فى ضوء ما تخترعه من أدوات مدمرة ، نووية أو غيرها ، وفى ضوء ما تنشره من أفكار مهلهلة ــ بذور فنائها .

وإذ أتقدم بالدراسات الحالية أحاول أن أبرز عناصرها الثقافية ، وهى بالضرورة عناصر غير مادية ، بغثها وثمينها ، حتى تتاح الفرصة لكل مسئول ثقافى رسمى أو غير رسمى أن يفرز الغث فيقصيه ، وأن يبقى على الثمين الذى ييسر بدوره تحقيق تجديد المجتمع المصرى لكى يؤدى دوره الإنسانى ، أى لكى يعطى ، كالعهد به فى ضوء تاريخه المتجدد على مر السنين والأزمان ، النبض الحى لإنسانية الإنسان .

والملاحظ أن الدراسات التى يضمها الكتاب الحالى لا تعنى أبداً أنها تعكس ما فى المجتمع المصرى من ألوان ثقافية . بل على العكس فهى مجرد قراءات فى حدود اختصاصاتى الثقافية الاجتماعية لبعض سطور الموسوعة الحية للمجتمع المصرى ، بل هى فى حقيقة الأمر مجرد محاولة لقياس نبض جماهير هذا المجتمع . فالمجتمع المصرى فى ضوء تاريخه الطويل الطويل ، وفى ضوء

استمـراره وفى ضوء ما عانـاه من ضروب التعسف والمظالم لفترة طويلة من الزمن ، أكبر من أن يستوعب ما فيه من عناصر ثقافية اجتماعية واحد مثلى ، أو جماعة من الجماعات التى يكون أعضاؤها من المتخصصين . ويكفى ــ وإن كان هذا تكراراً ــ أن أقول : إن هذا المجتمع ، أقصد المجتمع المصرى ، بنى أول حضارة إنسانية على وجه هذه الدينا التى نعيش على أرضها . وأن هذه الحضـارة كانت ولاتـزال مصـدراً للعـديـد من العناصر الثقافية الاجتماعية لحضارات الدنيا بأسرها . فقد اخترعت مصر المدنية الأولى ، ثم تفشت هذه المدنية فى أنحاء العالم . وذلك لأننا حتى وقتنا هذا نستطيع أن نرجع بعادات العالم فى نظام الحكومة والقضاء والزواج وتقاليد الموت والدفن ، بل فى قصص الأطفال ، إلى المصريين القدماء .

والملاحظ أيضاً أن الدراسات التى يضمها الكتاب الحالى إن دلت على شىء فهى تدل على تغلغل العديد من القيم الدينية والاجتماعية والمعنوية فى نفوس أعضـاء المجتمـع المصرى وبخـاصـة فى محيط أعضاء الطبقة من الكادحين المصريين . وإننى لا أدعى أن كل أعضاء المجتمع المصرى من الكادحين ــ وبخـاصـة فى ظروفنـا الثقـافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الحالية ــ يقتصرون على ما ورد فى هذا الكتاب من مصادر هذه الدراسات

إن الدراسات التى يضمها الكتاب الحالى إن هى إلا دراسات عن ألوان من الثقافة فى حياة عدد كبير جداً من المصريين الكادحين سواء أكانوا يعيشون فى الحضر أم فى الريف .

والقـارىء لفصـول الكتـاب الحـالى يجد أن العنصر التـاريخى بارز فى الدراسات التى يضمها . فأنا أرى أننا لكى نغير مجتمعنا ، أو أى مجتمع ،

تغيراً مقصوداً ، علينا أن نعرف واقعه فى ضوء تاريخه كما نعرف العلاقات بينه وبين المجتمعات الأخرى ، سواء أكانت المجتمعات الأخيرة نامية أم متقدمة . وقد اقتصر الكتاب الحالى على إجلاء أو محاولة إجلاء الهدفين الأولين فى حدود إمكاناتى وخبراتى . أما الهدف الثالث وهو التعرف إلى علاقة المجتمع المصرى بينه وبين المجتمعات الأخرى ، فهو غير وارد فى الكتاب الحالى لعوامل عديدة أهمها قصورى عن ذلك فى الوقت الحاضر . وأرجو أن اؤكد للقارىء الكريم عبارة « فى حدود إمكاناتى وخبراتى » ولعل تأكيد ذلك يتحقق إذا اطلع القارىء الكريم على « محتويات الدراسات » التى تتضمن فضلاً عن هذه المقدمة وعن الخاتمة ـ الفصول التالية :

الفصل الأول ـ بعض الحقائق الثقافية الاجتماعية التاريخية المصرية .

الفصل الثانى ـ علم السيميا .

الفصل الثالث ـ علم النفس الشعبى .

الفصل الرابع ـ قنوات ثقافية إعلامية مصرية .

ولعل القارىء المدقق لهذا الكتاب يرى فى ضوء مضامينه أنه مجرد محاولة لقياس نبض جماهير المجتمع المصرى أو معظمها . وهى كما ذكرت محاولة ناقصة أرجو أن تستكمل فيما يليها من محاولات . وأرجو أن يغفر لى القارىء هذا التكرار فإننى فى ضوء تخصصى كباحث علمى اجتماعى وفى ضوء الواقع الاجتماعى الحى للمجتمع المصرى أسمح لنفسى بأن أكرر ما أراه من المشاكل أو العلل الاجتماعية ، ذلك لأن تكرار المشكلة أو العلة الاجتماعية قد تمتد أصولها ـ فى تقديرى ـ إلى مشاكل أو علل مماثلة ، ومن ثم أكرر بعض ما قلت سواء كان ما قلته فى الكتاب الحالى أو فى كتب أخرى ألفتها من قبل

حتى أصل الحاضر بالماضى . ولعل هذا الإلحاح يكون سبيلى إلى استئصال الداء وتشخيص الدواء . وليتفضل القارىء الكريم بقبول هذه الآراء فإن أهم أهدافى هو أن أعمل من أجل رفعة المجتمع المصرى حتى يعيد أمجاده ، أى حتى يتجدد ويجدد .

ولايسعنى فى هذه المقدمة إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعدنى ويسر لى أن أقوم بإجراء هذه الدراسات ، التى هى فى الواقع بعض الدراسات ، وليست كل الدراسات ، عن ألوان الثقافة فى حياة المصريين المعاصرين ، راجياً أن تتيسر لى الظروف المواتية فأكتب فى الألوان الثقافية المصرية الأخرى فى القريب العاجل .

وإننى أخص بالذكر أعضاء أسرتى الكريمة زوجتى وابنتىَّ آمال وتيسير وأبنائى أحمد وسمير ومسعد . ولن أنسى ما حييت الجهود الخلاقة التى بذلها العزيز أحمد فى مساعدتى على تنظيم ملاحق إحدى الدراسات الحالية ومشاركة العزيز الأستاذ فوزى النجار فى نفس هذه الدراسة التى لولاها لما تيسر لى كتابتها ، ولن أنسى أيضاً ما حييت السيدة الزا ثابت مديرة جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق التى لولا تشجيعها واهتمامها لما خرجت الدراسات الحالية إلى حيز الوجود .

ومن حق الزميل الفنان الأستاذ الفونس نسيم والزميل الأستاذ محمد نجيب الباحث بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية أن أقدم لهما امتنانى الصادق على تفضلها بأداء كل ما طلبته منهما من أعمال تتعلق بهذه الدراسة ، يسرت لى الكثير من المصاعب التى واجهتنى وأنا أقوم بإعدادها .

وأرجو أن يتقبل منى الزميل الحاج محمد شوقى والسيدة الفاضلة حرمه

فائق شكرى واحترامى لما بذلاه فى القيام بنسخ الصورة الأصلية للدراسة .

وإذا كنت قد عانيت قليلاً أو كثيراً فى إجراء الدراسات الحالية ، فإننى قد فعلت ذلك من أجل مصرنا الخالدة . ورجائى الحار أن أكون قد أديت واجبى نحـوها ونحو أعضاء مجتمعها ذكوراً كانوا أو اناثاً . ذلك لأن هدفى الأوحد هو أن أسهم فى عمل يعود على هؤلاء أطفالاً كانوا أو شباباً أو رجالاً أو نساء بما يرفع من شأنهم وييسر لهم الحياة الواعية الحرة الشريفة .

والرجاء التوفيق . ، ، ،

د. سيد عويس

الفصل الأول

بعض الحقائق الثقافية الاجتماعية المصرية

١ ـ من سمات المجتمع المصرى

قبل أن أبدأ الحديث عن موضوعات الدراسات الحالية أرى أن أبين بعض سمات المجتمع المصرى . ففى ضوء البحوث والدراسات التى قمت بإجرائها فى هذا المجتمع سواء أكانت بحوثاً ودراسات واقعية أم نظرية منذ عام ١٩٣٨ وحتى الآن تبين لى بعض المعلومات عن هذه السمات ، من أهمها :

(١) إن المجتمع المصرى مجتمع قديم ومستمر .

(٢) إنه غير لغته مرتين أو أكثر .

(٣) إنه غير دينه مرتين أو أكثر .

(٤) وأن أعضاءه كانوا يجعلون من حكامهم آلهة حتى اعتنقوا الديانة المسيحية « ثم الديانة الإسلامية » .

(٥) وأن أعضاءه على الرغم من الظروف التى مروا بها أو ربما بسببها متدينون ، ولعل من أهم عوامل وجود هذا التدين أن يكون سلطان المعابد القديمة والكنيسة والأديار والأزهر ثم الطرق الصوفية .

(٦) والملاحظ أن رجال الدين فى هذا المجتمع منذ القدم كانوا يمثلون فئة

المثقفين فى ربوعه حتى تم افتتاح الجامعة المصرية فى عام ١٩٠٨ فصارت توجد فئة أخرى من المثقفين المصريين .

(٧) ومن ثم نلاحظ وجود صراع بين رجال الدين المثقفين القدامى ، والذين لا يزالون لهم سلطانهم وسطوتهم الروحية ، وبين المثقفين الجدد من غير رجال الدين . وقد يخفت هذا الصراع أحياناً وقد يحتدم أحياناً أخرى .

(٨) تحقق قدر كاف من المركزية السياسية والاستقرار فى المجتمع المصرى منذ زمن مبكر . فقد وجد نوع من الوحدة السياسية منذ حوالى عام ٥٠٠٠ ق. م . أو قبل ذلك . هذه الوحدة السياسية لم تكن شملت بعد جميع أرض مصر ، بل كانت هناك مملكتان وحّدهما الملك « مينا » فى عام ٣٤٠٠ ق. م . وبدأ عهد الأسرات . واستمرت هذه الوحدة من عام ٣٤٠٠ - ٢٤٧٥ ق. م ، أى حوالى ألف سنة . وهى مدة كافية لتبلور الأفكار والعادات الخلقية .

(٩) والملاحظ أنه قد مرت على المجتمع المصرى القديم ثلاثة عصور من الاستقرار :

الدولة القديمة : الأسرات ١ - ٦ ـ ٣٤٠٠ - ٢٤٧٥ ق. م (٩٢٥ عاماً) .

الدولة الوسطى : « ١١ - ١٢ ـ ٢١٦٠ - ١٧٨٨ ق. م (٣٧٢ عاماً) .

الدولة الحديثة : « ١٨ - ٢٠ ـ ١٥٨٠ - ١٠٩٠ ق. م (٤٩٠ عاماً) .

أى أن عصور الاستقرار كانت طويلة وخاصة العصر الأساسى الأول . وذلك من حسن حظ مصر . فقد أمكن المصريون توطيد أركان نظمهم وتعميق جذور تقاليدهم وعناصر ثقافتهم .

(١٠) منذ عام ٥٢٥ ق. م وحتى عام ١٩٥٣ ميلادية (٢٤٧٨ عاما) ، كان حكام مصر حكاماً أجانب .

(١١) كان المجتمع المصرى جزءاً من العالم الغربى لفترة تبلغ حوالى ٩٧٢ عاماً (٣٣٢ ق. م - ٦٤٠ م) .

(١٢) ومن ثم نلاحظ أن مصادر ثقافة المجتمع المصرى المعاصر متعددة ، أى أننا فى حقيقة الأمر نلاحظ وجود ظاهرة الازدواجية الثقافية .

(١٣) وأهم مصادر ثقافة المجتمع المصرى المعاصر هى :

- المصدر المصرى القديم .
- المصدر اليونانى الرومانى .
- المصدر المسيحى .
- المصدر الإسلامى .
- المصدر العثمانى (محمد على مرورا بنابليون ثم الإنجليز) .
- المصدر الغربى المعاصر .

(١٤) على الرغم من قهر الحكام الأجانب ظلت مصر بمجتمعها على الخريطة فلم تندثر أو تمحها رمال الزمان ، بل بقيت بأعضاء مجتمعها ذكوراً كانوا أو إناثاً قديمة وجديدة فى آن واحد تأخذ وتعطى . وما أخذته أو تأخذه لم يمس الأصيل الذى عندها فى قليل أو كثير بل بقى الأخير مع غيره عبر الأزمان جنباً إلى جنب . فرغم النير الرومانى مثلاً تمكنت مصر من غزو غزاتها فى عقر عقولهم . ومنحت مصر رغم هوانها وضعفها السياسى العالم المتحضر آنذاك نبضه الروحى وعقيدته الدينية فضلاً عن طمأنينته النفسية .

وفى ضوء ما سبق نلاحظ أن المواطن المصرى المعاصر هو نتاج الثقافات التى مرت عبر القرون وبخاصة ما نبت منها فى تربة الوطن فى عهود الاستقرار

وتبلور وأصبح جزءاً من كيانه ووجدانه . ، أى أن المواطن المصرى المعاصر فى ضوء تاريخ المجتمع المصرى القديم قدم الدهر والمستمر استمرار الحياة هو المواطن المصرى . إنه يأبى العنف والهدم لأنه أعتاد البناء ، فتراثه الثقافى يتعطر بمفهوم « السلام » ، ويكفى لتأكيد ذلك أن نذكر أن الكتاب المقدس قد تضمن مفهوم « السلام » بصوره وأنواعه فى مواضيع عديدة فى أسفاره واصحاحاته وآياته ١٢٦ مرة . وقد ذكر مفهوم « السلام » أيضاً ، لفظه ومشتقاته ، فى مواضيع عديدة فى القرآن الكريم ، فى سوره وآياته ، ١٣١ مرة .

ويجب أن نؤكد هنا أن أعضاء المجتمع المصرى ، على مر العصور ، إذ ينشدون السلام فهم ينشدون على الدوام « السلام العادل » فمفهوم « العدالة » قد نبت من تربة مصر منذ آلاف السنين فى شخص الآلهة « ماعت » ومنذ « انيانوس » المصرى أول أسقف كرسه « مرقس الرسول » فى عام ٦٤ ميلادية ، نجد آيات الكتاب المقدس تتلألأ بمعانى حقوق الإنسان وتنشر نورها فى أعماق قلوب المصريين المسيحيين وتعطر المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى منذ ذلك الحين :

« العدل العدل تتبع لكى تحيا وتمتلك الأرض التى يعطيك الرب إلهك »
(سفر التثنية ، اصحاح ١٦ : آية ٢٠)

و « هكذا قال الرب ، احفظوا الحق وأجروا العدل . لأنه قريب مجىء خلاصى واستعلان برى »
(سفر آشعياً ، اصحاح ٥٦ : آية ١)

ثم عانقت الآيات القرآنية آيات الكتاب المقدس التى تعطر بها المناخ

الثقافى الاجتماعى المصرى منذ أن أقيم أول مسجد فى مصر فى عام ٢١ هجرية :

« . . . واستقم كما أمرت ولاتتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

(٣٢ ك الشورى : آية ١٥) .

و « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلك تذكرون » .

(١٦ ك النحل : آية ٩٠) .

وإذا كانت الحروب الأربع الأخيرة (أعوام ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣) قد فرضت فرضاً على الشعب المصرى ، فإن هذا الشعب قد فرض عليه منذ غزو الفرس لمصر فى عام ٥٢٥ ق. م حتى عام ١٩٥٦ الاستعمار المستمر . وإن كانت قد ظهرت فى فترات متقطعة فى عهد الأسر القديمة أسرات وطنية محلية .

وفى ذروة الاضطهاد الوثنى على عهد الأمبراطور « دقلديانوس » (٢٨٤ - ٣٠٥) وقيصره « جاليريوس » ، ثم هذا الأخير منفرداً (٣٠٥ - ٣١١) و « ماكسيمين دازا » (+٣١٣) . أى فى « عصر الشهداء » أو « عهد الاضطهاد الأعظم » حين سيق عدد كبير من المصريين المسيحيين إلى الموت زمراً ، فر كثيرون بعقيدتهم إلى الصحراء . وكانت فيافى مصر وقفارها حصناً أميناً وملاذاً لهؤلاء الفارين بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت . وشهدت صحارى مصر من « النطرون إلى طيبة » جموعاً

هائلة من المصريين المسيحيين الذين أفلتوا بدينهم من قبضة الأباطرة الوثنيين . وعاش بعض هؤلاء متوحداً تحتويه صومعة ، كانت أصلاً أطلال قبر أو فجوة كهف ، وآخرون آثروا عيش الجماعة فكانت الأديار (*) .

وعبر القرون فى عهد المماليك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨٢) والمماليك البرجية (١٣٨٢ - ١٥١٧) مروراً بالفتح العثمانى فى عام ١٥١٧ ، وحتى مذبحة القلعة فى ٢ مارس عام ١٨١١ ، كانت أعمال العنف سائدة ، وكان معظمها بين الحكام بعضهم البعض ، ولكن الشعب المصرى قد واجه من المحن وألوان الظلم ما جعله يدفع من كرامته وأمنه وتقدمه بسبب ذلك ثمناً باهظاً . وقد قتل فى هذه المذبحة ما يربو على أربعمائة مملوك : « أتوا بالملابس الرسمية لتناول القهوة فى سراى القلعة ، احتفالاً بخروج « طوسون باشا » بن محمد على باشا لمقابلة الوهابيين فى شبه جزيرة العرب » . ويقول الجبرتى : « ختم الله للجميع بالخير ! فإنه بلغنى ممن عاينهم بالحبوس ، وفى حال القتل ، أنهم كانوا يقرأون القرآن ، وينطقون بالشهادتين ، والاستغفار . وبعضهم طلب ماء وتوضأ وصلى ركعتين قبل أن يرمى عنقه . ومن لم يجد تيمم » .

وعلى الرغم من سجل محمد على الحافل بانشاء مصانع البارود وسك المدافع وصنع القنابل ، وتشييد السفن ومدارس الهندسة والطب ومصانع نسيج القطن والحرير والصوف والجوخ ، وأعداد المخارط والسندالات والمناشير والآلات الغربية التى يوجد أمثالها فى الغرب . « وعلى الرغم من

(*) بدأ الاضطهاد ضد المصريين المسيحيين فى زمن الأمبراطور الرومانى « ديسيوس » فى عام

اهتمامه بجمع آلاف الغلمان من أولاد البلد ليشتغلوا تحت أيدى المهرة الأجانب ويتعلموا الصنعة ويأخذوا أجراً يومياً . وكانت ما تعرف بـ « دار السد » فى عهد هذا الحاكم تعتبر مجمعاً صناعياً للعمال تتسع لعشرة آلاف عامل ، وما قام به من أوجه نشاطات أخرى مثل إجبار الناس على زرع شجر التوت على ضفاف الترع والأنهار ، ومثل استقدام اللبنانيين ليعلموا الفلاحين تربية دودة الحرير ومن ثم تضاعفت الأشجار ، وتم نجاح مائة وخمسين ألفاً من العمال فى نسيج الحرير وتصديره وغير ذلك مثل إرسال البعثات العلمية إلى الخارج التى رأس أول بعثة منها « رفاعة الطهطاوى » فإن ما فعله محمد على كان على حساب تخريب المواطن المصرى . فما أن تخلص من المماليك الذين كانوا شوكة فى سبيل استقرار حكمه حتى بدأ يسلك مسلكهم فى مصادرة الأموال ، ومضاعفة الضرائب ، وسلب المحصول الزراعى دون أن يبقى للفلاحين ما يأكلون . ولم يثنه عن ارتكاب هذه المظالم نقد علماء الأزهر الذين تقدموا إليه يذكرونه بالعهد الذى أخذوه عليه يوم أن نصبوه والياً . بل سارع إلى الأمر باعتقالهم وأمر بنفى السيد عمر مكرم إلى دمياط وقد كان صاحب الكلمة الأولى فى تعيينه ، وكان يتملقه حينئذ أمام العامة ويقول له : ياوالدى !

وشهادة الجبرتى السابقة تبين المناخ الثقافى الدينى الذى كان سائداً فى عصره . والواقع أن الشعب المصرى شعب متدين حتى عندما كان يعيش فى عصر لم يظهر فيه دين سماوى . وهو مستمر فى تدينه إلى الوقت الراهن . ويؤكد هذه الظاهرة ما نجده فى المجتمع المصرى من معابد وكنائس ومساجد فضلاً عن جماعات الطرق الصوفية العديدة المنتشرة فى ربوع البلاد من أقصاها إلى أقصاها . فالمعلوم أن عدد هذه الطرق المسجلة يبلغ ٦٨ طريقة . لكل طريقة

« شيخ » يعتمد عادة على ٢٠٠ « خليفة » ينتخبهم من أهل العرفان الموجودين بالقرى والأمصار . ويكون لكل خليفة عادة ٢٠٠ مريد وربما أكثر . أى أن عدد اتباع جماعات الطرق الصوفية يبلغ حوالى ثلاثة ملايين . ويرى البعض أن عددهم أكثر من ذلك ويقدرون هذا العدد بستة ملايين ، مع ملاحظة أن هناك ثمانى جماعات صوفية غير مسجلة .

والملاحظ أن التدين ، وبخاصة التدين الزائد على الحد ، قد يكون وليداً للقهر والمحن بأنواعها العديدة . وقد يتضمن هذا النوع من التدين « التعصب » ويعنى هذا المفهوم فى الدراسة الحالية موقفاً أو اتجاهاً « لا يمكن تبريره فى حدود الواقع والحقيقة » ، ذلك لأنه يشير إلى الحكم المسبق الذى يتخذه صاحبه إزاء جماعة أو أحد أفرادها دون سند من الخبرة أو الواقع . وهو يشير فى الغالب إلى الحكم السلبى حيال هذه الجماعة عنصرية كانت أو قومية أو دينية .

٢ ـ من سمات الثقافة المصرية المعاصرة

لعل من الضرورى أن أبدأ الحديث بشرح مفهوم « الثقافة » . فهو ككل مفهوم إنسانى له معانٍ عديدة وله أيضاً صور عديدة . والملاحظ أن مفهوم الثقافة بمعناه الاجتماعى العلمى يختلف كثيراً عن معناه العام . فهو يتضمن كل ما يمكن أن يعلم عن طريق العلاقات الإنسانية المتداخلة . وهو يتضمن أيضاً اللغة والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية وغيرها . أى هو يحتوى على كل ما يعمل فى المجتمع ومن يعمله ، وكل ما يقال فيه ومن يقوله ، وكل ما يصنع فيه ومن يصنعه ، ومتى يحدث هذا العمل أو هذا القول أو هذه الصناعة . . وتحت أية ظروف . والملاحظ ، أيضاً ، أنه لا توجد جماعة بشرية معروفة

تستطيع أن تعيش من غير أن تكون لها لغتها وعاداتها وتقاليدها ونظمها الاجتماعية الخاصة بها . ومن ثم فالثقافة ، كمفهوم بمعناه الاجتماعى العلمى ، توجد فى المجتمعات البشرية وتتميز بها هذه المجتمعات على وجه الخصوص .

وفى ضوء ما سبق يمكن أن نقول : إن معنى الثقافة معنى عام يشمل أسلوب أو أساليب الحياة للناس فى مجتمع من المجتمعات ، أو فى جماعة من الجماعات . وأنه يجب ألا يستعمل هذا المفهوم استعمالاً محدوداً يقتصر معناه على نوع معين من الثقافة كما يستعمل فى اللغة العامة أو فى التاريخ أو فى الآداب والفنون . فهو فى حقيقة الأمر التراث الاجتماعى لجماعة من الناس يرثونه جيلاً بعد جيل كأفراد أو جماعات .

وإذا كان مفهوم الثقافة يعنى بوجه عام التراث الاجتماعى لمجتمع من المجتمعات ، فإنه يجب ألّا نخلط معنى هذا المفهوم بمعنى مفهوم « العنصر » . فالأخير معناه التراث الجسمانى الذى يتوارثه الناس جيلاً بعد جيل عن طريق العمليات البيولوجية الخاصة بحفظ نوع الإنسان . والملاحظ أن الحاجات البيولوجية التى يحتاجها الإنسان تختفى فى نماذج ثقافية . فالحيوان يأكل كلما أحس بالجوع إذا استطاع ذلك . ولكن الإنسان إذا جاع ينتظر حتى يأتى موعد الطعام . وعملية العطاس هى ابتداء عملية بيولوجية ، ولكن إذا عطس إنسان تراه فى مجتمع كمجتمعنا يقول « الحمد لله » وتراه ينتظر من بجواره أن يشمته بقوله « يرحمكم الله » .

ويمكن أن نقول : إن عناصر الثقافة فى مجتمع من المجتمعات تنقسم إلى قسمين : عناصر ثقافية مادية وعناصر ثقافية غير مادية . وتتضمن الأولى المبانى

والأثـــاث والمـــلابس والآلات ووسـائـل المـواصـلات والـراديو والتليفـزيون والتلغراف . . . إلخ . أما العناصر الثقافية غير المادية فمنها اللغة والعادات والأعراف والمعتقدات والقانون والنظم الاجتماعية . . إلخ .

ويلاحظ أن العناصر الثقافية المادية هى وسائل مادية يشبع الإنسان عن طريقها حاجاته ، ويسهل الحكم على قيمتها . أما العناصر الثقافية غير المادية فمن الصعب الحكم على قيمتها أو قياسها . ويلاحظ أيضاً أن العناصر الثقافية المادية قد تنتشر بين الطبقات أو الفئات المتشابهة . فمن الميسور أن يستطيع أى شخص عادى قيادة سيارة بعد تدريب بضع ساعات ولكن فئة معينة من العلماء يمكنهم فقط أن يصلوا إلى معرفة القوانين والنظريات التى على أساسها أو فى ضوئها صممت السيارة وبرزت إلى حيز الوجود .

والثقافة فى أى مجتمع مثل كل الأمور والأشياء فى تغير مستمر . ومع ذلك فقد يخطط علمياً للثقافة فى المجتمع لكى تتغير ، وقد تترك الثقافة فى المجتمع دون تخطيط ، والمـلاحظ أن الابتكـارات والاكتشـافـات المحلية تيسر التغير الثقافى . ومن العوامل الرئيسية فى التغير الثقافى سهولة عمليات النقل الثقافى بين المجتمعـات عن طريق الاحتكـاك الثقافى بينها . . . أى العمليات التى يطلق عليها عمليات التثقيف . وهى العمليات التى تتم عندما تتصل ثقافتان أو أكثر اتصالاً مباشراً على أن تكون هذه الثقافات متباينة ، فى وضوح ، إلى الدرجة الكافية لإحداث التغيير . والتغيير الثقافى الذى يحدث يكون عادة فى التـطورات التكنـولـوجية المعاصرة . والملاحظ أن عمليات التثقيف بمعناها الواسع تبدو فى حالة نشر المعرفة العلمية والفنية عبر الحدود السياسية والحدود الثقافية فى كل أجزاء العالم .

ومجتمعنا المصرى فى ضوء تاريخه القديم المستمر كان متصلا بغيره من المجتمعات وكانت ثقافته قائمة على الأخذ والعطاء . وقد تأثرت بثقافات العالم المجاور ، بل والعالم البعيد وأثرت فيها . ومن الصعب أن نسلم بأن المجتمع المصرى مجتمع جامد محافظ على القديم . فالمصريون قد غيروا لغتهم التى يتكلمون بها أكثر من مرة فى خلال تاريخهم واستبدلوا بدينهم ديناً آخر مرة أو مرتين ، وجمعوا بين القديم والحديث فى كثير من مظاهر حياتهم وألوان ثقافتهم . فالجديد فى مجتمعنا لم يكن دائماً لينسخ القديم . وإنما كان التوفيق بين القديم والجديد مستمراً وإذا لاحظنا استمساك مجتمعنا بالقديم فليس معنى هذا بالضرورة أن أعضاء مجتمعنا محبون للمحافظة على القديم ، وإنما معناه الصحيح أن كثيراً من النظم الاجتماعية القائمة فى هذا المجتمع قد نشأ فى بيئاته نشأة طبيعية أصيلة ، ولم يكن مستعاراً من الخارج كما هو الحال فى غير قليل من النظم الاجتماعية والثقافية والدينية فى غرب أوروبا أو فى أمريكا . إن هذه النظم المصرية قد نشأت فى بيئات مصرية وتغذت بلبانها وعاشت وعمرت لأنها كانت صالحة للبقاء والتعمير .

وإذا لاحظنا الثقافة المصرية المعاصرة نجد من أهم سماتها :

(١) وأنها قديمة ومستمرة ،
(٢) وأنها متعددة المصادر ،
(٣) وأن معنى مفاهيمها متغيرة ،
(٤) وأن بعض عناصرها متناقض ،
(٥) وأنها فى معظم الأحيان فى صراع حاد مع الجديد .

(١) ففى ضوء نتائج بعض الدراسات العلمية الواقعية التى قمت بها

أو أشرفت عليهـا ، ثبت أن ظاهـرة إرسـال الـرسائل إلى الموتى يشكو مرسلوها إليهم فيها أو يطلبون منهم ، وهى ظاهرة مصرية قديمة جداً ، مستمرة حتى الآن فى مجتمعنا المعاصر . وهى كنموذج سلوكى يقوم على بعض القيم الاجتماعية ، يمارسها الكثيرون من أعضاء هذا المجتمع حتى وقتنا هذا .

وقـد لاحظت فى دراستى عن ظاهرة أرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشـافعى أن بعض الـرسـائـل قد أرسل من اهناسياً محافظة بنى سويف . ومما يلفت النظر أن نجد أن مضمون إحدى هذه الرسائل عبارة عن شكوى يذكرنا بالملامح الرئيسية لمضمون « شكوى الفلاح الفصيح » . ففى عهد ملوك اهنـاسيا ، أى منذ نحو ٤٠٠٠ سنة ، سلب أحد المتصلين بذوى النفوذ فى البلاط فلاحاً بسيطاً ما معه من سلع ، فذهب الفلاح يشكو إلى رئيس هذا الشخص وهو كبير حجاب القصر . ووجد كبير الحجاب أن الفلاح كان عنيفاً فى شكواه ، وفصيحاً فى حديثه ولهذا لم ينصفه إلا بعد أن كرر شكواه تسع مرات .

إن كل ما أراده الفـلاح هو أن يرجعوا إليه بضاعته ، وطالب بحقه من الماعت (أى الحق والعدل) من شخص وضع فى منصبه لكى يوزع « ماعت » بين الناس . وإذا كان ما حدث لأحد الفلاحين فى اهناسيا منذ ذلك التاريخ السحيق قد حدث فعلاً أو أنه مجرد قصة ، فإن ذلك لا يعنينا فى شىء ، ومجال تحقيق ذلك مجال آخر ، ولكن الذى يعنينا **أن دلالة القصة القديمة** ، مازالت باقية على الرغم من مرور نحو ٤٠٠٠ سنة . وهى موجودة ، ليست فى الرسائل المرسلة من اهناسيا إلى ضريح الإمام الشافعى فحسب ، ولكن أيضاً فى الكثير من الرسائل موضوع هذه الدراسة .

ومن العناصر الثقافية غير المادية التى استمر المصريون على مر الأجيال يؤمنون بها ويمارسون الحياة على وجه الأرض على هديها ، منذ العصر المصرى القديم حتى وقتنا هذا ، نجد العناصر الثقافية غير المادية التى تتعلق بظاهرة الموت ومفهوم الخلود . كما نجد بعض العناصر الثقافية غير المادية التى تتعلق بالنظرة نحو الموت والموتى .

ومن الأمثلة على هذه العناصر نجد الصلة بين ظاهرة النوم وبين ظاهرة الموت ، ومفهوم القرين ، وعوامل وجود ظاهرة الموت ووجود إله للموت أو ملاك للموت ، والتفكير فى الموت وعدم خشية الموتى ، والاعتقاد بوجود حياة بعد الموت ستكون حياة الثواب والعقاب وفقاً لسلوك الإنسان على وجه الأرض ، والتفكير فى الحياة بعد الموت ، والاعتقاد فى وجود حياة فى القبر ، وفى حساب الآخرة (محاسبة الضمير) ، وفى وزن الأعمال ، وفى وجود الجنة وشجرة الحياة (شجرة الخلود) ، وفى وجود حارس للجنة ، وفى وجود النار (الهاوية) وبحار لهيها وأنهار ، كما نجد كذلك العادات الراسخة المتعلقة بنعى الموتى والبكاء عليهم والنياحة والتعزية وزيارة القبور ، وكلها تعبر عن الحزن الرهيب الذى يمـلأ نفس المصرى المعاصر عندما يموت أحد أقاربه المقربين أو أحد أقاربه الآخرين أو حتى أحد الغرباء .

وقـد يفسر الحـزن الـرهيب بأنه حزن دفين توارثه المصرى المعاصر عن الماضى السحيق ، ومازال باقياً يعيش معه وبه حتى الآن . وهو إذ يحزن هذا الحزن الرهيب ، بشتى صوره ، فى مناسبة الموت ، إنما يحزن على نفسه وعلى ماضيه الكئيب الذى على الرغم من أنه ذهب وولى فإنه لا يزال يعيش فى تراثه وفى أعـظم الآثـار ، آثار الموت والموتى والخلود الممثله فى الأهرامات والمعابد

والتماثيل ، التى خلفها أجداده . ومن ثم فهذا الحزن قد أصبح جزءاً من كيانه يملأ قرارة نفسه .

ومع ذلك فالملاحظ أن المصرى المعاصر على الرغم من حزنه الرهيب فى مناسبة الموت ، يعشق الحياة ويحبها ولا يرفضها ، ويحب الدعابة ويتقن صناعتها ، ويحب الغناء والطرب . فهو إذ يقول مثلاً « إكرام الميت دفنه » فسرعان ما يقول : « إن الحى أفضل من الميت » .

وهو إذ يخشى الموت فى بعض الأحيان وإذ يكره الموت ويمقته فى بعض الأحيان الأخرى ، فإنه لا يفعل ذلك دائماً ، وترى أمه أو أخته أو زوجته أو ابنته أو حتى جارته إذ تلبس السواد وتطلق صوتها بالرثاء والنواح فى مناسبة الموت ، فأنها تلبس الملابس ذات الألوان الزاهية ، وتطلق صوتها بالغناء والزغاريد ، القصيرة منها والطويلة ، فى مناسبة الفرح ، وكأن لسان حالها يردد المثل الشعبى المصرى القائل :

« النهاردة قهر وبكرة قهر هو العمر فيه كام شهر ؟ »

وبالإضافة إلى ما سبق نجد العديد من العناصر الثقافية المصرية التى كان يمارسها المصريون الأقدمون حتى الآن . ومنها الولادة وما يتبعها من تقاليد وممارسات وبخاصة فى « حفل السبوع » والختان للذكور ، مع ملاحظة أن ختان الإناث مسيحيات ومسلمات مستحدث ، والزواج المبكر ، واستخدام بعض أدوات الزراعة مثل الفأس والمحراث والبلطة والمنجل والمذراة والنورج والشادوف والطنبور . . ، وممارسة النساء لنفس أدوات الزينة التى كانت جداتهن يستخدمنها مثل تكحيل العينين ولبس « الكردان » واستعمال « الحناء » وتصفيف الشعر .

ومازلنا نجد منزل الفلاح المصرى وفى الكثير من المنازل فى المدينة أعضاء الأسرة يأكلون على « الطبلية » ، وتراهم فى الأعياد يأكلون الكعك المنقوش على شكل « قرص الشمس » (آتون) ، ونجد أن بعض الأطعمة التى كان يأكلها القدماء لا يزال يأكلها المعاصرون مثل « البتاو » و« الجبن الحلوم » و« الفول المدمس » و« البصارة » . . . إلخ .

والتقـويم الزراعى الذى يستخدم منذ الماضى السحيق مازال هو هو . ونجد أيضاً فى مجتمعنا المصرى المعاصر ممارسات السحر فى شخص التعاويذ والأحجبـة و« العمـل » وتمائم العين والجعران والمندل . . ومازال المصريون المعـاصرون يستعملون ألفـاظـاً عديدة فى كلامهم ومنها نجد ألفاظ : القلة والماجور والفوطة والويبة والسباطة واللبشة والشرش والبورى والبسارية والبرسيم والإردب وأم قويق والغلَق والبقوطى والنبوت والمقطف وغيرها وغيرها مثل لفظ ننوس ولفظ نونو ولفظ تاتا ولفظ أمبو ولفظ واوا ولفظ بخ . . إلخ إلخ . .

وكل ما سبق يدل دلالة واضحة على الاستمرار (النسبى) للعديد من العناصر الثقافية المصرية (المادية وغير المادية) على الرغم من عدم الاستقرار (النسبى) فى المجتمع المصرى وبخاصة بعد عام ٥٢٥ ق . م أى حتى الأسرة السادسة والعشرين . فهل يرجع ذلك كما ذكرت آنفاً إلى أن الكثير من النظم الاجتماعية القائمة فى هذا المجتمع قد نشأ فى بيئاته نشأة طبيعية أصيلة ولم يكن مستعـاراً من الخـارج ؟ أو هل يرجع ذلك إلى عزلة الشعب المصرى الثقافية (النسبية) فى عهود عدم الاستقرار النسبى ، عهود القهر والمحن ، حيث نجح فى استخدام أساليب معينة لكى يقى شرور هذه العهود ويبقى حياً يعيش ؟ أو هل يرجع ذلك إلى اهتمام المنظمات الدينية المستمرة منذ عهد المسيحية مثل الكنيسة الأورثوذكسية المصرية بالاحتفاظ بهذا التراث أو بأكثره ؟ .

(٢) وتعـدد مصـادر الثقافة المصرية المعاصرة واضح إذا لاحظنا ، كما سبق القول ، قدم هذه الثقافة واستمرارها . مع ملاحظة أن القدم والاستمرار وحدهما لا يؤكدان بالضرورة تعدد مصادر الثقافة المصرية ، ذلك لأنهما صفتان للثقافة المصرية الأصيلة وبخاصة تلك التى نشأت فى المجتمع المصرى منذ الماضى السحيق . ولكن دلالة القدم والاستمرار فى ضوء تاريخ المجتمع المصرى الطويل توضح مصادر الثقافة المصرية الأخرى وأهمهـا الثقـافـة العربية (الدين الإسلامى واللغة العربية بخاصة) ، والثقافة الغربية (الأوروبية والأمريكية منذ الحملة الفرنسية بخاصة) .

والملاحظ أن المصرى المعاصر يعيش فى ظل ثقافات عديدة . وهو فى الوقت نفسه نتاج هذه الثقافات ومنتجها أو أسهم فى تطويرها . ولعل أهم هذه الثقـافات الثقافة القديمة المستمرة (ومنها الفارسية واليونانية والـرومـانية) والثقافة المسيحية ، والثقافة الإسلامية العربية فضلاً عن الثقافة الغربية وبخاصة الأوروبية والأمريكية .

ونظرة عميقة إلى عناصر الثقافة المصرية المعاصرة وإلى عناصر هذه الثقافة غير المادية على وجه الخصوص ، تؤكد لنا على تنوع مصادر هذه العناصر . ولعل أجهزة الإعلام والثقافة أن تعكس هذه الحقيقة بوضوح وجلاء وقد تجلى ذلك فى خلال حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، وهى حرب مصرية معاصرة . فقد كان بعض أجهزة الإعلام والثقافة المصرية ينشر أو يذيع ، إثارة للنخوة والحمية ، فى أغلب الأحيان ، مادة إعلامية ثقافية تتضمن ثقـافـة عربية إسـلامية خالصـة . ولعـل ذلـك يرجع إلى قلة الموضوعات الثقافية المصرية المناسبة .

وقد ترجع هذه القلة إلى أن الأدب المصرى الحديث لم يتخذ المسار الطبيعى الذى اتخذه غيره من الآداب العظمى . فقد كان الاهتمام بالثقافة المصرية القديمة المستمرة الشاملة . أى أن « عبقرية » الشعب المصرى الممثلة فى « فولكلوره » ولغتــه وسماتــه الاجتماعية والنفسية الأساسية قد أهدرت تماماً ولم يتجه إليها الكتاب (الأدباء والفنانون) كمنبع من منابع الثقافة القومية إلا فى بعض الحالات النادرة .

(٣) والملاحظ أن المفاهيم الثقافية تتطور وتتغير . وإذا بقيت ألفاظها فإن معانيها فى ضوء الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى المجتمع تتطور وتتغير كذلك . فقد يعنى لفظ المفهوم معنى معيناً فى ضوء ظروف معينة ، وفى ضوء ظروف أخرى قد يعنى معنى آخر . والأمثلة على ذلك عديدة . فالصبر ، كقيمة اجتماعية ، يعنى فى بساطة حبس النفس عن الجزع . والصبر بهذا المعنى قيمة اجتماعية إيجابية . فالحياة الإنسانية لا تخلو من الجزع . وهى كذلك لا تخلو من الطمأنينة .

وإذا كنا ندعو إلى الصبر . فإننا ندعو إلى الصبر الإيجابى ، الصبر الذى يرى ، موضوعياً ، أن دوام الحال من المحال . و« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١٣ م الرعد) . وإن تغير الحال المقصود أمر لا جدال فيه . والصبر الإيجابى لا يمكن أن يكون دعوة إلى إهدار الكرامة الإنسانية مهما كانت الظروف ومهما كانت الأحوال .

والكرامة الإنسانية لا يمكن أن تكون كرامة الأعراض فقط ، فهى أشمل من ذلك وأعمق . والكرامة الإنسانية لا يمكن أن تتكون ، فحسب ، عن طريق إلقاء المواعظ أو الترنم بالأغانى أو التشدق

بالأمثال . وإنما تتكون الكرامة الإنسانية فى الحياة المعاشة .. فإذا كانت هذه الحياة كريمة وجدت الكرامة الإنسانية عند الناس .

(٤) ومن المعوقات الثقافية التى تقف فى سبيل النهوض فى مجتمعنا المصرى المعاصر على الوجه الأكمل ، ما نجده من القيم الثقافية المتناقضة . تلك القيم التى يقف أمامها الإنسان المصرى حائراً لا يعرف كيف يسلك السلوك المتوقع . ولعل وجود هذه القيم المتناقضة يرجع إلى قدم المجتمع المصرى ، كما يرجع إلى استمرار هذا المجتمع ، ومهما يكن من الأمر فهى قيم تستحق الدراسة لكى تفهم فهماً موضوعياً يمكن فى ضوئه أن توجه أو تواجه .

ومن الأمثلة على ذلك ما تتضمنه الأمثلة الشعبية التالية :

(أ) « اللقمة الهنية تكفى مية » .
و « اللى لك محرم على غيرك » .
(ب) « القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود » .
و « اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب » .
(جـ) « القفة اللى لها ودنين يشلوها اتنين » .
و « قط ملك ولا جمل شرك » .
(د) « كلنا ولاد تسعة » .
و « الناس مقامات » .
(هـ) « الرزق يحب الخفية والمبدر رزقه أكثر » .
و « الأرزاق على الخلاق » ..
(و) اللى أوله شرط آخره نور » .
و « اللى من نصيبك راح يصيبك » .

(٥) والملاحظ أن الثقافة المصرية فى ضوء العصر فى صراع حاد مع الجديد . الجديد الذى يأتى به تراث الإنسان فى العالم المتقدم فى عصرنا الحالى ، عصر الربع الأخير من القرن العشرين . ولعل هذا الصراع يرجع – فى رأيى المتواضع – إلى الاتجاه غير العلمى السائد وبخاصة فى الريف المصرى . إن تفكير الفلاح المصرى فى معظم الحالات تفكير حسى . أى أنه لا يزال يعتقد فيما يرى ويحس . فعند محاولة استبدال مورد المياه لأول مرة فى إحدى قرى الريف ، وذلك بحفر آبار صحية ، كمورد للمياه جديد ، يستخدمها أهل القرية بدلاً من مياه الترعة الضارة ، المصدر الأساسى لمرض البلهارسيا ومرض الانكلستوما – كان حفر الآبار الجديد أمراً سهلاً ميسوراً ، ولكن اقناع أهل القرية باستخدام مياهها كان الأمر الصعب . فعندهم مياه النيل أحسن للشرب . أليس هذا الماء من صنع الله ؟ وهل يصنع الله شيئاً ضاراً ؟ ولم يرجع أهل القرية عن هذا الاتجاه إلا عندما أراهم الشخص المسئول بالمجهر الفرق الواضح بين ماء النيل الذى يجرى فى الترع وماء الآبار . ورأى زعماء القرية ، أمام المسجد وناظر المدرسة والعمدة وشيخ البلد ، الفرق واقتنعوا ! .

٣ – حول مفهوم الازدواجية الثقافية : دراسة جديدة

قد يطلق على مفهوم « الازدواجية » مفهوم « الثنائية » فى بعض الأحيان . وإننى أفضل المفهوم الأول بالمعنى الذى تبنته الدراسة الراهنة على المفهوم الثانى ، وذلك لأن المفهوم الثانى هو مفهوم فلسفى فى أغلب استعمالاته . نجد ذلك عند التحدث عن مفهومى الطبيعى وفوق الطبيعى ، وعن مفهوم الفكر والمادة ، وعن مفهومى الأخلاق والسلوك (على أساس أن الخلق شىء نفسى

داخلى أو هو الدافع الذى يحرك الإنسان للفعل أى السلوك) . ومعنى مفهوم « الازدواجية » الـذى تبنتـه الدراسة الراهنة هو معنى فكرى يعنى على وجه العمـوم التنـاقض فى بعض العنـاصر الثقافية غير المادية ، ونجده أيضاً بين ما يقال وما يعمل أو يمارس .

ونجد هذا التناقض كذلك فى أحد معانى أحد المفاهيم على الرغم من عدم تغيير لفظه (مفهوم الصبر) مثلاً .

وقد يكون التناقض بين ما يقال فى مجال معين وما يقال فى نفس المجال ، ومن الأمثلة على ذلك ما نجده من القيم المتناقضة التى يمارسها أعضاء المجتمع المصرى فى المجالات المتماثلة كما ذكرت فى « الموضوع الثانى » (اللقمة الهنية تكفى مية ، والـلى لك محرم على غيرك) مثـلاً . أو التناقض أو ربما الصراع بمعنى آخر بين القديم والجديد (الطب الأكلينيكى والوصفات الشعبية) مثلاً .

وفى ضوء بعض البحـوث والـدراسـات التى أجـريتهـا فى الواقع الحى لمجتمعنا المصرى لاحظت إيجابية الكثير من عناصر التراث الثقافى الإجتماعى المصرى غير المـادى النظرى . ومع ذلك فإننى لاحظت أيضاً أن كل ما هو إيجـابى فى هذا الـتراث الـنظرى يختلف عما يمارسه أعضاء المجتمع المصرى المعاصر . وقد لاحظت كذلك أن هذا الاختلاف موجود فى مجالات عديدة . نلاحظ ذلـك مثـلاً إذا درسنا أهداف مجتمعنا المصرى المعاصر على المستوى النظرى وبخاصة ما تعلق منها بالقيم الثقافية الاجتماعية الإيجابية :

ــ كالدعوة إلى محبة الناس بعضهم بعضا .
وــ إلى الوطنية وإن حب الوطن من الإيمان .

و ــ إلى الاهتمام بدعاء الوالدين .
و ــ إلى احترام الكبير .
و ــ إلى العطف على الصغير .
و ــ إلى احترام العامل .
و ــ إلى العمل المنتج والسعى من أجل الرزق .
و ــ إلى التعاون على البر .
و ــ إلى الاعتصام (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) .
و ــ إلى محاسبة الضمير .
و ــ إلى حسن الخلق (عن الحسن عن أبى الحسن عن جد الحسن : إن احسن الحسن الخلق الحسن : حديث شريف)
و ــ إلى الحق والعدل والإيمان والصبر (الإيجابى) .
و ــ إلى طلب العلم .
و ــ إلى السلام والمثابرة والكفاح .
و ــ إلى الولاء والشعور بالانتماء . . إلخ .

فإننا نجد أنها لا تمارس ، كلها أو بعضها ، فى واقع هذا المجتمع فى محيط بعض الفئات والجماعات . بل نجد كذلك بعض العناصر الثقافية غير المادية ، غير إيجابية . وهى تعيش مع العناصر الثقافية غير المادية الإيجابية جنباً إلى جنب فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى المعاصر ومنها :

ــ النفاق .
و ــ التملق .
و ــ حب المظهرية والتفاخر .
و ــ المغالاة .

و ــ الدعوة إلى الصبر (السلبى) .
و ــ عدم المبادرة .
و ــ الاستسلام .
و ــ تحكم الأموات فى الأحياء .
و ــ سيادة علم « السيميا » وعلم « الكوتشينة » وعلم « الفنجان » وعلم « الطوالع » والعلم « اللدنى » على « العلم العصرى » الذى عرف سر الطبيعة والمجتمع وأمكنه بطاعتهما أن يتسلط عليهما ويتحكم فيهما . . . إلخ .

والملاحظ أن وجود الازدواجية فى التراث الثقافى المصرى يرجع إلى عوامل يمكن فى ضوء تطبيق المنهج العلمى (العصرى) التعرف عليها . وقد ترجع هذه العوامل إلى آثار التغيير الثقافى الاجتماعى السريع الذى يواجهه مجتمعنا المصرى المعاصر ، وعدم مواجهة هذه الآثار مواجهة جذرية شاملة . أو قد يرجع ذلك إلى عدم وضوح الرؤية فى بعض الأمور مثل الاتفاق على « سمات المواطن المصرى » سواء كان صالحاً أو طالحاً ، واختلاف الرأى على هذه السمات اختلافاً جذرياً فى بعض الأحيان . أو قد ترجع هذه العوامل إلى أن النظام التعليمى التربوى فى محيط أجهزة التنشئة الاجتماعية كالأسرة والمدرسة والمنظمة الدينية والمنظمة السياسية ومنظمات شغل أوقات الفراغ وأجهزة الإعلام والثقافة فى واد ، والأيديولوجية (أى القيم الثقافية العامة) التى تهتدى أو يجب أن تهتدى بها هذه الأجهزة وتبلور أهدافها فى ظلها تعيش فى الضباب ، أى فى واد آخر . إننى ، ولا أتواضع ولكن أصدق القارىء الكريم ، لا أستطيع الجزم بهذه الآراء أو ببعضها أو بأى منها . إننى لا أنفيها ولكنى أرغب فى تأكيدها أو تأكيد بعضها ، على هدى إجراء البحوث الثقافية الاجتماعية التى

أنادى مخلصاً بالقيام بها حتى يعمل المسئولون فى ضوء ما تسفر عنه نتائج هذه البحوث من أجل التغيير إلى الأفضل .

وإننى أرى بل أؤكد ذلك ، إن المجتمع المصرى المعاصر لا يمكن أن يكون فى هذا الشأن فريداً . فكل المجتمعات المتخلفة أوما نطلق عليها مجتمعات العالم الثالث ، ومجتمعات الوفرة التى سبقت فى طريق المدنية أوفى طريق التصنيع ، نجد فيها ألواناً من الازدواجية الثقافية . أى أننا نجد أن ما هو نظرى فى مجالات ثقافاتها شىء وإن ما يمارس فى هذه المجالات شىء آخر ، أونجد التناقض فى بعض العناصر الثقافية غير المادية فيها . ولا يعنى وجود الازدواجية الثقافية بألوانها فى هذه المجتمعات أن عوامل وجودها ومواقعها وصورها أو الأثواب التى تلبسها فضلاً عن آثارها المعوقة ، متماثلة أوحتى متشابهة ؛ لأن كل مجتمع له تاريخه وماضيه وظروفه الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . أى أن المجتمعات متباينة ، ومن ثم فإن دراسة ظاهرة الازدواجية الثقافية فى كل مجتمع على حدة مسألة لا جدال فيها ، بل هى ضرورية لكى نثرى خبراتها المنتظمة التى تيسر فهمها لكى نواجهها ونوجهها .

فالمجتمع المصرى مثلاً فى ضوء سماته التى ذكرتها من قبل (الموضوع الأول) ومنها قدمه واستمراره وتعدد مصادر ثقافته ، غير بعض المجتمعات الأخرى . ويكفى أن يعلم القارىء أن الأسرات الست والعشرين فى تاريخ مصر القديمة (من ٣٤٠٠ - ٥٢٥ ق. م أى ٢٨٧٥ عاماً) استمرت إذا قارناها بتاريخ الولايات المتحدة (٢٠٨) أعوام ، ١٤ وحدة (إذا اعتبرنا أن تاريخ الولايات المتحدة الذى يمتد من أيام الثورة عام ١٧٧٥ إلى عام ١٩٨٣ يمثل وحدة واحدة) . وحتى إذا تعددت مصادر ثقافة مجتمع من المجتمعات مثلها مثل تعدد مصادر ثقافة المجتمع المصرى ، فالملاحظ أن هذه المصادر

لا يمكن أن تتماثل أو حتى تتشابه . وحتى هذه المجتمعات (الأخرى) قد نجد منها القديم نسبياً ومنها الحديث ومنها الأحدث نسبياً . وإذا تشابهت مصادر ثقافتها فى بعض الأمور فهى تتباين فى أمور أخرى . .

وأرجو أن يلاحظ القارىء أن الاتفاق على مفهوم « سمات المواطن الصالح » ليس بالضرورة صعباً على الرغم من أنني كباحث اجتماعى مصرى أرى أن المجتمع المصرى المعاصر منذ فترة غير قصيرة لا ينبض ضميره الجمعى بمعنى موحد لمفهوم المواطن المصرى الصالح ـ ذلك لأن الواقع الحى المعاصر يؤكد الاختلاف والتباين والتنافر السائد فى مناخه الثقافى الاجتماعى بشأن هذا الموضوع الحيوى .

ومهما يكن من الأمر فإن العبرة عندى ليست الاتفاق على معنى هذا المفهوم فحسب ، بل أكثر من ذلك أهمية هو الاتفاق على الوسائل التى تحقق إعداد المواطنين المصريين الصالحين . فالاختلاف على هذه الوسائل فى ضوء ظروف المجتمع المصرى المعاصر هو السائد . ويصل هذا الاختلاف فى الكثير من الأحيان إلى الصراع الثقافى المرير . فقد يتفق البعض على أجهزة تكوين المواطن المصرى الصالح (أجهزة التنشئة الاجتماعية المذكورة آنفاً) . ولكن الاختلاف والتباين والتنافر تكون كلها عادة حول أى الأجهزة أصلح وأجدى . وقد يكون الصراع حول ثنائيات مثل « السنة والبدعة » و « العقل والنقل » و « السلف والخلف » و « الأصالة والمعاصرة » و « الكم والكيف » و « القومية والوطنية » « الحب والحقد » و و و . . . وبين براثن هذا الصراع يعيش أطفال المجتمع حائرين وشبابه قلقين .

٤ ـ مكانة الذكر ومكانة الأنثى

حاولت أن أفهم تفسير التفرقة بين الذكر والأنثى فى المجتمع المصرى

المعاصر ، فقد لاحظت هذه التفرقة منذ أن وعيت فى أسرتى وفى خارج أسرتى على السواء . وفى ضوء ممارسة حياتى وأنا شاب مارست هذه التفرقة على الرغم من أننى فى ضوء استخدام أداة الفكر عندى أى ما يسمى بعقلى كنت أنفر من هذه التفرقة نفوراً شديداً . وأكد هذا النفور ما لاحظته عن مكانة الأنثى بعد سفرى إلى الخارج فى عام ١٩٤٨ وما بعده . كنت فى حيرة من أمرى . وأنقذنى من هذه الحيرة « رفاعة الطهطاوى » الذى ذكر ضمن ما ذكر :

« .... فإذا أمعن العاقل النظر الدقيق فى هيئة الرجل والمرأة ، فى أى وجه من الوجوه ، فى أى نسبة من النسب ، لم يجد إلا فرقاً يسيراً يظهر فى الذكورة والأنوثة وما يتعلق بهما » .

ثم تراه يستخلص من ذلك قائلاً :

« فالذكورة والأنوثة هما موضع التباين والتضاد »

ومن ثم انتهيت إلى الرأى القائل : إن المرأة تكمل الرجل وإن الرجل يكمل المرأة . وقد ثبت عندى هذا الرأى عندما ثبت لدى أن الطهطاوى قد حرم على نفسه تعدد الزوجات ، بل حرم على نفسه الطلاق طالما كانت زوجته على العهد باقية وللأمانة الزوجية مؤدية . على الرغم من أن هذا الرجل كان يعيش فى عصر لم يكن الرقيق قد حرم فيه بعد . وكان فى منزله يقتنى الرقيق ، عبيداً وإماء . ولكن الطهطاوى حرم على نفسه هذا الاستمتاع ، وأخلص فى « وحدانية الحب لزوجته الواحدة » .

وعلى الرغم مما تقدم فإن الحيرة قد جاءتنى مرة أخرى ، وكان ذلك على وجه الخصوص عندما أمعنت النظر فى الحياة المصرية مرة أخرى . وبعد أن

أجريت بعض البحوث والدراسات وخصوصا ما يتعلق منها بالتراث المصرى القديم حيث كانت العلاقة بين الابن وأمه تدل دلالة قاطعة على تقدير الابن للأم . وقد بلغت هذه العلاقة من عظم الشأن بحيث نجد كثيراً فى مقابر الدولة القديمة أم المتوفى فى العادة ممثلة إلى جانب زوجته . ومع ذلك نجد فى كل العصور أن رغبة الأب المشتهاه أن يستطيع ترك وظيفته لابنه « وأن يجلس ابنه من بعده على كرسيه فى منصبه » . وكان على الابن واجبه المقدس وهو « أن يجعل اسم أبيه حياً يعيش » . ولنا فى أسطورة « أيزيس وأوزوريس وحورس » ما يدل دلالة واضحة على الاهتمام بالابن الذكر فى شخص حورس الذى تربع على العرش بعد أبيه وانتقم من عمه « ست » فى سبيل تحقيق هذا الهدف السامى ألا وهو أن يجلس الابن من بعد أبيه على كرسيه فى منصبه وأن يجعل اسم أبيه حياً يعيش .

وقد بدا لى ، ولا يزال ، أن حورس الذى انتقم لوالده المتوفى « أزوريس » وبرأ أسمه ضد اتهامات عمه ، ثم وضع تاج والده على مفرقيه ، أنه كان النموذج الذى احتذاه المصريون واستمروا أن يفعلوا ذلك منذ الماضى السحيق وحتى وقتنا الراهن . ففى « بردية طبية محفوظة بمتحف برلين » وصفت الحيلة التالية للتيقن عما إذا كانت المرأة المتزوجة ستحمل أم لا ، وهى : « البطيخ يدق وينقع فى لبن امرأة حملت ولداً . ودع المرأة تأكله . . فإذا قاءته فإنها ستلد ، أما إذا انتفخ بطنها فإنها لا تلد » ! وقد ذكر « هبوقراط » وصفة تشبه هذه الوصفة الغريبة ، إذ قال « خذ تينا أو نبات بتيروس » ولبن امرأة حملت ولداً وأجعل المرأة تشربه فإن قاءت فإنها ستلد ، أما إذا لم تقىء فإنها لا تحمل » .

ومكانة المرأة التى تكون قد أنجبت ولداً مكانة رفيعة منذ الزمان القديم ،

ويبدو ذلك بوضوح فى ترديد الساحر الرقى والتعاويذ لدرء الأخطار أو لشفاء المرضى . وهو يتلو هذه الرقى والتعاويذ على « لبن امرأة تكون قد أنجبت ولداً » ممزوجاً ببعض العقاقير لتحدث هذه العقاقير أثرها ضد المرض . نجد ذلك مثلاً عند التغلب على مرض الزكام (البرد) :

« ألا فلتذهب أيها الزكام (البرد) يا ابن الزكام ،
يامن تحطم العظام وتفسد الدماغ ، وتفصل الدهن ،
وتمرض الفتحات السبع فى الرأس . إن خدم « رع » .
يتوسلون إلى تحوت — انظر إنى احضر وصفتك
إليك . ودواءك إليك ، لبن امرأة أنجبت ولداً وكرات
العطور ، إن هذا يطردك ، وإن هذا يعافيك ، إن هذا
يشفيك ، وإن هذا يطردك . أخرج على الأرض —
رائحة كريهة — رائحة كريهة » .

وفى ضوء نتائج البحوث والدراسات التى أجريتها فى المجتمع المصرى المعاصر نجد أن مكانة الذكر فى هذا المجتمع استمرت مرتفعة لبعض العوامل أهمها :

(أ) العوامل الثقافية :

— حيث نسبة الذكور المصريين المتعلمين فى المجتمع المصرى أكبر من نسبة الإناث المتعلمات .
— وحيث تكون لولادة الذكر فى المجتمع المصرى فرحة لها صدى كبير عند أعضاء الأسرة والأقارب المقربين وغير المقربين وحتى الغرباء .
— وحيث يكون عدم إنجاب الأطفال الذكور سبباً فى طلاق الزوجة فى

بعض الأحيان ، أو الزواج من أخرى .

ــ وحيث نلاحظ أن الرجل إذا سار فى الطريق (وبخاصة فى الريف) تتبعه الإناث من ورائه .

ــ وحيث نجد نفور الذكر المصرى وغضبه الشديد إذا وصف بأنه « امرأة » .

(ب) عوامل ثقافية دينية :

ــ حيث يكـون نصيب الذكر المصرى فى الميراث فى ظل تعاليم الدين الإسلامى (دين الأغلبية) ضعف نصيب الأنثى .

ــ وحيث يكـون حقه فى الزواج بأكثر من زوجة إلى أربع زوجات مرة واحدة ، فى ظل تعاليم الدين الإسلامى ، مكفولاً .

ــ وحيث يكون للزوج المصرى حقوق مكفولة مثل طاعة الزوجة والقوامة على الأسرة ، وتـدبير الزوجة لشئون البيت وصيانته ، وطلاقها عند الضرورة ، وتهذيبها عند العصيان .

(حـ) عوامل اجتماعية :

ــ حيث إن الأسرة المصرية أسرة أبوية .

ــ وحيث إن الذكور المصريين فى الأسرة يعتبرون المسئولين عنها .

ــ وحيث إن الذكر المصرى يحمل اسم اسرته التوجيهية (أى أسرة أبيه وأمه وأبنائهما) وعندما يبلغ أشده ويتزوج يورث هذا الاسم إلى أبنائه .

ــ وحيث يكـون الـذكـور من أبناء الأسرة المصرية درعاً وحماية لها من أعدائها إن وجد هؤلاء الأعداء .

ـ وحيث يؤدى الذكر المصرى أدوارا اجتماعية لاتؤديها الأنثى المصرية مثل أدوار الحاكم والقاضى والمقاتل . .
ـ حيث يكون حق الذكر المصرى فى سن معينة فى أن ينتخب ويُنتخب حقاً إلزامياً .

(د) عوامل اقتصادية :

ـ حيث تكون نسبة عمالة الذكور المصريين أعلى جداً من نسبة عمالة الإناث المصريات .
ـ وحيث نجد أن الذكر المصرى القادر يعمل فى كل الأعمال ويشغل كل الوظائف الهامة منها أو معظمها .
ـ وحيث يمنع الذكر المصرى الأقارب غير المقربين من الميراث ، ومن ثم يحفظ مال الأسرة .

ومع كل ما سبق وفى ضوء الملاحظة المباشرة (أى الملاحظة بالمشاركة) وغير المباشرة نجد أن مكانة « الأم » (التى تلد ذكراً أو تلك التى تلد أنثى على السواء) مكانة مرتفعة . كانت هذه المكانة مرتفعة فى الماضى السحيق واستمرت مرتفعة حتى وقتنا الحاضر . ويؤكد ذلك ، الأمثلة الشعبية التى يحفظها المصريون المعاصرون ويرددونها حتى الوقت الراهن ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر « اللى بلا أم حاله يغم » و « الأم تعشش والأب يطفش » !

والملاحظ أن « دور » الأم هو أحد أدوار الأنثى المصرية ؛ لأن الأنثى المصرية قد تكون زوجة أو أختاً أو ابنة أو زميلة أو جارة كذلك . والملاحظ أيضاً أن الأنثى المصرية هى « حاملة ثقافة المجتمع » أى مجتمع وهى تشترك

مع الذكر فى صناعة هذه الثقافة ، فعلت ذلك فى الماضى فى كل مراحل الحياة ، فى أى مرحلة الحياة قبل الزراعة ، وفى مرحلة الحياة فى القرية (قبل الميكنة وبعدها) فضلاً عن مرحلة الحياة فى المدينة .

ونحن نجد كلَّ ذلك ، أى ما تؤديه الأنثى المصرية ، فى مناسبات الميلاد والوفاة والزواج وغيرها . وما يتعلق بهذه المناسبات من طقوس لا يخفى على أحد . وكلها ، أى الطقوس يقع تنفيذها على عاتق الأنثى المصرية فى معظم الأحيان . صحيح قد يشترك الذكر بالإشراف ، ولكن الحرص على تنفيذ العناصر الثقافية المادية وغير المادية يكون حرص الأنثى .

وقد لاحظت وأرجو أن يكون القارىء قد لاحظ كذلك المسئولية الكبيرة التى تحملها الأنثى المصرية إذا كانت تؤدى دور الزوجة على كتفيها . إنها مسئولية ينوء بحملها بعض الذكور من الرجال . نجدها ، وبخاصة فى الريف المصرى والأحياء الشعبية فى المدينة ، تلبس فى معظم الأحيان الجلباب الأسود و « الطرحة » السوداء ، وتراها تحمل الأثقال المادية تارة بيديها ، وتارة أخرى على رأسها وهى تسير فى الشارع لا تئن إذا تعبت . وتراها أيضا فى خدمة الزوج والأبناء ، وتكون أول من يستيقظ فى الصباح ، وآخر من ينام فى المساء . وتعيش هذه الحياة يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، وسنة بعد سنة ، حتى ترحل عن دنياها التى لم تعرف فيها إلا الكثير من القهر والشقاء .

وفى هذا الضوء بانت لى التفرقة بين الذكر المصرى أقصد مكانته الاجتماعية وبين المكانة الاجتماعية للأنثى المصرية (ما عدا إذا قدر لها أن تكون أماً) مرة أخرى . والشواهد على هذه النتيجة المفجعة التى ذكرتها والتى لم أذكرها عديدة . وبدا لى فى ضوء الظروف الثقافية الاجتماعية السائدة فى

مجتمعنا المصرى المعاصر أن طلب مساواة الأنثى المصرية بالذكر المصرى دون ما تطابق بينهما طلب عسير . ولعل المخرج من هذه الورطة أن يكون الطلب لا إلى المساواة بين الذكر والأنثى من حيث هما من بنى البشر ، ولكن تكون المساواة بينهما مساواة فى الفرص . أى أن يتيح المجتمع المصرى للأنثى مثل الذكر فرص التعليم ، والانخراط فى قوة العمل ، وفى العمل السياسى ، وفى القيادة . ولعل من الإنصاف أن أردد كلام الإمام « محمد عبده » الذى مات فى عام ١٩٠٥ أى منذ ٨١ عاماً ، فقد انصف الرجل الأنثى المصرية فى كتاباته وفتاواه ، وقال فى المعنى الذى أحاول الآن أن اعرضه على القارىء وهو يتحدث عن « قوامة الرجل على النساء » قولاً أكمل بلاغة وأوضح تعبيراً ، فهو يقول :

« وأعلموا أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء
أن يكونوا سادة فى بيوتهم إنما يلدون عبيداً لغيرهم » .

وأرجو من القارىء أن يعلم علم اليقين بأننى لاأجزم بكل ما ذكرته أو أننى أصر عليه ، أقصد تفسير ارتفاع مكانة الذكر المصرى وإرجاع ذلك إلى العوامل التى ذكرتها . فلا يخفى على القارىء ما للظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة من تأثيرات على مستوى هذه المكانة الاجتماعية أقصد ارتفاعها عند الذكر المصرى وانخفاضها عند الأنثى المصرية .

٥ ـــ الثالوث والوحدانية

قرأت فى إحدى الصحف اليومية عنواناً لمقال يقول : « ٣ جهات رقابية على الفيلم لماذا ؟ » . وكان كاتب المقال يعنى بهذه الجهات أن هناك « الرقابة على المصنفات الفنية » و « شرطة المصنفات الفنية » و « إدارة حماية الآداب العامة » .

وبعــد أن قرأت هذا المقـال تبـادر إلى ذهنى ، عنـدمـا كنت فى شرخ الشباب ، وما كان يتردد على ألسنة المصلحين المصريين فى ذلك الحين أى منذ حوالى خمسين عاماً ــ ماكان يسمى بـ « الثالوث غير المقدس » . وكان يقصد بهذا الثالوث « الفقر والجهل والمرض » ووجوب مكافحته لكى تنهض البلاد وبخـاصـة بعد أن أبرمت معاهدة عام ١٩٣٦ ، ورأى هؤلاء المصلحون أن الكفاح السياسى ضد المستعمر قد انتهى أو كاد ، وإنه قد حان الحين لكى يكـافـح المصريون بقيادتهم عن وعى « الثـالـوث غير المقـدس » المشار إليه وبخاصة فى الريف المصرى !

وفى ضوء نتائج حقائق التاريخ المصرى فى ضوء قراءاتى له ، نلاحظ وجود الثالوث سواء أكان مقدساً أم غير مقدس . وأنه لعب ، ولا يزال ، أدواراً هامة فى حياة أعضاء المجتمع المصرى . فنجده قد فعل ذلك فى العصر القديم ، ونجده فى ضوء تعاليم الديانة المسيحية (الأورثوذوكسية بخاصة) ركناً ركيناً من أركان الإيمان بهذه التعاليم . وحتى فى محيط القديسين وبعض الأولياء نجد صوراً عديدة من هذا الثالوث . وأقربها لدى قلوب المصريين المسلمين سيدنا الإمام الحسين بن على وشقيقته السيدة زينب الطاهرة وابنه على بن الحسين .

والملاحظ أن ثالوث الرقابة على الفيلم فى الوقت الراهن (وقت كتابة هذه السـطور) ليس وحـده الـذى نجـده مسلطاً على رؤوس الأفـلام السينمائية والعاملين فى حقلها ، بل إننا نجد هذا الثالوث يستشرى فى محيط أمور أخرى تمس حياة المصريين المعاصرين . فنجده مثلاً فى أسعار بعض السلع : أسعار العملة الحرة وأسعار القمح والدقيق وأسعار الأرز وأسعار السكر وغيرها من السلع التى لا تستغنى عنها الأسرة المصري لكى تقيم صلب أعضائها .

ومع تقديرى الخالص المخلص للجهود التى يبذلها السادة المسئولون على مقاليد الأمور فى بلادنا فى الوقت الراهن ، فإننى أحاول أن أرصد تأثير الماضى السحيق على بعض التصرفات الإنسانية المعاصرة . ومع ذلك فإننا نجد أن مصرنـا الخـالدة لم تكن وحدها التى يعيش فى وجدانها الثالوث . ففى ضوء حقـائق تاريخ البـابـوية وبخـاصـة فى عام ١٠٧٣ ، أى فى زمن البـابـا « غريغوريوس السابع » الذى شيد أركان سلطة البابوات السياسية ، فكانت سطوتهم يومئذ فى أعلى طبقة سائدة على كل ملوك الأرض ، إذا كان لغيرهم من الملوك تاج واحد ، وأما هم (البابوات) فلهم ثلاثة تيجان أحدها فوق الآخر دلالـة على السلطة المثلثـة المجتمعة فيهم وهى : رئاسة الكنيسة العمومية ، وأسقفية روما والولايات المدنية على الأراضى الرومانية .

والمعلوم أن البـابـا غريغـوريوس السـابع لم يكن أول من اعتنق الديانة المسيحية ، فقد سبقه إلى اعتناق هذه الديانة « الملك قسطنطين الأول » فى عام ٣١٢ الذى كان شديد التمسك بها حتى لم يكن أحد من الملوك أشد حمية منه عليها ، فجعلها ديانة الولاة والحكام ، وهدم هياكل الأصنام . وإذ لم يكن فى ذلك الوقت أسقف على جميع الكنائس فكان هو فى واقع الأمر صاحب الحول والطول على هذه الكنائس .

والمعلوم أيضـاً أن الاضـطهـادات التى أثارها القياصرة الرومانيون على المسيحيين عديدة : منها التى حدثت فى عهد « نيرون » فى عام ٦٤ ، وفى زمن « دوميتيان » فى عام ٩٥ ، وفى أيام تراجان فى عام ١٠٧ ، وفى زمن « أدريان » فى عام ١١٨ ، وفى أيام « كاراكلا » فى عام ٢١٢ ، وفى أيام « مكسيمينوس » فى عام ٢٣٥ ، وفى زمن « ديسيوس » فى عام ٢٥٠ ، وفى زمن « فاليريان » فى عام ٢٥٧ ، وفى زمن « أوريليان » فى عام ٢٧٤ ، وفى زمن « ديولكيتان » فى عام ٣٠٣ .

وقد تأسست **الرهبنة المسيحية** فى مصرنا الخالدة بسبب الاضطهاد الذى أثارة الإمبراطور ديسيوس (المذكور آنفاً) ، حيث فر الكثير ، ومن جملة النازحين رجل يقال له « بولس » من مدينة (طيبة) انفرد بذاته وانعكف على العبادة والصوم ، **فكان أول راهب مصرى مسيحى** . ولكنه ظهر فى أوائل القرن الرابع رجل آخر يدعى « انطونيوس » فبنى ديرا وجمع فيه أناساً ممن كانوا يميلون للاعتزال عن العالم ، ونظم لهم قوانين للسلوك بموجبها ، ومن ثم سمى « **أبو الرهبان** » . **ثم إن هذه الطريقة أخذت فى الامتداد والاتساع حتى وصلت إلى فلسطين وسوريا بوساطة أحد خلفاء أنطونيوس وبالتدريج عمت أكثر البلاد المسيحية** .

والملاحظ أن عقيدة الثالوث لم تكن لها السيادة **وحدها** على عقول المصريين القدامى أو المحدثين . وذلك لأن **عقيدة الوحدانية** قد برزت فى الماضى السحيق حين دعا إليها الداعون من الرسل والأنبياء أو من أتباعهم . ثمُ تأكدت هذه العقيدة **واتسعت آفاقها** فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب حين فتح عمرو بن العاص مصر فى عام ٦٤٠ م حيث سادت عقيدة **الوحدانية العالمية** فى محيط الملايين من أعضاء المجتمع المصرى من المسلمين منذ ذلك الحين حتى وقتنا الراهن .

ويبدو لى فى ضوء كل ما سبق أن ألوان الفكر فى المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى لا تأتى من فراغ ، أى أن لها جذوراً تنبت أشياء كان الأولون يسيرون على هديها ، إذا كانت الظروف الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية مواتية ، أو تنبت أشياء أخرى إذا تغيرت هذه الظروف . وإننى لا أدعى الأخذ بالمقولة المشهورة « أن التاريخ يعيد نفسه » ، ولكن كل ما آخذ به وأعنيه أن شعبنا المصرى شعب قديم ، وإن عناصر ثقافته على الرغم من تنوع مصادرها

مستمرة فى وجدان هذا الشعب ولا تزال .

وقد تأكدت بعض المعلومات السابقة عندما نشرت « دار المعارف » بالاشتراك مع « مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر » الجزء الأول من كتاب « تاريخ العلم » لمؤلفه « جورج سارتون » فى عام ١٩٥٧ . وقد ترجم هذا الكتاب لفيف من العلماء بإشراف لجنة مؤلفة من الدكاترة : ابراهيم بيومى ، ومحمد كامل حسين ، وقسطنطين زريق ، ومحمد مصطفى زيادة . ونشر فى مشروع الألف كتاب فى نفس الفترة ترجمة لكتاب « جيمس هنرى برستد » « فجر الضمير » الذى انتهى من ترجمته « الدكتور سليم حسن » فى شهر يناير عام ١٩٥٦ . وفى عام ١٩٦٦ نشر كتاب « هيرودوت يتحدث عن مصر » الذى ترجمه عن الأغريقية الدكتور محمد صقر خفاجة وقدم له وتولى شرح أحاديث « هيرودوت » « الدكتور أحمد بدوى » . وكان لهذه الكتب وغيرها مثل كتب « آلان جاردنر » و « جون ولسون » و « فلندر زبنزى » وغيرهم وقع كبير فى نفسى . وقد استخلصت من بعض ما قرأت وأنا أكتب أحد كتبى عن الخلود فى التراث الثقافى المصرى ما يلى :

> « . . . أنه عندما دخلت المسيحية ثم الإسلام إلى مصر ، لم يجدا فى شعب مصر أرضاً بكراً أو صحراء جرداء . لأن مصر كانت تعرف « أوزوريس » واستشهاده ثم بعثه كما كانت تعرف شقيقته (زوجته) «إيزيس » قبل أن يطرق آذانها صوت البشارة المرقسية عن « الفادى المخلص » وأمه « مريم العذراء » وكذلك كانت تعرف الوحدانية العالمية قبل أن يغزو أرضها جيش عمرو بن العاص . لهذا لما احتضنت

مصر تعاليم هذين الدينين ، تمثلت رموزهما وأسرارهما
الشبيهة أشد الشبه بما كانت تعى من رموز وأسرار » .

وقد عرفت من هذه المراجع وغيرها أقدم أنشودة توحيدية تلك التى نجد فى بعض أجزائها ما يدعو إلى مقارنتها بالمزمور ١٠٤ من « كتاب العهد القديم » (آيات : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) . وقد أنشد هذه الأنشودة أول الموحدين « أخناتون » الذى إذا اعتبرناه مصلحاً دينياً فقد سبق نظيره الأوروبى « مارتن لوثر » بتسعة وعشرين قرناً (١٣٥٠ ق . م — ١٥٥٠ م) .

والملاحظ أنه على الرغم من أن رجال الدين قد رفضوا عقيدة « آتون » التوحيدية ، وأعادوا الأساطير القديمة بعد وفاة اخناتون واسترجعوا سلطانهم القديم ، وأخمدوا كل مغامرة دينية جديدة . فإنهم لم يستطيعوا أن يستأصلوا جذور عقيدة التوحيد . ذلك أن نبوءة اخناتون تجلت بعد موته بثلاثة قرون ونصف ، ثم بعد ذلك فى أمثال « النبى سليمان » . وعرفت منذ ذلك الحين أن « الفكر لا يموت » فقد تغشاه رمال النسيان فى بعض الأحيان وما يلبث إذا كان فكراً ذا أصالة أن يعود مشرقاً محققاً لما يريد .

وفى ضوء نتائج ما قرأت وجدت أن الكثير من الأفكار القديمة قد جاءت فى الكتب السماوية (انظر هيرودوت يتحدث عن مصر ، سفر التكوين : صفحات ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٩٦ ، ٢٦٠ ، ٣٠٤ . وسفر الخروج : صفحات ١٩٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٩١ . وسفر الملوك الثانى : صفحة ٢٧٢ . وسورة البقرة صفحة ١٦٦ وسورة النجم : صفحة ٧٠ سورة يوسف : صفحة ٢٦٠) . (انظر أيضاً فجر الضمير ، انجيل يوحنا : صفحة ١١١ . وانجيل

لوقا : صفحة ٣١٩ . وسور وايات القران الكريم ، صفحات ٥٣ و ٩١ ، ١٤٧ ، ٢٣٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٦ ... إلخ) .

ومن أناشيد « اخناتون » التى نجد مضمونها بالمزمور رقم ١٠٤ من كتاب العهد القديم ما يلى :

الليل والإنسان

« المزامير »

« وحينما تغيب فى أفق السماء الغرب فإن الأرض تظلم كالأموات
فينامون فى حجراتهم ورؤوسهم
ملفوفة ومعاطسهم مسدودة
ولا يرى إنسان الآخر فى حين
أن أمتعتهم تسرق وهى تحت
رؤوسهم وهم لا يشعرون بذلك » .

« تجعل ظلمة فيكون ليل فيه
يدب كل حيوان دعر »
(المرموز : ١٠٤ - ٢٠)

الليل والحيوان

« وكل أسد يخرج من عرينه وكل
الثعابين تنساب لتلدغ والظلام
يخيم والعالم فى صمت فى حين أن
الذى خلقهم فى أفقة » .

« الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس
من الله طعامها » .
(المزمور : ١٠٤ - ٢١)

الخلق العالمى

« ما أكثر تعدد أعمالك إنها على الناس

ما أعظم أعمالك يارب كلها بحكمة

خافية ياآيها الا له الأحد الذى لا يوجد بجانبه آلـه آخر لقد خلقت الأرض حسب رغبتك وحينما كنت وحيداً (لا شيء غيرك) خلقت النـاس وجميع الماشية والغزلان وجميع مـا على الأرض مما يمشى على رجليه ومـا فى عليين مما يطير بأجنحته وفى الأقطـار العالية سوريا وكوش وأرض مصر فإنك تضع كـل إنسـان فـى مـوضعـه » .

صُنعت ملآنة الأرض من غناك » .

(المزمور ١٠٤ - ٢٤)

وإذا كانت الآية ٥١ من الاصحاح الأول من انجيل يوحنا تقول :

« وقال له الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان » .

فإننا نجد أحد الحكام المصريين القدامى وهو « نفرروهو » الذى عاش فى عهـد « الملك سنفرو » مؤسس الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ ــ ٢٦٥٦ ق . م) ، قد كتب مقالاً يتنبأ فيه بقدوم ملك مخلص للبلاد قائلاً :

« . . . وسيفرح أهل زمانه ، وسيجعل ابن الإنسان اسمه باقياً أبد الأبدين » .

ونجـد أيضـاً أن « بتـاح » المعبـود الرئيسى للعاصمة القديمة « منف » ويتكون ثالوثه المقدس منه ومن « سخمت » كزوجة ومن « نفرتوم » كابن ــ وقد وصف بأنه :

« الذى نطق بأسماء كل الأشياء »

فهل مضمون هذا الوصف يكون مشابها لمضمون الآية الكريمة من سورة البقرة : ٣١ التى تذكر :

« وعلم آدم الأسماء كلها »

ونجد كذلك من نصائح « بتاح حتب » أحد وزراء الدولة القديمة والتى مر عليها آلاف السنين أحد نصائحه التى يقول فيها عن الزوج الكيس وكيف يعامل زوجته :

« اجعل قلبها فرحاً مادمت حياً ، فهى حقل مثمر لولى أمرها »

فهل مضمون هذه النصيحة يكون مشابهاً لمضمون الآية الكريمة من سورة البقرة : ٢٢٣ التى تذكر :

« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنىَّ شئتم »

وكل ما ذكرت تحت هذا الموضوع يجعلنى فى حيرة من أمرى . فانا أتساءل بإيمان وصدق عن كيفية انتقال الأفكار القديمة (الوثنية) إلى الكتب السماوية ، وهل يجب أن نأخذ بالرأى القائل بأن وصف هذه الأفكار بالوثنية خطأ فاحش ، فقد ورد فى القرآن الكريم فى سورة غافر : آية ٧٨ .

« ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون »

أى أن اتباع الديانات السماوية يرون أو يجب أن يروا أن القائلين بهذه

الأفكار كانوا رسلا من قبل . وإننى أؤكد هنا لفظ « القائلين » وليس الذين أخذوا عنهم . إننى أمد يدى للقارىء لكى يساعدنى حتى تنقشع حيرتى .

٦ ـ أساليب سلوكية مصرية عند مواجهة القهر والمحن

إن ما دفعنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع ما ذكره « ابن خلدون » فى مقدمته عندما شبه بين عضو المجتمع والمجتمع فى أن المجتمع الذى يقع تحت قهر واضطهاد فإنه يفقد انسانيته . كان ذلك فى عام ١٩٦٢ عندما تبنى « المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية » إقامة « مهرجان » لابن خلدون . وذلك تخليداً لذكراه وتقديراً لشأنه ليس فقط كفيلسوف ومؤرخ ، ولكن كمؤسس لعلم الاجتماع الذى ذكره فى مقدمته باسم « علم العمران » . وكان لما قاله ابن خلدون فى هذا الشأن وقع فى نفسى ، فقد تذكرت تواً تجربتى العلمية عندما كنت أدرس مع آخرين موضوع « الشعور بالعداوة » فى « مستشفى بوستن السيكوباتى » فى عام ١٩٥٥ .

فى خلال هذه التجربة صادفنى مفهوم « المنافذ الاجتماعية » . ويقصد بهذا المفهوم الأساليب التى يمكن عن طريقها أن تفرغ الشحنات من الدوافع العدوانية الناشئة عن التوترات التى تتولد عند أعضاء المجتمع عندما يواجهون القهر والمحن . ويتضمن معنى هذا المفهوم شرطاً هو ألا تخرق هذه الأساليب القواعد الأساسية اللازمة لبقاء كيان النظام الاجتماعى .

وتتضمن هذه الأساليب عادة التربية العسكرية والرياضية بأنواعها ، وممارسة الفنون بأنواعها . كما تتضمن المواكب والاحتفالات والمهرجانات فى الأعياد والموالد وفى غيرها . وقد تتضمن هذه الأساليب أيضاً بعض ألوان معينة

من المزاح وتبادل الدعابات (النكت مثلا) ، وقد يسمح لبعض المجتمعات بألوان معينة من السباب ، وقد يكون تعاطى المخدرات أو الخمور أسلوباً من هذه الأساليب .

وفى ضوء بعض البحوث والدراسات التى أجريتها عن الواقع الحى فى المجتمع المصرى ، وصلت إلى بعض المنافذ الاجتماعية أو الأساليب التى يواجه الشعب المصرى على مرّ الأيام بها ألوان القهر والمحن . ولاحظت أن معظم هذه المنافذ أو الأساليب منافذ وأساليب غير عنيفة ، ومنها ما يلى مع ملاحظة أن ترتيبها كما سجلته هنا لا يعنى أبداً أن الشعب المصرى كله يفعل ذلك ، أو أن من يفعل ذلك من أعضائه يفعلون ذلك بنفس الترتيب وفى كل الأوقات :

(١) أن يقف أعضاء هذا المجتمع موقف المتفرج الذى يفسره البعض أحياناً بأنه موقف « اللامبالاة » ، فالأمور تسير من أمامهم سيرها الطبيعى (أو غير الطبيعى) وكأنهم لايرونها ، أو هم فى الواقع يرونها وهم فى مقاعد المتفرجين . فهم لا يشعرون بالانتماء لأن الحاجة إلى هذا الشعور لم تغرس فى نفوسهم بعد بالممارسة عن طريق اهتمام المجتمع فى شخص أجهزة التنشئة التى توجد بالضرورة فيه بتربية الوجدان على حب الحرية واحترام العقل وعلى حق كل عضو منهم فى الاختلاف والتباين .

(٢) أن يقف أعضاء هذا المجتمع موقف المنافق المستضعف الذى يقف أمام السيد الجبار لكى ينال أكبر نصيب من الأسلاب بأقل مجهود .

(٣) أن يقف أعضاء هذا المجتمع موقف الصابر الذى ينتظر تغيير الأحوال ، لأن كل وقت له أذان وأن دوام الحال من المحال . وربما فى القليل النادر يقف أعضاء هذا المجتمع العتيد موقف الصابر الذى يحبس النفس عن

الجزع . فالحياة فيها الحلو والمر . والحلو لا يمكن أن يستقر على حال والمر كذلك لا يمكن أن يستقر له مقام .

والملاحظ أن « مفهوم الصبر » قد ورد « لفظه ومشتقاته فى الكتاب المقدس فى أسفاره واصحاحاته وآياته ، ٥٢ مرة . كما ورد هذا المفهوم ، لفظه ومشتقاته فى القرآن الكريم ، فى سوره وآياته ، ١٠٣ مرات .

(٤) أن يقف أعضاء هذا المجتمع موقف الشكاة . فهم يشكون القهر والقاهرين لمن حولهم من البشر ، وربما للأموات العاديين أو للأموات القديسين والأولياء . وتجدهم يؤدون دور المستضعف المستكين وهؤلاء أى الأموات فى ضوء التراث الثقافى المصرى هم الأقوى وأصحاب النفوذ . وقد تكون الشكاوى لله فهو وحده القهار والسند الأوحد للمستضعفين .

(٥) أن يقف أعضاء هذا المجتمع موقف الحزين الباكى . فعن طريق الحزن والبكاء تفرغ شحنات الدوافع العدوانية وليدة قهر القاهرين واستبداد المستبدين . وتبدو المشاعر الحزينة عند أعضاء المجتمع المصرى عميقة عمق ما تعكسه عيون الأمهات والزوجات وحتى الشابات المصريات . إن ما تعكسه هذه العيون فى معظم الأحيان ، مهما انفرجت الشفاة ، يدمى القلوب . وبخاصة قلوب الأطفال وبعض الرجال .

(٦) أن يقف أعضاء هذا المجتمع موقف الداعى الذى يدعو لنفسه أو يدعو لغيره من الأحياء ومن فى حكمهم . أو الداعى الذى يدعو على الأعداء القاهرين الظالمين ومن فى حكمهم . والتراث الثقافى المصرى مملوء بالدعوات ضد الأعداء . وذلك بطلب الانتقام منهم عن طريق

إصابتهم بإصابات جسمية أو بالموت أو بالهلاك . أو بالانتقام من أولادهم أو بتشتيتهم أو بتخريب ديارهم . ويطلب الدعاء ضد الأعداء القاهرين الظالمين عادة من الله جل وعلا ومن القديسين ومن الأولياء .

(٧) أن يقف أعضاء هذا المجتمع موقف الساخر والمداعب الذى يستخدم « لغة الدعابات » (النكت) والملاحظ أن الدعابات (النكت) أنواع . منها النكت الاجتماعية ومنها النكت السياسية ومنها النكت الفنية أو الشكلية . والنكت الأخيرة هى التى تعتمد أساساً على الاستعمالات المجازية دون المضمون : وذلك بهدف الإضحاك لذاته والنكت الاجتماعية والسياسية تكون فى بعض الظروف نكتاً علنية وقد تكون فى ضوء الظروف الأخرى « نكتاً سرية » ومن ثم يمكن اعتبارها من قبيل « اللغة السرية » .

(٨) أن يقف أعضاء هذا المجتمع موقف الشخص المنحرف الذى يخالف قواعد السلوك المرعية أو الذى يرتكب الجرائم بأنواعها سواء كانت جنايات أو جنحاً أو مخالفات ، وسواء كانت جرائم منظورة أو جرائم غير منظورة .

(٩) أن يلتمس أعضاء هذا المجتمع فى ضوء ظروفهم الفرار بالهجرة إلى الخارج ، أو أن يسعوا فى طلب الهجرة إلى فيافى الصحراء أسوة بما فعله الأجداد الذين فروا بعقيدتهم فى « عهد الاضطهاد الأعظم » . وإذا اعتبر هذا النوع من الهجرة هجرة جسدية ، فإننا نجد أن بعض أعضاء المجتمع المصرى قد يلتمسون هجرة النفس والروح ، وذلك بالإغراق فى التدين هروباً من الدنيا وزخرفها وحماية من محنها وقهرها وقاهريها إلى الهجرة إلى الله جل وعلا تقرباً إليه والتماساً لرحمته وغفرانه .

(١٠) أن يقف أعضاء هذا المجتمع موقف المتمرد أو الثائر والملاحظ أن تمرد أعضاء المجتمع المصرى فى ضوء تاريخ هذا المجتمع الطويل المستمر أو ثورتهم لم يكونا أبداً بقصد اغتصاب حقوق الغير، بل كانا دائماً بقصد الدفاع عن النفس والحريه والحقوق والكرامة .

وأنا لا أدعى أن ما سبق من الأساليب السلوكية التى يواجه عن طريقها أعضاء المجتمع المصرى ، كلهم أو بعضهم ، ألوان القهر والمحن ، هى كل الأساليب أو هى التى تمارس بترتيب تسجيلها . فقد توجد أساليب سلوكية أخرى تختفى وراء بعض القيم التى تدعو إليها بعض الأمثال الشعبية المصرية . ومن هذه نجد مثلاً :

« من رضى بقليله عاش » .
و « من خاف سلم » .
و « يابخت من بات مظلوم ولا باتش ظالم » .
و « ربنا يولى من يصلح » .

ومهما يكن من الأمر فإن هذه الأساليب السلوكية تعكس العديد من العناصر الثقافية المتنافرة وتعكس الأخيرة بدورها موقف الحاكم والمحكوم فى المجتمع منذ الماضى السحيق . فمن سمات المجتمع المصرى كما ذكرت من قبل أن أعضاءه جعلوا من حكامهم آلهة حتى اعتنقوا الديانة المسيحية ثم الديانة الإسلامية . ولعل الآية الكريمة من « سورة غافر » رقم ٢٩ تؤكد بعض ما قلت . قال الله جل شأنه :

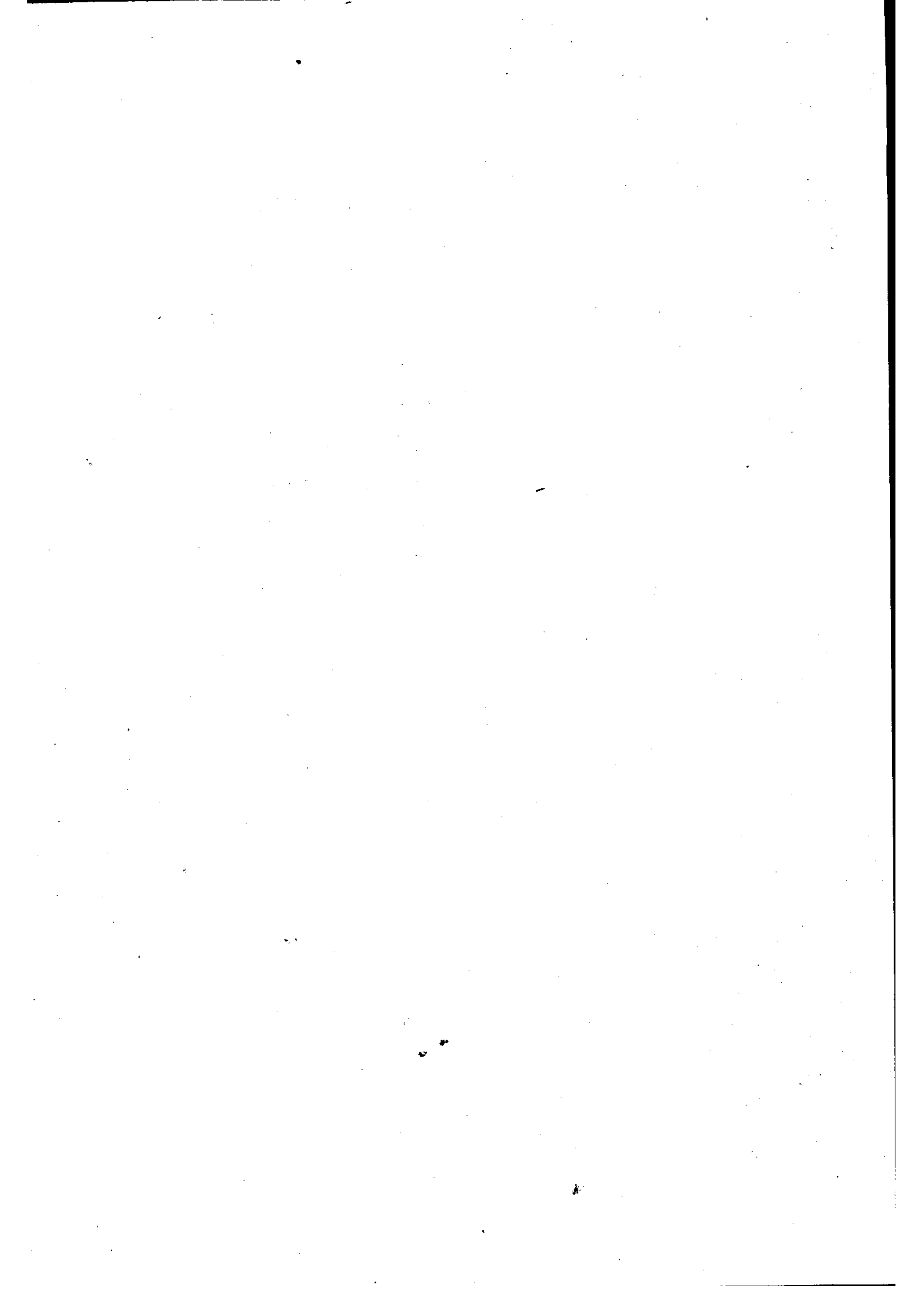
« . . . قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم
إلا سبيل الرشاد » .

وفى « سورة الزخرف » نجد الآية الكريمة رقم ٥٤ تؤكد الآية السابقة . قال الله جل وعلا :

« . . . فاستخف قومه فأطاعوه »

وأرجوا أن يعلم القارىء أن علاقة الحاكم والمحكوم يقصد بها فى الدراسة الحالية علاقة أصحاب السلطة والسلطان الذين يعملون فى مستويات عالية وهم يتعاملون مع من هم فى مستويات أقل . وسواء كانت هذه السلطة أو هذا السلطان مادة أو معنى . وسواء كانت مواقع نشاطات أصحاب السلطة والسلطان الأسرة أو المصنع أو الديوان أو المؤسسات الأخرى فى المجتمع .

ونلاحظ أن الأب المصرى فى الأسرة المصرية هو صاحب السلطة والسلطان فى معظم الأحيان ، وإذا كان أباً رشيداً فإننا نتوقع منه أن يغرس بذور الديمقراطية فى نفوس أعضائها حتى يشبوا وبخاصة أطفالهم مشبعين بالإيمان بها فى مستقبل حياتهم . ومن ثم نتوقع سيادة مبادئها فى المجتمع المصرى المعاصر وبخاصة إذا كانت أجهزة التنشئة الاجتماعية الأخرى (المدرسة والمنظمة الدينية والمنظمة السياسية ومنظمة شغل أوقات الفراغ وأجهزة الإعلام والثقافة) تحذو نفس الحذو .



الفصل الثانى

علم السيميا

٧ ـ أنواع من العلوم السائدة فى المجتمع المصرى

(١) المدقق فى المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى يلاحظ وجود بعض العلوم السائدة منها ما يلى :

(أ) علم السيميا .

(ب) العلم اللّدنى .

(جـ) علم الفهلوة .

(د) العلم العصرى .

علم السيميا

(٢) وعلم السيميا يدل على وجوده ما نجده من الخرافات التى تعيش فى أعضاء مجتمعنا ويعيشون فيها وبها . أى أنهم يسيرون فى حياتهم على قواعد أومبادىء سلوكية لا يحيدون عنها . وهى قواعد أو مبادىء سلوكية قد أكل عليها الدهر وشرب . ولكنهم يفعلون ذلك ويستمرون وتبدو السعادة بينهم من أجل ذلك . تراهم يؤكدون مثلاً فى أثناء « كتب الكتاب » أنه « إذا انحطت حتة سكر تحت لسان العروسة وبعدها

انحـطت فى كوب ماء وشرب منـه العريس يتفقوا ويتوفقوا مع بعض » أو تراهم يذكـرون عن يقـين أن « الست العـاقر » « إذا طلعت السلم بالمندار (بالعكس) تقدر تحبل بعدها » !! ويتبرعون دون أن يسألهم أحد بالوصفات ، فإذا تأخر أحد الأطفال عن التكلم قالوا على سبيل المثال « دق الميه فى الهون يخلى العيل اللى ما يكلمش يتكلم » ! .

(٣) وترى هؤلاء الناس ، إذا ذكر أمامهم « العلم العصرى » كانت الصورة الذهنية له غير الصورة الحقيقية له . كانت صورة تعكس محتوى علم السيميا .

وهو علم له فروع سبعة أو وسائل سبع هى :

(أ) علم الاعداد .
(ب) علم الأوفاق .
(جـ) علم الحروف .
(د) علم الطبائع الأربع .
(هـ) علم الكواكب والافلاك والبروج والمنازل .
(و) علم الاختبارات النجومية وسعدها ونحسها وشرفها واتصالاتها .
(ز) علم الأسماء والرقى والدعوات .

(٤) والملاحظ أن علم السيميا غى ضوء منهجـه لا يمكن أن يكون علماً عصرياً . ومـع ذلك نجد الداعين له يشيعون بكل الأساليب أن من يمارس فروع هذا العلم أو وسائله يستطيع أن يتصرف على جميع ما فى الكائنات من خير وشر وجلب وطرد ، فأهداف هذا العلم فى أعمال الخير كالـترياق ، وفى أعـمال الشر كالسم النـاقع . ومفهوم الخير هنا مفهوم

غامض . أى أن معانيه عديدة ، ويتوقف كل معنى على اختيار الممارس ، وما ينطبق على مفهوم الخير يسرى على مفهوم الشر كذلك .

وهناك علوم أخرى غير هذا العلم بفروعه ووسائله . فهناك علم « الكوتشينة » ، وهناك علم « الفنجان » ، وهناك « علم الكف » ، وهناك علم « الطوالع » طوالع الرجال والنساء وما يسمى بالطالع الحدسى ، وغيرها .

وكل هذه العلوم الزائفة تعيش وتزدهر فى المجتمع المصرى فى ظل مناخ ثقافى اجتماعى لا يرى الاعتراف بالعلم العصرى .

العلم اللّدُنى

(١) والعلم اللّدنى لا يعترف بالعلوم الزائفة السابقة علناً ، وأن اعترف بها ممارسة . وهو لا يعترف أبداً بالعلم العصرى لا علناً ولا ضمناً . فهذا العلم هو العلم ولا علم غيره . والذين يدعون له يقولون كل شىء عنه ولا يثبتون شيئاً عن وجوده ، فلا أدلة عندهم تدل على وجوده أو الفائدة المرجوة منه سواء كان ذلك فى الدنيا أو فى الآخرة !

(٢) وللوصول إلى هذا العلم مستويات ومنازل . وأساليب الوصول إليه عديدة . ومن هذه الأساليب أسلوب « حلقة الذكر » . ومعلوم أن تعاليم الإسلام الجليلة تدعو ، ضمن ما تدعو إلى ذكر الله سبحانه وتعالى ، فإن من يذكر الله جل وعلا يذكره . فهو عند ظن عبده به . وهو معه حين يذكره ، على أن يكون ذكر الذاكرين ذكر الله تعالى الوارد فضله فى الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة ـــ وهو المتلقى من رسول ﷺ بالطرق المتواترة والآحاد الصحيحة . ومع ذلك فإننا نلاحظ ما يحدث فى

محيط بعض الجماعات إذ يذكرون الله ، نجد أن أعضاء هذه الجماعات يقولون « لا إيلها إيلا الله باشباع همزة « الله » فتولدت عنها ياء ، ومد هائه فصارت إلى صيغة المثنى ، واشباع همزة « إلا » فتولدت عنها ياء ، واثبات ألفها مع شدة صوت غليظ . ومنهم من يقول : لا إيلها إلا الله بتفخيم أداة النفى مع اخـراجها من أقصى الحلق وابدال همزة « إله » واشباع هائه فتولدت عنها الف وقصر لفظ الجلالة عن المد الطبيعى مع قوة صوت منكر .

(٣) والملاحظ أن حلقة الذكر قد أصبحت فى الوقت الحاضر ظاهرة اجتماعية تعددت وظائفها . فهى تعقد فى الموالد وفى الافراح وفى المواسم ، نجد ذلـك فيما يسمى ب « الحضرة » وفى حفـلات المـوالـد ، وفى حفلات الـزواج ، وفى حفلات الطهارة (الختان) وفى شهر رمضان وقد تكون حلقـة الـذكر الأسلوب الوحيد للاحتفال . وقد تكون أحد الأساليب للوفاء بالنذور .

(٤) وذكر الله جل وعلا لا يمارس وحده فى حلقة الذكر . فالملاحظ أيضاً أن الصلاة على النبى المختار تمارس كذلك ويترنم أعضاء الحلقة بأوصاف النبى ﷺ ويرددون أوصافه عليه الصلاة والسلام العديدة .

(٥) والملاحظ كذلك أن حلقة الذكر تعتبر « إحدى الجماعات المرجعية » الهامة لأعضـــائهـــا . وهى فى هذا الضـــوء ذات فاعلية كبـــيرة فى تماسكهم وترابطهم . وقد تعتبر حلقة الذكر من « النوافذ الاجتماعية » التى يستطيع عن طريقها أن ينفس بعض أعضاء المجتمع المصرى عن الشعور الجماعى بالعداوة المتولد من التوترات والاحباطات الموجودة فى هذا المجتمع . وقد تشكل جماعات « حلقات الذكر » فضلاً عن ذلك « جماعات ضاغطة »

لها قوتها ونفوذها فى محيط مئات الألوف إن لم يكن الملايين من البشر . وهى بهذه الصفة قد تستغل فى سبيل مصالح الآخرين .

علم الفهلوة

(١) يلاحظ أن المتسبين إلى هذا العلم يدعون العلم بكل أنواع العلوم . فهم العلماء العصريون تارة ، وهم العلماء المزيفون حفظة التراث المصرى الأصيل تارة أخرى ، وهم العلماء اللدنيون الواصلون العارفون تارة ثالثة . ولعل وجود هؤلاء فى المجتمع المصرى مرجعه إلى ضعف تأثير العلماء العصريين فى الوقت الحاضر ، ومن ثم إلى غلبة العلماء الآخرين .

(٢) والتعرف إلى أهل « الفهلوة » من العلماء ليس صعباً . فأنت تجدهم الأشخاص الذين يبحثون باستمرار عن أقصر الطرق وأسرعها لتحقيق الأهداف الدنيوية والأخروية على السواء ! وأنت تعرفهم عندما يتجنبون العناء والجد المطلوبين عادة فى اجتياز العقبات للوصول إلى تحقيق هذه الأهداف والغايات ، ويكون همهم ليس إنجاز العمل على أكمل وجه وإنما إنجازه وتحقيق أهدافه وغاياته حتى لا يقال عنهم إنهم عاجزون عن ذلك .

(٣) ومن سمات هؤلاء العلماء ما نلاحظه عندما يعجزون عن تقبل الحقائق الموضوعية . أى عندما يعجزون عن تقبل الواقع وفقاً لما تفرضه الظروف الحرجة من تصرف سريع ، مما يضطرهم إلى إخفاء العيوب والفشل والنقائص بغية إنقاذ المظاهر والحفاظ على ماء الوجه .

(٤) إنهم الادعياء الذين يعرفون كل شيء ويرون أن غيرهم لا يعرف شيئاً . إنهم الذين رفعوا فى يوم منكود شعار « أهل الثقة » أولاً ، ثم أهل

« الخبرة » أخيراً وآخراً ، وكأن البلد بلدهم وكأن الوطنية قاصرة عليهم .

والفهلويون من هؤلاء فى كلمة هم الانتهازيون الملونون المتلونون المنافقون .

العلم العصرى

(١) العلم بمعناه العصرى هو فى بساطة « الخبرات الإنسانية المنتظمة » . والاهتمام بهذا العلم ، بهذ المعنى ، مرجعه إلى أننا نوجد فى عصر أصبح فيه العلم العصرى وسيلة مباشرة من وسائل الإنتاج . أى أنه أصبح يتغلغل فى كل أمور الحياة ، حياة الإنسان فى عصرنا الحالى . أى أنه أصبح علماً عالمياً .

(٢) ومجتمعنا المصرى المعاصر كمجتمع نامى يحتاج إلى العلم العصرى حاجته إلى الحياة . ويجب أن لا يقف فى سبيل تحقيق ذلك محاولة تزييف معناه ، أو المقارنة بين العلوم المادية العلوم الإنسانية ، كالادعاء بأن دائرة بحث العلماء (العصريين) هو المادة بمعنى الدارج الذى يقول إن المادة هى كل ما يحس .

(٣) والمعروف أنه ليس كل متعلم عالماً عصرياً ، وأن كان العالم العصرى بالضرورة متعلماً . فالعلم خبرات إنسانية ، ولكنها خبرات إنسانية منتظمة ، يحصل عليها العالم العصرى عن طريق المنهج العلمى . ومعلومات المتعلم هى خبرات إنسانية أيضاً ، قد تكون خبرات منتظمة أو خبرات غير منتظمة يحصل عليها المتعلم بالتلقين والحفظ أحياناً ، أو بالممارسة أحياناً أخرى . وشتان بين عالم الذرة أو عالم الاجتماع وبين عالم الدين ، عالم الأزهر مثلاً .

(٤) والمنهج العلمى المشار إليه فى بند ٣ ، على عكس الحفظ والتقين ، يواجه ظواهر الطبيعة أو ظواهر المجتمع مواجهة موضوعية . وهو إذ يفعل ذلك يكون دائماً مهتدياً بالشعار القائل : « لا شىء يأتى من لا شىء » وهو يحاول دائماً أن يكون منهجاً لفهم الحياة بقصد تغييرها . ويسعى دائماً إلى الإجابة على السؤالين كيف ؟ ولماذا ؟ أى التعرف على العوامل التى تكون من وراء وجود هذه الظواهر وعلى القوانين التى تحكمها .

ومع ملاحظة أنه كمنهج لا يبحث أبداً ولا يهمه أن يبحث أبداً عن الإجابة عن السؤال لماذا ؟ على وجه الإطلاق . بل هو فى بساطة يدرس الظواهر المادية والإنسانية دراسة واقعية ، أى يقوم بدراسة العلاقات بين الأشياء وقوانين حركتها الداخلية فى ضوء الطبيعة والمجتمع وليس فى ضوء بعض المبادىء المنطقية والعمليات العقلية فحسب .

(٥) والملاحظ أن الإنسان فى ضوء المنهج العلمى قد استطاع أن يعرف الكثير عن نفسه فى ميادين علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والقانون وغيرها . وقد استطاع فى مجالات هذه العلوم أن يغير آراء الناس واتجاهاتهم وأن يعالجهم وأن يتحكم فى تصرفاتهم وأن يتسلط على معاشهم . وقد نجح فى كل ذلك نجاحاً مرموقاً .

(٦) والعلوم الإنسانية تطبق الآن مناهج مشابهة لتلك التى تتبعها العلوم المادية . وأصبح التعاون بين العلوم المادية والعلوم الإنسانية وثيقاً فى سبيل تحقيق أهداف التنمية الشاملة للمجتمعات المتقدمة والنامية على السواء . والنتيجة المتوقعة لكل ذلك أننا نجد أن العلوم الإنسانية لا يمكن أن تقل شأناً عن العلوم المادية . وإننى أرى أن تحقيق كل ذلك قد يتأكد إذا استمر اتجاه أهداف البحوث الإنسانية إلى الأهداف

التـطبيقية عن طريق الـوصـول إلى صورة كاملة عن المجتمـع والحياة الاجتماعية ككل ، فى ضوء وضوح رؤية نظرى ، يؤمن بالتغيير إلى الأفضل .

٨ ــ من منابع أصول الحكمة فى تراثنا الثقافى الاجتماعى المعاصر

علم السيميا

كنت صغير السن عندما كان ابن عمى محمود شقيق أبى وهو « احمد عبد المنعم » ينهمـر عليه الرجاء تلو الرجاء من أفواه نساء البيت الذى ولدت فيه والذى ولد هو فيه أيضاً ، سواء كن متزوجات أو غير متزوجات . كانت سنى فى ذلك الحين لا تزيد على الثامنة . وكان ابن عمى فى الثالثة والعشرين من عمـره وربما أكثر من ذلك . وكانت دهشتى كبيرة لأن معظم ما كانت نساء البيت يطلبنـه بالحـاح هو أن يقـوم ابن عمى بعمل « حجاب » لمن كن غير متزوجات لكى يتزوجن . وكانت نساء الجيران يفعلن ذلك أيضاً . فالاخيرات كن يطلبن ذلك بأنفسهن أو يجعلن إحدى نساء بيتنا وساطة . وكنت اسمع بأذنى أن « حجاب » الشيخ عبده (أقصد ابن عمى أحمد عبد المنعم) سره باتع .

وكنت أرى الكتب من حوله عديدة ، ولكن كان معظمها كتباً صفراء . وكنت أقرأ عناوينها ، وكان من بينها عدد كبير يتعلق بكشف الطالع وفتح المندل والعلم الروحانى « علم الحكمة » . كنت ترى عنده كتابى البونى مثل « منبع أصول الحكمة » و « شمس المعارف ولطائف العوارف » وكتباً أو كتيبات أخرى للطوخى مثـل « المنـدل والخـاتم السليمانى » و « النـور الـربـانى فى العلم

الروحانى » و « دليل الحيران فى طالع الإنسان » وغيرها وغيرها .

ويبدو لى الآن أن سر اهتمام النساء اللاتى فى البيت الذى كنت أعيش فيه وأنا صغير أو اللاتى كن من جيراننا ، يرجع إلى أن الشيخ عبده كان قد تخرج من « مدرسة عثمان باشا ماهر » وهى مدرسة دينية وأنه الآن فى سبيله لكى يصبح طالباً فى الجامع الأزهر الشريف فضلاً عما يبدو فيه من الزهد فى الحياة وعدم الاهتمام بأمورها المحببة .

وإذا كانت ذاكرتى قد وعت كل ما سبق دون أن أعير له أية أهمية ، فقد أفزعنى حقاً ما طالعت الصحف المصرية قراءها ، وما بثته الشاشة الصغيرة لمشاهديها فى خلال رحلة « أبوللو ٨ » إلى القمر ، وبعد انتصار الإنسان فى هذه الرحلة ونجاحه العظيم . فقد ذكرت إحدى مذيعات الشاشة الصغيرة أن أحدهم استطاع أن ينقل الخاتم من أصبع يدها اليسرى إلى أصبح اليد اليمنى ، وأن أحدهم استطاع أن يرد على سؤال كتب فى وريقة أمسكها بيده أحد الصحفيين دون أن يرى مضمون السؤال عن المستقبل المهنى لهذا الصحفى . وقد تناول أحد الصحفيين فى نفس الوقت تحت عنوان « مواقف » عن عجائب علم الفنجان وعلم الكوتشينة وعلم قراءة السحاب وغيرها من العلوم (الزائفة) التى تؤثر فى الإنسان فى مصر أو فى غيرها من البلاد .

وقد تبدد فزعى عندما راجعت نفسى ذاكراً أنه إذا كان ما حدث من نقل خاتم من أصبع إلى آخر ، والإجابة عن السؤال الشخصى صحيحاً فليسأل كل واحد منا نفسه ماذا أفادت البشرية من كل هذا ؟ ماذ أفاد المجتمع المصرى المعاصر ، المجتمع الذى نحاول إعادة بنائه حتى تسود فيه الكفاية والعدل واحترام إنسانية الإنسان المصرى من كل هذا ؟ وقلت لنفسى أيضاً إن نشر

سخافة العلوم الزائفة فى الصحف فى الوقت الذى تمت فيه رحلة « أبوللو ٨ » بنجاح لا يعنى عندى إلا أن يكون مؤامرة ثقافية اجتماعية ، تهدف إلى أن يضاف إلى العناصر الثقافية الاجتماعية المصرية ذات الأهداف السلبية ما هو أسوأ منها .

وتساءلت ألا يكفى عند هؤلاء ما عندنا وألا يجدر بهم وبغيرهم من القادة الثقافيين الاجتماعيين المصريين أن يدرسوا ما عندنا لكى يفهموه موضوعياً ، ثم يحاولوا أن يغيروه إلى الأفضل ؟ ثم آليت على نفسى **أن أدرس مفهوم « الحكمة » الذى يروج له هؤلاء الناس ، فضلاً عن منابع أصولها** . والمعلوم أن مفهوم « الحكمة » قد ينطق بفتح الحاء والكاف، أو بكسر الحاء وسكون الكاف . ويعنى المفهوم الثانى ، لغة ، إتقان الأمور ، أى أن الحكيم هو كل من يتقن الأمور . أما معنى مفهوم الحكمة بفتح الحاء والكاف فهو يعنى ، لغةً ما يذلل الدابة لراكبها حتى يمنعها الجماح .

والملاحظ أن الحكمة بكسر الحاء وسكون الكاف تعنى أيضاً كل ما يمنع صاحبها من أخلاق الارذال ، فرأس الحكمة ، كما يعلم القارىء ، مخافة الله ، ومن يخاف الله ينأى ، بالضرورة ، عن أخلاق الارذال ، ويتمسك ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، بالأخلاق العالية ، أخلاق الصالحين الطيبين .

ومفهوم الحكمة بكسر الحاء وسكون الكاف قد ورد فى القران الكريم عشرين مرة . وقد يعنى ما فى القرآن من أحكام، أو يعنى النبوة ، أو يعنى العلم النافع المؤدى إلى العمل ، وقد يعنى السنة أو القرآن ، وقد يعنى العلم والديانة والإصابة فى القول ، أو يعنى الإصابة فى القول ، أو يعنى الاصابة فى الأمور .

وكما ورد مفهوم الحكمة فى القران الكريم ورد كذلك مفهوم « الحكيم » . وقد ورد هذا المفهوم ٩٧ مرة . وهو يطلق ، فى الغالب ، على الله جلا وعلا ، فهو جل شأنه الحكيم الخبير ، أى الذى لا يخرج شىء عن حكمته « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب » (٢ م البقرة : ٢٦٩) « وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم » (٤٣ ك الزخرف : ٨٤) .

ومفهوم الحكمة بكسر الحاء وسكون الكاف ورد فى الكتاب المقدس ٧١ مرة ، وقد يعنى فهم الإنسان طريقه ، أو يعنى أصل القوة ، أو يعنى معرفة الرب . لأن الحكمة تقوم بمخافة الله ، وذات فضل فائق ، وتتخلق بالوداعة ، وتلاحظ ما هو خير ، وتؤدى إلى الخلاص ، وتزيد العلم . وهى غبطة لمن يجدها ، وهى خير من اللآلىء ، ومن الذهب والفضة « طوبى للإنسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم ، لأن تجارتها خير من تجارة الفضة وربحها خير من الذهب الخالص ، هى أثمن من اللآلىء وكل جواهرك لاتساويها ، فى يمينها طول أيام وفى يسارها الغنى والمجد ، طرقها طرق نعم وكل مسالكها سلام . هى شجرة حياة لممسكيها والمتمسك بها مغبوط ، الرب بالحكمة أسس الأرض . أثبت السموات بالفهم ، بعلمه ، أُنشئت اللجج وتقطر السحاب ندى » (أ م : ١٢ - ٢٠) .

وكما يطلق مفهوم الحكيم على الله الكريم المتعال ، بالمعنى السابق ، يطلق أيضاً على بعض الأشخاص لأن الحكمة منسوبة إلى الأشخاص ، فى الواقع ، هى الخبرة ، وهى المعرفة كذلك . والمعرفة مفهوم شامل ، ومصادرها متعددة . فالدين مصدر من مصادرها والفلسفة أيضاً . والفنون بأنواعها تعتبر مصدراً من مصادر المعرفة ، والعلم العصرى كذلك . والملاحظ أن هذه

المصادر وغيرها كلها خبرات ، أى مصادر من مصادر الحكمة .

والملاحظ أن العلم العصرى هو نظرة نحو الحياة ، وهو أيضاً حصيلة الخبرات الإنسانية المنتظمة فى ضوء هذه النظرة ، وهو كنظرة نحو الحياة ، يواجه ظواهر الطبيعية أو ظواهر المجتمع مواجهة موضوعية ، وهو إذ يفعل ذلك يكون دائماً مهتدياً بالشعار القائل « لا شىء يأتى من لا شىء » .

والعلم كنظرة نحو الحياة يعنى فى الواقع أن يكون منهجاً لفهم هذه الحياة ، وهو كمنهج يسعى دائماً إلى التعرف على القوانين التى تحكم الظواهر الطبيعية أوظواهر المجتمع ، أى يسعى إلى الإجابة عن السؤالين : كيف ؟ ولماذا ؟ . أى التعرف على العوامل التى تكون من وراء وجود هذه الظواهر وعلى القوانين التى تحكمها . مع ملاحظة أن هذا العلم ، كمنهج ، لا يبحث أبداً ، ولا يهمه أن يبحث أبداً ، عن الإجابة عن السؤال لماذا ؟ على وجه الإطلاق . بل هو ، فى بساطة ، يدرس الظواهر المادية أو الإنسانية دراسة واقعية ، أى يقوم بدراسة العلاقات بين الأشياء وقوانين حركتها الداخلية ، وفى ضوء الطبيعة والمجتمع ، وليس فى ضوء بعض **المبادىء المنطقية والعمليات العقلية فحسب** . ويعنى المنهج العلمى ، فى الواقع ، استخدام المنهج الاستقرائى ، أى الانتقال من الجزئيات إلى الكليات .

ومفهوم العلم بالمعنى السابق هو أحد مصادر المعرفة ، أو قل أحد مصادر الحكمة إذا قصد به الخبرة أو الخبرات الانسانية التى تيسر إتقان الأمور فى ضوء فهمها فهماً موضوعياً . ومع ذلك نجد من يقول : إن الحكمة علم ، أى أنه يوجد ما يسمى بـ « علم الحكمة » مع ملاحظة أن الفنون قد تستند إلى العلم كذلك ، ولكن العلم ، فى ضوء منهجه ، لا يستند إلى منهج فن من الفنون

أو إلى منهج فلسفة من الفلسفات . وقد يدرس العلم الظواهر العلمية أو ما يتصل بها . ولا يعنى هذا أن الباحث العلمى لا يكون ملماً بفروع المعرفة على تباينها ، سواء كان يبحث فى ميدان الظواهر المادية أو فى ميدان الظواهر الإنسانية ، بل على العكس يجب على الباحث العلمى أن يغترف من هذا المعين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، حتى يكون على بينة موضوعية بما يحيط به من واقع إنسانى أومادى ، ليستطيع فى ضوئها تحديد موضوعات البحث التى يحاول دراستها ، والدعوة إلى تعاون المجتمع فى سبيل تيسير إجرائها والاستفادة من نتائجها .

ويرى البعض أن علم الحكمة هو « كل ما يغسل النفوس من وسخ الطبيعة الظلمانية كما يغسل الصابون الثياب . لأن النفس إذا عرفت الحكمة حنت واشتاقت إلى عالم الأرواح ومالت عن الشهوات الجسمانية المميتة للنفس الحية ، ونجحت فى أسر الشهوات وحبالتها التى تعلق أهل الجهل بها » .

وعلم الحكمة ، بالمعنى السابق ، فى تراثنا الثقافى له مكان مرموق ، والأصل الذى لابد منه لطالب هذا العلم هو العلم بالاسم الأعظم الجامع لما فى الموجودات وأسباب الكائنات ، لأن الأسرار لا سبيل لنيلها إلا به ، وأنه ، أى العلم بالاسم الأعظم ، هو الأصل فى ذلك الفتوحات الإلهية والعلوم اللدنية .

والحكيم فى ضوء مفهوم العالم بالاسم الأعظم الجامع لما فى الموجودات وأسباب الكائنات ، يرى أن الإسم الأعظم قد خفى فى الأسماء الحسنى التى أمر الله عباده أن يدعوا بها . وقد يرى بعض الحكماء أن كل اسم من الأسماء الحسنى اسم عظيم فى حق من وافقه وتقرب إليه أو دعا به ، وجعلوا لذلك سبع وسائل هى :

(١) علم الأعداد .
(٢) علم الاوفاق .
(٣) علم الحروف .
(٤) علم الطبائع الأربعة .
(٥) علم الكواكب والأفلاك والبروج والمنازل .
(٦) علم الاختبارات النجومية وسعدها ونحسها وشرفها واتصالاتها .
(٧) علم الأسماء والرقى والدعوات .

وميادين هذه العلوم تتضمن كل ما يتعلق بالتصريف بسر الخالق فى المخلوقات . وقد أطلق الحكماء ، بالمعنى السابق ، على هذه العلوم « علم السيميا » وهو لفظ معرب أصله « شيم » ومعناه الله تعالى . وقد ألف فى العلوم السبعة المشار إليها مؤلفون كثيرون ، ونشروا ما ألفوه من كتب وكتيبات لا تزال تجد الرواج فى مجتمعنا المعاصر حتى الآن . ومن هذه الكتب نجد كتاب « منبع أصول الحكمة » للإمام ابن العباسى أحمد بن على البونى ، ويتضمن أربع رسائل من العلوم الحرفية والوقفية والدعوات والاقسام وهى :

الأصول والضوابط .
وبغية المشتاق فى معرفة وضع الآفاق
شرح البرهتية ، المعروف (بشرح العهد القديم) ، وشرح الجلجّوتية الكبرى .

وللأمام البونى أيضاً كتاب « شمس المعارف ولطائف العوارف » ويتضمن أربعة أجزاء تحتوى على أربعين فصلاً وأربع رسائل وهى :

ميزان العدل فى مقاصد أحكام الرمل ، وفواتح الرغائب فى خصوصيات

الكـواكب ، وزهـر المـروج فى دلائل البروج ، ولطائف الإثارة فى خصائص الكواكب السيارة . ومن الكتيبات التى ألفت حول علوم « علم السيميا » نجد كتيبـاً يحمـل عنـوان « المنـدل والخـاتم السليهانى والعلم الـروحـانى للإمام الغزالى » ، وهو من تأليف عبد الفتاح السيد الطوخى . ويتضمن ، كما يقول المؤلف ، جملة أبواب وأقسام وطلاسم وفوائد وأوفاق فى العلم الروحانى .

وللطوخى كتيبـات أخـرى عديدة منهـا : « النـوز الـربـانى فى العلم الـروحـانى » الـذى حوى ، كما يقول المؤلف ، « كثيراً من الفوائد العظيمة المجربة التى يحتاج إليها كل فرد فى جميع حوائجه » .

ومنها كتيبات « دليل الحيران فى طالع الإنسان » و« الزايرجة الهندسية فى كشف الأسرار الخفية » ، و« الأسرار فى علم الأخبـار » و« إغـاثة المظلوم فى كشف أسرار العلوم » ، و« سحـر الكهان فى حضور الجان » ، و« البيان فى علمى الكوتشينة والفنجان » ، و« هداية العباد فى اسرار الحروف والأعداد » ، « والكبـاريت فى إخـراج العفـاريت المشتمـل على القـدرة الإلهية فى المعالجة الروحانية ، والحكمة الربانية فى المعالجة الجنسية ، وكشف اللثام عن جعفر الإمام » ، و« القواعد الفلكية فى عمل النتائج السنوية » ، « والدرة البهية فى العلوم الرملية » ، و« أحكام الحكيم فى علم التنجيم » ، و« النجاح فى علوم النفس والتنويم والأرواح » . . إلخ .

وفى ضوء ما يسبق ، يلاحظ القـارىء المعـانى العديدة لمفهوم العلم . إنه ، أى مفهوم العلم ، على الرغم من بقاء لفظه على ما هو عليه فإن معانيه متباينة . ومع ذلك فنحن نرى أن معنى العلم ، كنظرة نحو الحياة أو كمنهج لفهم هذه الحياة ، يسعى دائماً إلى التعرف على القوانين التى تحكم الظواهر الـطبيعية أو ظواهر المجتمع ــ هو المعنى الذى يتفق وعصر الربع الأخير من

القـرن العشرين . إن « علم السيميا » بفـروعـه السبعـة أو بوسـائله السبع لا يمكن أن يرقى إلى علمنـا المعـاصر ، العلم الذى يدرس العلاقات بين الأشياء وقوانين حركتها الداخلية فى ضوء الطبعية والمجتمع ، وليس فى ضوء بعض المبادىء المنطقية والعمليات غير العقلية .

إن علمنـا المعـاصر يدرس الواقع الحى فى الطبيعة وفى المجتمع ، وهو إذ يفعـل ذلك يحاول ناجحاً أن يتسلط على الطبيعة وأن يخطط للمجتمع فى سبيل التغيير إلى الأفضل ، وإلى الأقوى وإلى الأعظم .

إن « علم السيميا » ، فى ضوء منهجـه ، لا يمكن أن يكـون علمـاً عصرياً ، ولكنه لا يزال يملأ مناخنا الثقافى حتى الآن ، ولا يزال يجد مريدين فى كل أنحـاء مجتمعنـا المعاصر وبخاصة فى محيط سكان الريف ، وفى محيط الكثـير من سكـان الحضر . وإذا لاحـظنـا أن لـ « الكوتشينة » علماً وأن لـ « الفنجان » علماً فماذا نقول عن علوم الطب والكيمياء والطبيعة والبيولوجيا والجيولـوجيا ، وعلوم الإنسـان العـديدة التى تستخدم فى التسلط على الذرة والتكنولوجيا العسكرية والصناعية ، والتى تستخدم فى التسلط على الظاهرة الفلكية وفى الـطيران الخـارجى ، والتى تستخـدم ، فضـلا عن ذلك ، فى الأساليب التى توفر تفكير الإنسان والتى توفر قدراته ، وتقوم هى بهذا التفكير وبذل هذه القدرات ؟

وإذا حاولنا أن نتعرف على أهداف « علم السيميا » بوسائله السبع لوجدنا أن من يمارس هذه الوسائل يستطيع بها « أن يتصرف على جميع ما فى الكائنات من خير وشر وجلب وطرد ، فهى (الأهداف) فى أعمال الخير كالترياق وفى أعمال الشر كالسم الناقع » ، والملاحظ أن مفهوم الخير مفهوم غامض ، أى أن

معانيه عديدة ، ويتوقف كل معنى على اختيار الممارس . وما ينطبق على مفهوم الخير يسرى على مفهوم الشر كذلك .

وإذا حاولنا أن نعدد الميادين التى يهتم بها هذا العلم لوجدناها تضم كل ما يخطر على بنى البشر من أمور . أمور تتصل بشئون حياتهم وحياة من حولهم أو تتصل بأحلامهم واحلام من حولهم ، وقد تتضمن هذه الأمور ما يتعلق بالصحة وبالمرض وبالمحبة وبالعداوة وبقضاء المهمات وبجلب النفع وبدفع الضر ، وما يتعلق بالزواج أو الطلاق وبرفع الظلم ، وباستخدام الملائكة وبإحضار الأرواح العلوية والسفلية وتسخيرها .

والملاحظ أن ما يخطر على بنى البشر من أمور يعكس العناصر الثقافية للمناخ الثقافى الاجتماعى الذى يستظلون بظله ، المناخ الذى يكون ، بالضرورة ، وليد ظروفهم المعاشية ، اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية . والأمثلة على ما يطلبه هؤلاء من أمور يريدنها أن تتحقق عديدة جداً ، فهى تتضمن كل علاقات هؤلاء الناس بعضهم ببعض ، أو معظمها ، منذ أن يدخلوا فى هذه العلاقات حتى تنقطع .

وعن طريق ممارسة وسائل « علم السيميا » ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، يعتقد الكثيرون من أعضاء مجتمعنا المعاصر أنهم يستطيعون ، مثلاً ، تحقيق الغنى والصلاح والفلاح ونوال القبول والعز والرفعة والبركة ، وكشف الخبايا والكنوز ، وجلب التوفيق والصواب ، وجلب الهيبة والوقار ، وجلب الفتوح ، وتحسين الأخلاق ، ونوال المناصب والترقى ، وفهم العلوم وزوال البلادة ، وبسط الرزق ، وإحياء القلوب ، وزوال النسيان ، وإزالة الكسل والإعياء ، وحل المربوط والمسحور ، وجلب المحبة القوية أو التهيج والهيمان ،

وإذهـاب الصـداع ومنـع ألم البرد ، وقطع النزيف والرعاف ، وإزالة أوجاع الـرأس والـرمـد ، وإزالـة وجع الركب والحمى ووجع البطن ، وإزالة وجع الجنب ، والنجاح فى الحمل ، وتسهيل الولادة ، وجرى اللبن ، ومنع الخوف والـوسـواس ، والأمن من الغـرق ومن المخـاوف وخلاص المسجون ، ومنع الـوحوش والطير من الزرع ، ومنع السوس عن الحبوب ، وجلب الحمام إلى الـبرج ، وجلب الغـائب ورد الآبق ، وجلب الـزبـون ، وجلب الخطاب ، والصلح بين المرأة وزوجها ، أو زواج المعطلة للزوج الغنى ، أو صلح المطلقة ، أو التفريق بين المرأة وزوجها ، وحتى تمشية الجماد كنقل الصخور أو نسف التلال .

وهم يستطيعون ، أيضاً ، عن طريق ممارسة وسائل « علم السيميا » ، تحقيق عقد لسان المؤذى ، وتسليط الصداع والحمى على الظالم ، ورجم دار الظالم أو إخراجه من داره ، أو ترميد عينه ، أو إهلاكه أو عقمه أو إخضاعه ، **أو تسليط الخابط عليه** ، وإصابة الظالمة بالنزيف أو عقمها ، أو قهر الجبابرة والأعـداء وقمـع الأضـداد ، أو إرسـال الهـواتف للتفـريق بين المجتمعين ، **أو خراج العدو من البلد !!** .

ويستطيع هؤلاء الناس كذلك ، عن طريق ممارسة وسائل هذا العلم ! ، أن يختـاروا الأوقات لأعمال الخير ، أو يختاروا الأوقات للكلام على الكواكب ومعادنها ، أو أوقات الكتابة ، وأن يحذقوا أساليب استخدام الملائكة على وجه العموم أو تلك التى تستخدم الخدمة السفلية للتسلط على قبائل الجن .

وفضـلاً عن ذلـك فهم يستطيعون القيام بوضع الأوفاق أو التعرف على أصولها وعلى وضع الأسماء والآيات القرآنية أو التعرف على اسماء الله الحسنى

وعلى بعض خواصها وعلى طباع الأعداد وموازين الحروف وعلى أحسن طريقة لصرف العمار أوطرد الجن أوقتل الجنى العاصى أو التصرف فى الأرواح والعوارض ! .

ويمارس علم الحكمة أشخاص تخصصوا فى هذا العلم . والملاحظ أن علم الروحانية هو روح علم الحكمة ، ومن أهم مطالبه دعوات عديدة ، منها على سبيل المثال دعوة الجلجوتية ، وهو مطلب العزيمة الجليلة لما حوته هذه الدعوة من الأسماء والأقسام ، ولما فيها من الأسرار العظام والخواص الجسام التى تكلم عنها الكثير من الحكماء أرباب الخواص ! ويرى البونى ، فى كتابه « منبع أصول الحكمة » ، أن طالب هذه الدعوة ينبغى له استعمال الصدق فى الظاهر والباطن ، واكتساب الحلال ، والنصح لأخوانه ، واجتناب ما حرم الله عليه فى كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم ، وأن يعمل بالكتاب والسنة فى كل ما يرومه ، وأن يكون ملازما للطهارة الكاملة ، وأن يلبس الثياب الطاهرة النظيفة ، وأن يستعمل أنواع الطيب والأدهان المعطرة ، وأن يتعود قلة الشبع وقلة النوم . ويجب عليه أن يراعى حرمة كتاب الله تعالى وأسمائه فلا يكتب شيئاً منها لوضعه فى مواطن الأقدام ، وينبغى له استقبال القبلة الشريفة والجلوس فى الأمكنة الطاهرة النظيفة ، وألا يكون فى مجلسه جنب ولا حائض ولا صغير يبكى ولا كلب ولا صورة حيوان ، وأن ينزه نفسه عن الدناءات ومسقطات المروءة ومخلات الأدب فى كل أحواله .

كما يجب على طالب هذه الدعوة كتمان ما يرى من الأسرار وطاعة الأملاك واستظهار الجن له ومخاطبتهم وقيامهم بمطالبه ، فإن إظهار ذلك يحط من قدر الطالب عندهم . وعليه أى الطالب ، أن لا يضجر من الطلب وإن تأخرت عنه الإجابة ، فإن الضجر موقف لكل طالب . وعلى طالب هذه الدعوة أن

يتبع فى مطالبته أوساط الأمور ، ويعتمد فى ذلك كله على تقوى الله تعالى .

ومعرفة طالب الدعوة بالأحكام الشرعية ضرورة ، وذلك لكى يقطع بذلك حجة من يحتج عليه من الجن ، فهو ، كأحد طلاب علم الحكمة ، يكون بمنزلة الحاكم الذى يرأس الناس ويقودهم .

ويرى طالب دعوة الجلجوتية أن جميع الأمكنة لا تخلو من الأرواح الجنية ، وأن سكان كل مكان من الجن لا يسمحون لغيرهم من الأرواح الموكلين بخدمة الأسماء والدعوات بالدخول فى مكانهم إلا إذا أمرهم الطالب باخلائه لهم ، ولذلك يجب عليه إذا أراد عملاً من الأعمال فى أى مكان أن يصرف عنه سكانه من الأرواح ، ثم بعد إتمام عمله يأمرهم بالعودة إلى مكانهم ، وما أيسر أن يفعل الطالب ذلك ، فما عليه إلا أن يقول ثلاث مرات وهو يبخر بكندر (اللبان) وكزبرة وشونيز (حبة بركة) وفاسوخ ، قصيدة من الشعر مكونة من عشرين بيتاً منها :

أو ليس للزجر الشديد قواطع ؟	قالوا بلى قد لاح كالنيران
فأجبتهم ماذا أقول وابتدى	قالوا بذكرى مكون الأكوان
بأياش بهياش وهياش	جل المهيمن منزل القرآن
جبريل فاهبط للثريا عاجلاً	نادى هبوط مسعر النيران
نادى سيوط مع طبوط قد بدت	أنواره تبدو على الإنسان
. . . .	. . . . إلخ

فإذا قضى الطالب حاجته وأراد عودة سكان المكان إليه ، يقول القسم التالى ثلاث مرات :

« بحق الأسماء التى انصرفتم بها ياعمار هذا المكان ، عودوا إلى ما كنتم عليه » . وبحق « الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم » . (٢ م البقرة . ٢٥٥) .

ويرى الطالب أن الأملاك الموكلين بخدمة دعوة الجلجوتية ، مطلب العزيمة الجليلة ، ثمانية ، وهم : السيد روفائيل والسيد جبرائيل والسيد سمسمائيل والسيد ميكائيل والسيد صرفيائيل والنسيد عنيائيل والسيد كسفيائيل والسيد طحيطمعليال وهو الرئيس . ويستطيع الطالب أن يدعو هؤلاء كلما شاء ، فهو يدعو الرئيس إذا أراد أخذ طاعة ملك علوى من السبعة السابقين ، وهو يدعو أى واحد من السبعة إذا أراد أخذ طاعة عون أوملك سفلى .

ويشترط على الطالب لاستنزال هؤلاء الأملاك بعض شروط ، هى : التنظيف التام الطيب ، واستقبال القبلة الشريفة ، وبسط ثوب أبيض ، وإطلاق البخور العطر ، والتكلم بالقسم بخشوع ، ودعوة الملك المطلوب نزوله بخضوع ، وإطراق الرأس مع الثناء على الله عز وجل قبل القسم وبعده ، والقيام عند نزول الملك وتلقيه بالرحب والبشر والدعاء له ، كأن يقول ، مثلاً ، « أيدكم الله بالنور الأعظم وزادكم قرباً من الحضرة الشريفة المطهرة التى اهلكم لها » ، أو أن يقول « بارك الله فيكم وعليكم » ، ويفعل الطالب ذلك عند انصراف الملك ، وذلك لأن كل ما يدعو الطالب به للملك يدعو الملك للطالب بمثله .

وينبغى على الطالب إذا استحضر أحداً من الملوك السبعة فمن دونهم أن

يراعى مقام كل منهم ، فلا يخرج معهم ولا يباسطهم بكلام غير مألوف عندهم ، وأن يعامل كلاً منهم بما يجب له ، وأن يكون طلبه الحاجة منهم عن ضرورة لا عن امتحان ، وأن يخاطب الملوك باللين والأعوان بالشدة والعوارض والعمار والقرائن بالشدة والزجر والقهر والتهديد ، لأن الطالب الذى يراعى ذلك يبقى مهاباً .

ويلاحظ أن الأملاك مقربون من حضرة رب العزة ولا يفترون عن عبادته طرفة عين ، فإذا وجه الطالب إلى ملك سؤالاً عليه أن يوجز فى طلبه ليسرع فى صعوده تأدباً معه . ولكل ملك من هؤلاء علامات تميزه عن غيره وله يوم معين ينزل فيه ، وله خادم خاص . ولا تتمكن العين الإنسانية من النظر إلى هؤلاء الأملاك وذلك لقوة أشعة أنوارهم وصفاء جوهرها .

ومن العلامات التى تميز السيد روفائيل ، مثلاً ، أنه ينزل فى قبة من سندس أخضر ، وله لواء أخضر ، وباب القبة مفتوح ، وعند السيد روفائيل أعوان يقومون بخدمته لابسين ثياباً خضراء ، وإذا نزل إلى الطالب يمكث فى القبة يسيراً ثم يخرج إلى باب القبة وينصب له كرسى من نور . ووقت نزول السيد روفائيل يوم الأحد ، وخادمه المذهب .

أما السيد جبرائيل فينزل فى قبة من نور وعلى رأس القبة لواء أصفر ، ولا يخرج من القبة إلا إذا وجه الطالب خطابه إليه ، وله عشرة أعوان ينزلون معه ، ووقت نزوله يوم الإثنين ، وخادمه الأبيض .

وينزل السيد سمسمائيل فى قبة من نور ، أيضاً ، وعلى باب القبة لواءان أحمران ، ومعه ثلاثة أعوان ينزلون معه ، ويقفون أمام باب القبة . ووقت نزول السيد سمسمائيل يوم الثلاثاء ، وخادمه الأحمر .

وينزل السيد ميكائيل فى قبة من نور كذلك ، وعلى يمين القبة لواء أبيض وينـزل معـه أربعـة أعوان يقفون تحت اللواء ، ووقت نزوله يوم الأربعاء ، وخادمه يرقان .

أما السيد صرفيائيل فينزل فى قبة من نور أبيض وأخضر ، ولها بابان ، على كل باب عشرة أعوان وأربعة ألوية ملونة بالخضرة والبياض ، وعلى يسار القبة ملك طويل جداً يسمى صلصيائيل وهو رئيس أعوان السيد صرفيائيل . ووقت النزول هو يوم الخميس ، وخادمه شمهورش .

وينـزل السيد عنيائيل فى قبة من نور ، ومعه ستة أعوان وثلاثة ألوية . ووقت نزوله يوم الجمعة ، وخادمه زوبعة .

وينزل السّيد كسفيائيل فى قبة من نور أسود ، ومعه ثلاثون عوناً وعشرة ألوية سود . ووقت نزوله يوم السبت ، وخادمه ميمون .

أمـا السيد طحيطمعليال فينزل قبله قبتان من نور ساطع البيان بشهب لامعة ، ثم ينزل فى قبة عظيمة تنصب له بين القبتين ، وينزل معه ألف عون . يقف بعضهم حول القبـة وبعضهم خارج الـرقعـة التى تنصب فيها القباب الثـلاث ، ولـه خمسـون لواء بيضاء . ومتى نزل السيد طحيطمعليال حضر الخدام السبعة المذكورين آنفاً : المذهب والأبيض والأحمر ويرقان وشمهورش وزوبعة وميمون ، ثم يقفون خلف الرقعة ولا يستطيع أحد منهم الدنو منها . ومن شروط استنـزال السيد طحيطمعليال ، زيادة على ما تقـدم ، أن تكون ثياب الطالب كلها بيضاء ، وأن يكون المكان نظيفاً مطيباً .

ويلاحظ أنه إذا كان الطالب محجوب النظر فلابد له من ناظر حاذق يعلمه بنزول الأملاك حتى يتمكن من استقبالهم الاستقبال اللائق بكل منهم ، وإذا

لم يجد الطالب هذا الناظر فليعمد إلى صبى أو جارية دون البلوغ ، ويكتب على جبهة الصبى أو جبهة الجارية بعض الأسماء ، وهى : شلها شرد هيثا « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (٥٠ ك ق : ٢٢) ثم يعطى الصبى أو الجارية مرآة مصقولة مكتوب على ظهرها طلسم معين يكون فى وسطه اسم الملك أو العون أو الخادم المطلوب ، ويمسك الصبى أو الجارية المرآة فى اليد أمام العينين حتى يرى من يستنزل أو يستحضر وما يكشفه أو يشير به إليه . ويصح للطالب نفسه استخدام المرآة حتى ولو كان ذا بصر إذا أراد ذلك .

ولدعوة الجلجلوتية ، مطلب العزيمة الجليلة ، طرق عديدة . ويرى البونى أن أصح هذه الطرق طريقتان : الأولى هى ما يسميه بالطريقة الصغرى ، والثانية هى الطريقة الكبرى .

وتتضمن دعوة الطريقة الصغرى قصيدة من الشعر مكونة من نحو ستين بيتاً . وقد يضيف إلى هذه الأبيات بعض الشيوخ عشرة أبيات أخرى . أما دعوة الطريقة الكبرى فهى تتضمن قصيدة من الشعر مكونة من نحو ٣٦٦ بيتاً وتبدأ قصيدة دعوة الطريقة الصغرى بالأبيات التالية :

بدأت بسم الـه روحى به اهتدت — إلى كشف أسرار بباطنه انطوت

وصليت فى الثانى على خير خلقه — محمد من زاح الضلالة والغلت

سألتك بالإسم المعظم قدره . . . — باج اهرج جل جليوت جلجلت

فكن باإلهى كاشف الضر والبلا — . . . بهى جلا همى بهل بهلهلت

واحى إلهى القلب من بعد موته — بذكرك ياقيوم حقاً تقومت

وتنتهى هذه القصيدة بالأبيات التالية :

فيا قارىء الاسم المعظم قدره — عليك بتقوى الله تنجو من الغلت

فقابـل ولا تخش حـاكماً ولا تخف — وجـز كـل أرض بالوحوش تعمرت

بهـا العهـد والميثـاق مـن عهـد آدم — وبالمسـك والكـافور والنـد ختمت

وصـل وسـلم ياإلـهى بكـثرة . . . — . . . كوابل غمام سـائل قد تهطلت

على المصطفى والآل والصحب كلهم — بقدر نبات الأرض والريح إن سرت

ولعل القارىء يلاحظ ما تضمنته أبيات هذه القصيدة من أسماء سريانية قد كتبت بالحروف العربية . منها « آج » أى الله ، و« أهرج » أى الأحد ، و« جل جليوت » أى البـديع ، و« جلجلت » أى القـادر ، « وهى » أى الكافى ، و« هل » أى الودود ، و« هلهلت » ، أى الباسط .

أما قصيدة دعوة الطريقة الكبرى فهى تبدأ بالأبيات التالية :

بـدأت بسم الله ربـى ومـالـكى — مطـالع أسـرارى بسـرى أعـلنت

فأسـماؤها العظمـى بهـا الـروح — تهتدى إلى سر أسرار بباطنه انطوت

وصليت ياربى على أشرف الورى — محمـد المبعـوث للخـلق عمـت

وأفضـل مخلوق وخاتـم رسلهـا — بسيفـك قد زاح الضلالة والغـلت

صـلاة وتسليمـاً عليـه وآلـه — وصحب وكـل التابعين ومن حوت

وتنتهى هذه القصيدة بالأبيات التالية :

فيـا قارىء الاسم المعظم قدره — عليك بتقوى الله تنجو مـن الغلت

بها العهد والميثاق والوعد والوفا — وبالمسـك والكـافور والنـد ختمت

وأبيـات شـين وسين تشفعت — . . . . بها الأسـرار عظام تجمعت

وبعـد فصـل الله ربـى دائمـاً — على المصطفى ما طـار طير وغردت

وآل وأصـحاب كـرام أئمـة — بـهم زالت الأكدار عنا وزحزحت

ولعل القارىء يلاحظ التشابه بين بداية كل من القصيدتين من حيث معانى الأبيات . أما نهاية القصيدتين فقد تكرر أكثر من بيت فيهما بنفس النص أو بمعظمه .

وإذا حاولنا أن نبين طريقة استخدام دعوة الطريقة الأولى ، الطريقة الصغرى ، نجد أن الطالب المبتدىء يجعل قصيدتها ورداً يقرؤه مرة فى الصباح ومرة فى المساء ، وإذا عرضت له حاجة وأراد قضاءها فإن الطالب يتلو القصيدة من مرة إلى سبع مرات ، أو إلى إحدى وعشرين مرة ، أو إلى إحدى وأربعين مرة . ويعتبر العدد الأخير آخر مراتب أعدادها وأكملها .

وقد تتلى هذه القصيدة فى وقت الحاجة فقط من غير أن يتخذها الطالب ورداً . ومن شروط التلاوة عند الحاجة ، ذكر التوكيل فى كل مرة وملاحظة الحاجة فى قصد التالى وبخاصة عند تلاوة المرة السابعة عشرة مع إطلاق البخور فى يوم الأحد بالجاوى ، وفى يوم الاثنين بالكافور ، وفى يوم الثلاثاء بالكندر ، وفى يوم الأربعاء بالميعة السائلة ، وفى يوم الخميس بالمصطكى ، وفى يوم الجمعة بعود الند (مسك يعجن بعنبر وعود) ، وفى يوم السبت بالعود الهندى (المقصود بالتوكيل أن يقول الطالب « اللهم يامن هو كذا ولا يزال هكذا ولا يكون هكذا أحد غيره أسألك أن تصلى وتسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأن تفعل كذا وكذا ويذكر مطلوبه من استنزال أو استحضار أو قضاء غرض . ثم يقول وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ») .

وتلاوة هذه القصيدة من غير كتابة أسلوب لا بأس به ويناسب محجوب البصر أو من تتعذر عليه الكتابة . وكما تتلى القصيدة فحسب فهى ، أيضاً ، قد تتلى وتكتب وهو الأسلوب الأكمل .

ومهما يكن من الأمر ، فإن طالب علم الحكمة ، وبخاصة الذى يستخدم دعوة الجلجلوتية بهذه الطريقة ، أقصد الطريقة الصغرى ، يعتقد أن الله جل وعلا قد أودع فى أبيات قصيدتها من الأسرار والخصائص ما لم يحصر بعد ولا عند نهايته حد . فهو ، أى طالب هذه الدعوة ، يرى أن فى كل بيت من أبياتها أسراراً عديدة وخواصاً لا حدود لها . إن من واظب ، مثلاً ، على قراءات البيت الأول من هذه القصيدة وهو :

بدأت بسم الله روحى به اهتدت   إلى كشف أسرار بباطنه انطوت

فى كل يوم ثلاثين مرة ، نال المحبة والمهابة والرفعة . ومن واظب على قراءته فى كل يوم ثمانى عشرة مرة تفجرت الحكمة من قلبه وانجلت ظلمته ، ومن كتبه فى كاغد (قرطاس) وعلقة على ضعيف الأعصاب والعروق أو من به قولنج (مرض معوى) وذات الجنب شفاه الله تعالى .

وفى الأبيات الخمسة التالية من هذه الدعوة أسرار وأسرار ، فهى تتضمن خاتم هذه الدعوة الجليلة ، ويسمى الخاتم السليمانى ، وهى :

ثلاث عصى صففت بعد خاتم   على رأسها مثل السنان تقومت
وميم طميس ابتر ثم سلم   وفى وسطها بالجرتين تشركت
وأربعة شبه الأنامل صففت   تشير إلى الخيرات للرزق جمعت
وهاء شفيق ثم واو مقوس   كأنبوب حجام من البسر التوت
وآخر مثل الأوائل خاتم   خماسى أركان وللسر قد حوت

ولهذا الخاتم خواص كثيرة ، ومنافع عظيمة ، وإشارات لطيفة ، ومعان طريفة ، وأسرار لا تحصى ، وعجائب لا تستقصى ، فيه تجلب المسار وتدفع المضار، ومن عرفه استغنى به عن غيره ، واكتفى به عما عداه . فمن خواصه

أنه إذا كتب ووضع مع الميت أمن من عذاب القبر . ومن حمله كان فى حفظ الله . فإذا حمله من يدخل على الملوك والسلاطين والعظماء يحميه الله منهم . وحامله يكون مؤيداً منصوراً يقهر كل من يعاديه . وينفع هذا الخاتم لإبطال السحر وحل المعقود ومن طال سجنه ، كما ينفع المصروع ، ويخرج العارض من الجسد إذ علق عليه . فإذا أقام (العارض) احترق . ومن نقشه على خاتم من فضه فى الساعة الأولى من يوم الجمعة ويكون الناقش صائماً فإنه كلما يقع على حامله بصر أحبه وقضى حاجته . وإن دخل حامله به على السلطان نال مقصوده .

ومن كنب هذا الخاتم فى مكان خرب عمر ، وإذا حملته امرأة عازبة تزوجت ، خصوصاً البكر ، وإذا حمله من يخاف من قطاع الطريق وكل أمر مكروه فإنه يأمن منه ، **وإذا علق على لواء الجيش والعسكر كان منصوراً !!** فقد حكى أن ملكاً من ملوك مسلمى الصين حاصر مدينة من الكفار مدة طويلة حتى بنى المسلمون حول تلك المدينة مدينة أخرى ولم يقدروا على فتحها ، فذكر بعض الناس لذلك الملك رجلا يعرف بالزهد والورع والعلم والصلاة والصلاح ، فحياه الملك وقال له « أمددنا بالأدعية . وذلك له قصته مع تلك المدينة وعدم قدرته على فتحها » ، فأخذ الشيخ رقعة وكتب فيها الخاتم مكرراً مبسوطاً وأعطاه للملك وقال له « اجعلها فى مقدمة رأسك وازحف على الكفار » ، **فعمل الملك بإشارته فنصر الله المسلمين ، وملكوا المدينة وغنموا غنائم عظيمة !!** .

ومن خواص هذا الخاتم إظهار الكنوز وإخراج الدفائن ، حيث يكتب بزعفران ويعلق على رقبة « ديك افرق معوشر » ثم يطلق فى المكان المتوقع وجود هذه الكنوز أو الدفائن ، فأى مكان يقف هذا الديك عليه ويبحثه برجله

أو منقاره وصاح عليه ففيه الخبيثة ! .

ومن خواصه إخراج العدو الشخصى من البلد ، وتخريب داره ورجمه فى داره وإشعال النار فى دار الظالم . وفضلاً عن ذلك **تعطيل سفن الأعداء عن السفر وإن سافرت غرقت !** ، وما على الطالب إذا أراد المطلب الأخير إلا أن يكتب الخاتم على قطعة من الخشب بماء البحر الذى رست فيه السفن ، أو مخرت عبابه ثم دفنه فى هذا البحر .

ولعل قيام الطالب بهذا العمل يكون أيسر من قيامه بمحاولة إخراج العدو الشخصى من البلد حيث يقوم عندئذ بصيد أحد العصافير ويربط فى رجله ورقة يرسم عليها الخاتم مع اسم العدو الشخصى واسم أمه بخيط أصفر ، ثم يطلق العصفور بيده الشمال من وراء ظهره ، ويقول عند إطلاق العصفور ، هرب فلاناً ابن فلانه من هذا المكان بحق هذه الأسماء .

والعمل على تعطيل سفن الأعداء عن السفر أيسر كذلك من خلاص المسجون من سجنه . فالطالب لتحقيق هذا الخلاص ما عليه إلا أن يرسم الخاتم على قليل من تراب المقابر بعد عجنه وجعله « شقفه » ، ويقرأ عليه الدعوة ثم يعطى المسجون الشقفة التى يدخلها من طوقة ويخرجها من كمه ، فيتحقق المراد !! .

ولعل القارىء قد لاحظ ، كما لاحظت ، فى ضوء كل ما سبق ، أن علم السيميا ، أو حتى بعض ما يتضمنه ، فى تراثنا الثقافى الاجتماعى المصرى المعاصر ، هو علم يهب المقدرة على فعل المعجزات ، وذلك بمجرد تلاوة بعض أبيات من الشعر أو بعض الأسماء باللغة السريانية أو بعض الآيات القرآنية ، على أن تكرر هذه التلاوة مرة أو مرات .

إن هذا العلم يهب ممارسه سلطة مخيفة يمكن أن يستغنى بها عما عداها من سلطة أو سلطان . والملاحظ أن هذه السلطة هى سلطة لا تقف أمامهم سلطة الدولة بأجهزتها أو سلطة المجتمع بجماعاته البشرية ونظمه الاجتماعية وتياراته الفكرية وقيمه ومثله العليا ، أو حتى سلطة الدنيا بأسرها .

إن من يمارس علم السيميا ، أو بعض ما يتضمنه ، فى مجتمعنا المعاصر يستطيع ، مثلاً ، أو يتوهم أنه يستطيع ، أن يحسن الأخلاق ، الأمر الذى تحاول أن تفهمه الجامعات وأن تمارسه المدارس وأجهزة التربية العديدة فى المجتمع . وهو يستطيع أو يتوهم أنه يستطيع أن يجعل البليد ذكياً ؟ يفهم العلوم والمعارف فى سهولة وفى يسر وهو أمر يستصعبه علماء التربية والنفس المعاصرون . وهو يستطيع أو يتوهم أنه يستطيع أن يمنع السوس من الحبوب وأن ينقل الصخور وينسف التلال ، كل ذلك بمجرد أن يتلو الممارس بعض الكلمات . وما أيسر ذلك .

وكأننا قد أخطأنا عندما استخدمنا العلوم العصرية والتكنولوجيا ، ولم نستخدم علم السيميا ، فى بناء مصانعنا العظيمة أو فى بناء السد العالى الجبار ، أين كان هؤلاء الممارسون لعلم السيميا ، أو بعض ما يتضمنه ، فى بلادنا عندما دعت الضرورة الملحة إلى بناء هذه الشوامخ ؟ أين هم الآن ونحن فى مسيس الحاجة إلى معونتهم فى القضاء على البلهارسيا وفى محو الأمية وفى زراعة الصحراء الشاسعة وفى حفر آبار البترول ؟ . اين هم عندما تهدد محصول القطن فى بلادنا الآفات ؟ اين كان هؤلاء الممارسون عندما ظلمنا الظالمون سواء كانوا مستعمرين أو كانوا مواطنين ؟ لماذا لم يسلطوا على هؤلاء الظالمين الخابط مثلاً ؟

إن من يمارس علم السيميا ، أو بعض ما يتضمنه ، فى مجتمعنا المعاصر

يستطيع بمجرد أن يكتب « الخاتم السليانى » ، مثلا ، ويضعه مع الميت فى القبر أن يؤمنه من عذاب القبر ! وهو يستطيع بمجرد أن يفعل ذلك ، أيضاً ، أن ييسر انتصار جيوشنا على الأعداء . إننا الآن فى مسيس الحاجة إلى انتصار هذه الجيوش على الأعداء . ولكن ما هو السبيل إلى هذا الانتصار ؟ هل نمارس علم السيميا ، أو بعض ما يتضمنه ، كما يفعل الكثيرون من أعضاء مجتمعنا فى سبيل تحقيق هذا الانتصار ؟ هل نفعل ما فعله ، مرة أحد المواطنين الطيبين إذ أرسل رسالة إلى ضريح الإمام الشافعى فى ٥ أكتوبر ١٩٥٥ ، يطلب فيها من الإمام الشافعى عقد جلسة شريفة يحضر فيها معه سيدنا الحسن وسيدنا الحسين والست زينب أم هاشم وجميع أهل بيت النبى ﷺ ، وذلك لمسح وإزالة إسرائيل اليهود من على وجه الأرض المقدسة فى خلال اسبوع ؟ هل نفعل ما فعله اجدادنا منذ نحو ١٨٨ عاما ، عندما وردت الاخبار إلى القاهرة باحتلال نابليون الاسكندرية ورشيد ودمنهور وتهديده للقاهرة نفسها . فاجتمع العلماء بالأزهر فى هذه الآونة كل يوم « يقرأون البخارى وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية ، وغيرها من الطوائف وأرباب الأشاير ، ويعملون لهم مجالس بالأزهر . وكذلك أطفال المكاتب ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء » .

ولعل علم السيميا ــ أو ممارسته ــ يغرى الكثيرين من البسطاء . فالممارس يستطيع أن يتسلط على الملائكة ويستخدمهم فى سبيل تحقيق مآربه . وهو يستطيع أيضاً أن يسخر الجن فى سبيل تحقيق كل ما يريد . ونحن المصريين بعامة نؤمن بالأرواح والملائكة كما نؤمن بالجن . ولكننا لسنا أنبياء ولا رسلاً نستطيع أن نراهم أو نتحدث معهم ، أو نخاطب ملوك الجن باللين وأعوانهم بالشدة والعوارض والعمار والقرائن منهم بالشدة والزجر والقهر والتهديد ! إننا

نؤمن بالملائكة والجن فى ضوء مارد عنهم فى القرآن الكريم والسنة أو فى الكتاب المقـدس . وقـد آمن جدودنـا المصريون من قبلنـا بالأرواح وفى ضوء إدمان تفكيرهم فى العالم الآخر الفوا كشكولا من الجن والعفاريت والسحر والرقى والتعاويذ .

والملاحظ أنه على الرغم من أن أصل علم السيميا قد يرجع إلى المصريين القدماء ، وإن مجرد تسميته بـ « علم السيميا » يدل على أصله العبرى . وإن معـظم الكتب فى هذا العلم يرجع إلى ما وضعه الحكماء فى كتبهم من عهد « الأستاذ الفاضل أرسطو طاليس » (اليونانى) ، فإن هذا العلم كما هو موجود فى الكتب والكتيبات المنشورة فى مجتمعنا المعاصر ، مكتوب باللغة العربية ومملوء بالحكم العـربية والقصـائـد العربية والدعوات الإسلامية فضلاً عن الآيات القرآنية الشريفة .

إن من يمارسه أو يمارس بعض ما يتضمنه ينبغى له استعمال الصدق فى الظاهر والباطن ، واكتساب الحلال ، والنصح لإخوانه ، واجتناب ما حرم الله فى كتـابه العزيز على لسان نبيه الكريم ، وأن يعمل بالكتاب والسنة فى كل ما يرومه .

ومعــرفــة طالب دعـوة الجلجلوتية (بعض ما يتضمنـه علم السيميا) بالأحكام الشرعية ضرورة ، وذلك لكى يقطع بذلك حجة من يحتج عليه من الجن . أى أن الممارس لعلم السيميا ، أو بعض ما يتضمنه ، يجب أن يكون مسلمـاً مؤمناً عاملاً بالكتاب والسنة ، والملاحظ أن بين الذين يمارسون هذا العلم من هم غير مسلمين . إن آداب هذه الممارسة آداب حميدة فى ضوء تعاليم الدين الإسلامى ما فى ذلك من شك ، ولكن الدين الإسلامى يرى أن المظاهر

وحدها لا تجدى . وأن العبرة كل العبرة بالعمل بالكتاب والسنة فحسب ، وأن فيما عدا ذلك بدعاً مستقبحة ، وأنه لم يرد فى الكتاب شىء عن ممارسة علم السيميا أو بعض ما يتضمنه ، بل إن ما ورد فعلاً أمر يستقبحه « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأُخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعـون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب » (٣ م آل عمران : ٧) .

ولم يرد عن سيدنا محمد نبى الإسلارم ممارسة هذا العلم أو ممارسة بعض ما يتضمنه « إن العمل بالسنة المحمدية هو كل السعادة والشرف ، والخروج عنها هو كل الخزى والمقت والهلاك وفظيع التلف ، **ولذا قالت الأئمة إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير فى الهواء فلا تلتفتوا إليه فإن الشيطان يطير من المشرق إلى المغرب ويمشى على الماء ، ولكن أنظروا فى اتباعه الكتاب والسنة فإن الشيطان لا يقـدر على ذلك أبداً »** ومع ذلك فنحن نقول إن علم السيميا ، أو بعض ما يتضمنه ، لم يحقق للبشرية ما حققه العلم الحديث ، علم الربع الأخير من القرن العشرين .

إن علم السيميا قد حقق ولا يزال يحقق وهماً وزيفاً ، ولكن علم الربع الأخير من القرن العشرين أقصد العلم العصرى قد استطاع أن يحطم الذرة وأن يفيد من طاقتها الجبارة ، واستطاع أن يخلق الجنين فى أنبوبة الاختبار ، وأن يزرع القلوب والأكباد ، وهو يحاول أن يخلق الخلية الحية ويسير قدماً فى سبيل تحقيق هذا الخلق .

وفى ضوء هذا العلم الحديث أمكن بناء العقول الالكترونية التى تفكر من أجل الإنسان ، وأمكن االتسلط على العديد من الأمراض الجسمية والنفسية

والعقلية : الوقاية منها وعلاجها . ويكفى أن نلاحظ الصور التى يلتقطها الإنسان من القمر ومن المريخ ومن الزهرة . ويكفى ما يراه الرجل العادى على شاشة التليفزيون أويسمعه ، على بعد المسافات ، عن طريق الراديو الصغير الذى يحمله بأصبع واحد من أصابع يده العشرة .

إن تأثير وهم علم السيميا على عقول الإنسان المصرى فى ضوء ظروفنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تأثير رهيب . إنه لأول وهلة ييسر لهذا الإنسان البحث المستمر عن أقصر الطرق وأسرعها لتحقيق أهدافه أو غاياته الدنيوية والأخروية على السواء ، إن تأثير هذا الوهم يجنب الإنسان المصرى المعاصر العناء والجد المطلوبين عادة فى اجتياز العقبات للوصول إلى تحقيق هذه الأهداف والغايات . ويكون همه ليس إنجاز العمل على أكمل وجه وإنما إنجازه وتحقيق أهدافه وغاياته حتى لا يقال عنه بأنه عاجز عن ذلك . أى أن تأثيروهم علم السيميا ، بالإضافة إلى بعض العوامل الآخرى ، ييسر غرس بعض الخصال « الفهلوية » التقليدية فى نفس الإنسان المصرى المعاصر ، التى تجعله عاجزاً عن تقبل الحقائق الموضوعية ، بل تجعله عاجزاً عن تقبل الواقع ، وفقاً لما تفرضه الظروف الحرجة من تصرف سريع ، ويضطرنا هذا التأثير الوبيل إلى إخفاء العيوب والفشل والنقائص بغية إنقاذ المظاهر والحفاظ على ماء الوجه .

ولعل ممارسة علم السيميا تكون ملاذاً لبعض أعضاء مجتمعنا المعاصر من المستضعفين الذين أعمتهم ألوان ثقافية عديدة من الظلام ، سواء كانت هذه الألوان الأمية بأنواعها أو القلق المرضى أو الشعور بالاغتراب .

٩ ـ صورة من صور الغزو الثقافى الخارجى

نلاحظ فى الآونة الأخيرة انتشار مفاهيم عديدة فى المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى المعاصر مثل مفاهيم « التبعية » و« التحدى الحضاري » و« المغزو الثقافى » . وفى ضوء ما كتب عن هذه المفاهيم نجد أن الداعين لها أو ضدها أو الذين يخشون آثارها وتأثيرها يعيشون فى القلق المدمر . وهم إذ يفعلون ذلك ينسون أويتناسون أو ربما لا يعلمون أن المجتمع المصرى قد بنى أول حضارة إنسانية من واقع الحياة التى عاشها أبناؤه ، وأنه أول من أعطى لغيره من المجتمعات ، وأخذ من غيره من المجتمعات ما كان يجد أعضاؤه هوى فى نفوسهم نحوه .

إنهم ينسون أويتناسون أو ربما لا يعلمون أن المجتمع المصرى قد وطد أركان نظمه وعمق جذور تقاليده منذ الماضى السحيق . وأنه منذ أيام الدولة القديمة (٣٤٠٠ - ٢٤٧٥ ق. م) عرف المصريون مسألة الحق والباطل ، وتباحثوا فى وجوهها . ولعل « درامامنف » التى عرفت عن نسخة متأخرة من العصر الأثيوبى (الأسرة ٢٥ من عام ٧١٢ إلى عام ٦٦٣ ق. م) ، ولكن محتوياتها ترجع إلى عصر قديم جداً ـ قد كشفت عن أقدم تقدير للسلوك بصفته مرضياً أو غير مرضى . وبعبارة أخرى نجد فى تلك « الدراما المنفية » إشارة وجيزة عن أقدم مبادىء جاءت عن طريق التفكير والتأمل ، فالرجل الفاضل يسمى « محباً للسلام » وبالنص الحرفى « حامل السلام » وهو تعبير أخلاقى بلا شك يعرف الرجل الفاضل بعلاقاته بمن حوله . وعلى النقيض منه « حامل الجريمة » أو « المجرم » فهو الذى يخطىء فى حق من حوله .

ونجد أن أمثال « بتاح حتب » التى يرجع تاريخها إلى الأسرة الخامسة ،

تقدم شاهداً على تقدم الاختمار الخلقى ، أو ما يمكن أن يسمى مولد « الضمير الإنسانى » وتطوره . ومن ذلك ، العبارة التالية :

> « لا تكن متعجرفاً بسبب علمك ، ولا تنتفخ أوداجك لأنك رجل عالم . استشر الجاهل كما تستشر العالم ، لأن حدود الفن لا يمكن الوصول إليها ، وليس هناك فنان كامل فى براعته ، الكلام الطيب أندر من الحجر الأخضر الثمين ، ومع ذلك فإنه يوجد أحياناً فى حديث الجوارى العاملات فى طحن الغلال بين أحجار الرحى » .

وأود أن أؤكد كما ذكرت من قبل على أن حضارة مصر هى أول حضارة إنسانية أعطت العالم الكثير . وإننى لا أذكر ذلك وأؤكده عبثاً . فعبارة « اعرف نفسك » التى تنسب للفيلسوف اليونانى « سقراط » (٤٦٩ - ٣٩٩ ق . م) كانت معروفة عند المصريين القدماء ويعلمها علماؤهم ومكتوبة على جدران معابدهم ، وأن « الفضائل الأساسية » المنسوبة للفيلسوف اليونانى « أفلاطون » (٤٢٨ - ٣٤٨ ق . م) وهى الحصافة والعدل والاعتدال (ضبط النفس) والجلَد قد نسخها هذا الفيلسوف وهو يدرس « العلم المقدس » على أيدى الكهنة المصريين لمدة ثلاث عشرة سنة ، وأن علوم اللغة والبلاغة والمنطق والحساب والموسيقى والفلك كانت علوم الآداب المصرية التى نقلها الإغريق . وأن الطلبة الإغريقين قد عبروا البحر ليصلوا إلى مصر للدارسة والاطلاع فى المكتبات المصرية ، وأن الفلاسفة اليونانيين لم يرحب بهم فى بلادهم وبدأوا يحضرون إلى مصر للدراسة منذ عام ٥٢٥ ق . م . وأن بعض أعمال الفيلسوف أفلاطون أخذت من « كتاب الموتى » المصرى (منذ ٥٠٠٠ عام) ، وأن علم

اللاهوت المنفى (نسبة إلى منف) مصدر الكثير من الفكر الإغريقى .

وكما أعطت مصر لليونان فعلت ذلك فى أثناء نير استعمار الرومان . وكان عطاء مصر غزو الرومان بثقافتها فى عقر عقولهم . وحتى فى اللغة العربية التى نتحدث بها ونكتبها فى الوقت الراهن ، نجد العديد من الألفاظ الهيروغلوفية والديموطيقية والقبطية واليونانية وحتى الفارسية .

والملاحظ أن العديد من العناصر الثقافية المصرية القديمة المادية (الفاس والطنبور والطوب مثلاً) وغير المادية (غير الألفاظ المشار إليها ، الاحتفال بأعياد وفاء النيل والغطاس وشم النسيم مثلاً) مازالت مستمرة . لأن هذه العناصر بنوعيها قد خلقتها الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى العصر « الأساسى » عصر الأسرات الست الأولى وعصور الاستقرار الأخرى . وعلى الرغم من المعاناة وألوان القهر الذى صادف المصريين على مر العصور (وبخاصة فى خلال أعوام ٥٢٥ ق. م - ١٩٥٣ م) عندما كان الحاكم فى خلال هذه الفترة الطويلة الطويلة غير مصرى ، فقد عاشت مصر وبقيت شامخة صامدة حتى وقتنا الحاضر *

وإذا كنا نعتبر أن الحضارة الغربية فى عصرنا الحالى هى خضارة عالمية . فإن مصر تقف أمامها متحدية مثلها مثل غيرها من بلاد العالم قاطبة تأخذ منها وتعطيها كما فعلت فى الماضى البعيد وفى الماضى القريب . ولا يمكن اعتبار هذا الأخذ وهذا العطاء « تبعية » فجميع البلاد متقدمة كانت أو متخلفة تفعل ذلك أو يجب أن تفعل ذلك .

---

* يلاحظ أننا نجد فى سفر جزقيال (٣٠ : ١٠ - ١٣) العديد من الدعوات ضد مصر : منها إبادة ثروتها وخراب أرضها ، فضلاً عن ألا يكون من أرضها رئيس !

نحن فى حاجة ماسة إلى استخدام الطاقة الذرية سلميا والتكنولوجيا العسكرية والصناعية وإلى محاولة التسلط على الظاهرة الفلكية . ونحن فى حاجة أيضاً إلى استخدام الأساليب التى توفر تفكير الإنسان وتوفر بذل قدراته وتقوم هى بهذا التفكير وبذل هذه القدرات ، دون أن يعنى ذلك بالطبع الاستغناء تماماً عن تفكير الإنسان أوعن قدراته أو اعتبار هذا التفكير أو هذه القدرات ، فى الحالتين ، أموراً متماثلة ، ودون أن يوحى ذلك بأن الإنسان ، كإنسان ، هو آلة من الآلات . ونحن فى حاجة ماسة أيضاً إلى التفكير العلمى والمبادىء الديمقراطية بأنماطها فضلاً عن المبادىء التى تهدف إلى تحرير الإنسان المصرى وتؤكد إنسانيته وتيسر له الإبداع والخلق الإيجابى . نسعى إلى تحقيق ذلك ، أو يجب أن نفعل فى نطاق ما لدينا من امكانات اجتماعية واقتصادية واختمار خلقى وتاريخ مجيد قديم ومستمر . .

إن ما يواجه المجتمع المصرى المعاصر هو كل ما هو عصرى من العناصر الثقافية المادية وغير المادية العالمية . وقد دعا المفكر الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين إلى ذلك بالحاح مستنفراً الهمم إذ قال منذ يوم ٣٠ من شهر يوليو عام ١٩٦٧ فى مجلة المصور فى مقال من مقالاته « المطلوب دولة عصرية » . وهو لا يزال يدعو بأسلوب أو بآخر إلى هذه الدعوة متحدياً الظروف غير المواتية والأشخاص المعوقين . وإذ أؤكد بكل تواضع معه هذه الدعوة الرشيدة فقد أكدها من قبل معلم الأجيال العملاق « رفاعة الطهطاوى » . وإذ أفعل ذلك فإننى فى ضوء خبراتى المحدودة كباحث علمى اجتماعى لفترة طويلة أعلم فى ضوء نتائج البحوث والدراسات التى أجريتها أو أشرفت عليها فى المجتمع المصرى بعض المعوقات التى تقف فى سبيل تحقيق المجتمع المصرى المتجدد ، أقصد تحقيق مستقبله المشرق . ومن هذه المعوقات نجد الدعوة إلى نشر

الخـرافـات الموجودة فى المجتمع المصرى وغرس الجديد منها فى نفوس الناس الـطيبين من أهل مصر يسير جنباً إلى جنب مع الدعوة الرشيدة التى أصبح فارسها بحق الأستاذ الكبير أحمد بهاء الدين فى الوقت الراهن . تراه إذ يدعو إلى ضرورة وجـود جهاز الكومبيوتر فى المدارس المصرية ، بل فى محيط الأسر المصرية نجد أن غيره يدعو إلى السحر وقراءة الكف والفنجان والرمل والودع والمندل وقراءة السحب والرعد وأوراق الشجر والعمل . . . إلخ . وإذا كان المنهج العلمى لا يرى هذا المنهج منهجاً قويماً فإن التراث الدينى النظرى ينفر من ألوان السحر وإتيان الكهان والعرافين والمنجمين بالرمل والحصى أو نحو ذلك وتصديقهم . ونجد أن هذا التراث مملوء بالترهيب من كل ذلك ، فالسحر هو تلويث العقيدة ، « ومن سحر فقد أشرك » (حديث نبوى عن أبى هريرة رواه النسائى) .

وإذا اعتبرت الدعوة إلى نشر الخرافات القديمة المستمرة والجديدة ، ومنها السحـر ، غزوا ثقـافياً « داخلياً » أى يروجـه مصريون يعتـبرون من القـادة الثقـافيين المصريين فإن هنـاك غزواً ثقافياً من « الخارج » يروجه آخرون غير مصريين عن طريق الكتب التى تنشر فى ربوع البلاد المصرية من أقصاها إلى أقصاها باسم « علم السيميا » الذى يتملق حاجات أعضاء المجتمع المصرى المعاصر ذكوراً أو إناثاً فيؤكد لهم قضاء الحاجات .

ومنهـا على سبيل المثـال : المتعلقـة بالاقبـال والسعـادة ، وبعلو الشأن وبـاشتهـار الـذكـر ، وبالمعيشة الهنية ، وبالعز والرفاهية ، وبالحب وبرضاء المحبـين وبالصداقة والأصدقاء ، وبالانتصار على الأعداء وبكيد الأعداء ، وبالفرج والنجاح وبالسفر والانتقال ، وبالغنى عن الناس وبالنجاة من الأفكار والأوهام والمرض ، وبالرزق الواسع وبتحقيق الأمانى وبالدخول على الحكام !

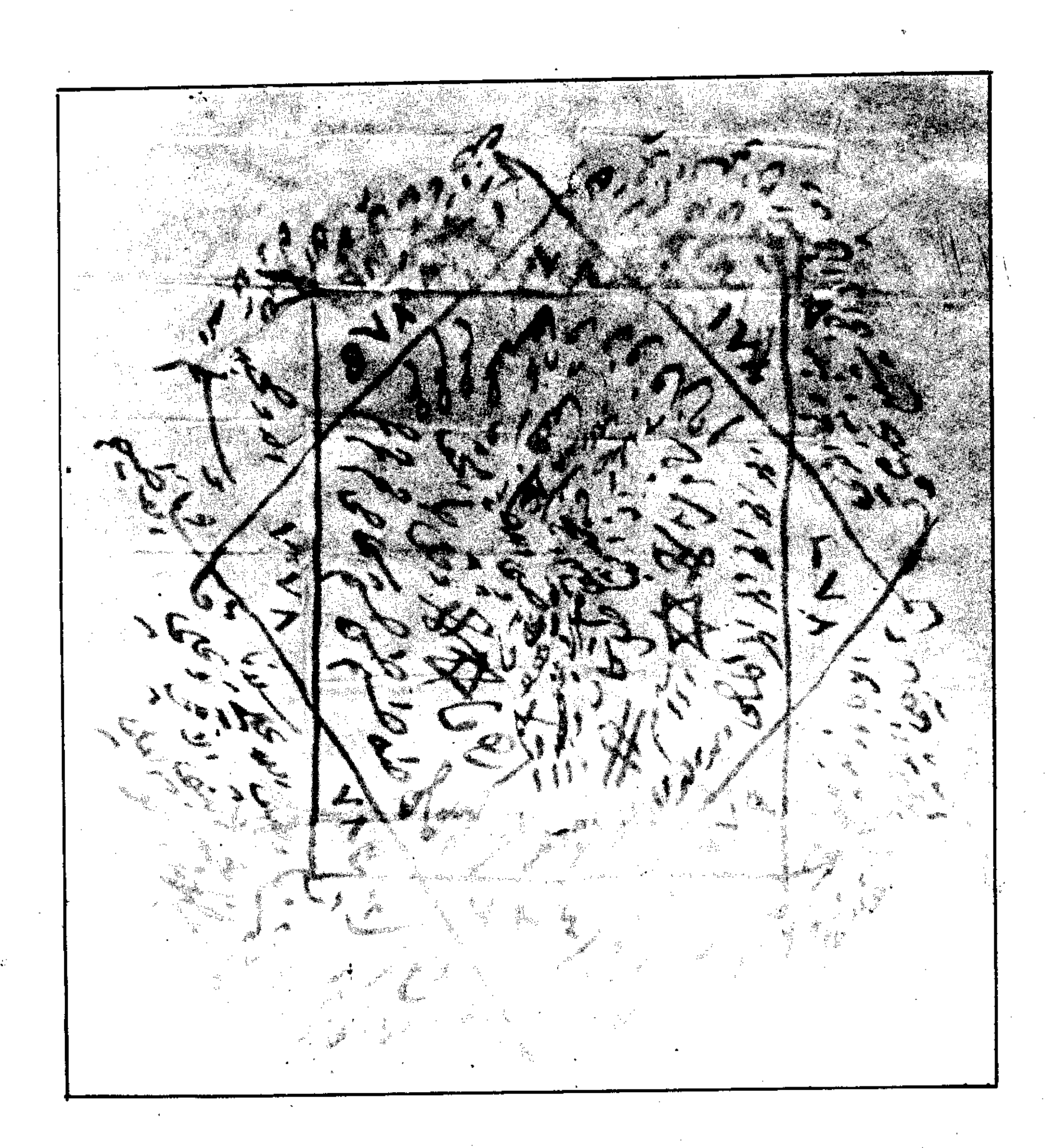
وعـزل الـظالم وبصرف العامر ، فضلاً عن عمل التمائم العديدة ومنها تميمة « الخاتم السليمانى » فإن لها خواصاً كثيرة ومنافع عظيمة وإشارات لطيفة ومعان طريفة وأسراراً لا تحصى وعجائب لا تستقصى . فبها « تجلب المسار وتدفع المضار ، ومن عرفها استغنى عن غيرها واكتفى بها عما عداها » .

وقـد لاحـظت فى ضوء إحـدى الدارسات الواقعية التى قمت بإجرائها ما يعلقه بعض أطفالنا من تمائم دفعاً للعين الحاسدة ، وعندما تيسر لى الحصول على إحداها فتحتها ووجدت صورة واقعية من صور الغزو الثقافى الذى يخترق كل الحجب والأستار من الخارج مستغلاً آيات القرآن الكريم وبعض الرموز التى تروج الضباب الفكرى فى محيط أعضاء المجتمع المصرى فتقف بهم حيث يكونون أو بالأحرى حيث كانوا فى عصور المعاناة والقهر . وإذ أنشر محتويات هذه التميمة أرجو أن أكون قد بلغت ، (انظر وثيقة رقم ١ ووثيقة رقم ٢) **حتى لا يتحقق للمـوتورين ما يبيتون لشعبنا المصرى الكريم ، وإننى أرى أنه فى** ضوء وقـائـع التـاريخ سيكـون الانتصـار على هذه الترهات وغيرها حتما . فالقضية قضية حياة أو موت . ونحن المصريين نحب الحياة ونكـره المـوت ، ونخشاه ، وإن كنا لا نخشى الموتى .



وجد فى هذا الحجاب ورقة داخل كيس من القماش وملفوفة بورقة مرسوم عليها نجمة داود ثلاث مرات . والورقة الأولى بها نص مكتوب على مستطيلين كل مستطيل فى داخل الآخر وقد كتب فى داخلهما كلمات مكررة منها طسم وحم وغيرهما غير مفهومة ، وحول المستطيلين كتبت آيات قرآنية هى : الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولايؤده حفظها وهو العلى العظيم (٢ م البقرة : ٢٥٥) ومكتوب أيضاً : وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم . وفى داخل أحد المستطيلين توجد حروف غير مفهومة ، وقد رسمت فيه نجمة داود مرتين .

وفى الفراغات مكان تقاطع المستطيلين وجدت أرقام ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٨ . والملاحظ أن الكتابة فى هذا الحجاب قد كتبت كلها بمنقوع الزعفران . (وثيقة رقم ١)



(وثيقة رقم ٢)

١٠ ـ نجمـة داود

حاولت مراراً أن أبحث عن موضوع « نجمة داود » فى الموسوعات التى أملكها وفى بعض الكتب فلم أنجح . وذهبت جهودى أدراج الرياح . غرفت فقط أن « سيدنا داود » قد ذكر فى القرآن الكريم ست عشرة مرة فى سور البقرة **والنساء والمائدة والأنعام والإسراء والأنبياء والنمل وسبأ وصّ . كنت أبحث** عن نجمة داود فى الموسوعات الانجليزية والأمريكية تحت عنوان David Star .

أمـا فى الكتب الأخـرى العـربية التى عنـدى فلم تذكر شيئاً عن هذه النجمة . كان اهتمامى مرجعه إلى وجود هذه النجمة فى بعض التمائم والأحجبة وفى الكتب التى تهتم بعلم السيميا . كنت أبغى أن اتعرف على حكمة وجودها **فى تميمة من التمائم بين بعض آيات القرآن الكريم وبخاصة « آية الكرسى »** وغـيرهـا من أوائل بعض السور القرآنية مثل « طسم » و« حم » فضلا عن الصـلاة على النبى محمـد ﷺ . وانتهى بى البحث إلى أن أصل إلى إحدى الموسوعات اليهودية باللغة الانجليزية فوجدت فى أحد مجلداتها تحت عنوان « Magen David » الذى تعنى « درع داود » ، ما كنت أبغيه . كان ذلك فى **الأسبـوع الأول من شهر فبراير عام ١٩٨٥ . وكانت سعادتى المعنوية لا تقدر** لأننى وجـدت أيضاً بين السطور حديثا آخر عن « الخاتم السليمانى » الذى يستعمل فى السحر ويتميز بأنه ذو الخواص الكثيرة والمنافع العظيمة والإشارات اللطيفة والمعانى الطريفة ، والأسرار التى لا تحصى والعجائب التى لا تستقصى !

وقـد وصفت المـوسوعة المشار إليها درع داود وبينت نشأته ، وجاءت بصـوره فى بعض المـواقع . وذكرت أن هذا الدرع بدأ استعماله منذ العصر

البرونزى كحلية أوزينة أوزخرف وربما كعلامات سحرية . وذكرت أن هذا الاستعمال فى ذلك العصر كان منتشراً فى مناطق جغرافية تبدأ من بلاد النهرين إلى بريطانيا . وقد عرف عن هذا الدرع السحرى فى العصر الحديدى فى مناطق جغرافية تبدأ من شبه القارة الهندية حتى شبه جزيرة إيبريا قبل الفتح الرومانى . وكان يظهر هذا الدرع فى بعض المصنوعات اليهودية مثل اللمبات والخواتم ! .

وقد أكدت الموسوعة المشار إليها على أن أقدم مثال على وجود هذه النجمة ذات الاضلاع الستة وجودها على خاتم فى القرن السابق قبل الميلاد . وزعمت الموسوعة أن نجمة داود بشكلها المعروف استعملها اليهود وغير اليهود جنباً إلى جنب مع نجمة أخرى ذات شكل خماسى الأضلاع . وأن نجمة داود بشكلها المعروف قد استعملت كعلامة سحرية منذ بدايات فترة « القرون الوسطى » . وتذكر الموسوعة أن النجمة ذات الأضلاع الستة قد وجدت فى بعض المصادر العربية كما وجد معها بعض الزخارف الهندسية . وأنها كانت تستعمل بكثرة تحت اسم الخاتم السليمانى وهو لفظ كان يستعمله العديد من الجماعات اليهودية .

والملاحظ أنه فى إحدى الفترات قد حفر الشكل ذو الأضلاع الستة على الخاتم السليمانى كعلامة على سلطان سيدنا سليمان على الجان والعفاريت بدلاً من أن يحفر اسم الله الكريم المتعال .

وقد ذكرت الموسوعة أن الشكل ذا الأضلاع الستة قد ارتبط باسم سيدنا داود فى القرن السادس الميلادى ، ووجد محفوراً على حجر مقبرة فى مدينة « تارينتو » فى جنوب « إيطاليا » . وفى خلال الفترة من ١٣٠٠ ميلادية إلى ١٧٠٠ ميلادية وجد أن كلاً من درع داود والخاتم السليمانى قد استعملا دون

قيد وبأسلوب غالب فى كتب السحر ، ولكن درع داود كانت له الغلبة والهيمنة وقد استعمل الشكل ذو الأضلاع الستة كعلامة للكتب المنشورة فى « براغ » فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى وفى الكتب التى كانت تنشرها « عائلة فوا » فى ايطاليا وهولندا . وقد أتبع هذه الوسيلة عدد من العائلات اليهودية التى كانت تعيش فى ايطاليا فى خلال الفترة من ١٦٦٠ ميلادية إلى ١٧٧٠ ميلادية .

واستعمل درع داود رسميا منذ القرن السابع عشر الميلادى والقرن الثامن عشر الميلادى عن طريق « مورافيا » و« النمسا » وأخيراً فى جنوب المانيا وفى هولندا . وفى عام ١٣٥٤ ميلادية منح « الملك شارل الرابع » اليهود الذين كانوا يعيشون فى « براغ » علمهم الخاص الذى يسمى فى وثيقة المنح » « علم الملك داود » والذى رسم عليه الشكل ذو الأضلاع الستة (نجمة داود) . ومن ثم أصبح هذا العلم شعاراً رسمياً وقد تم اختبار الشكل ذى الأضلاع الستة لأن الملك داود قديمًا كان قد رسمه على درعه .

ولعل هذا يوضح استعمال هذا الشكل بكثرة فى « براغ » فى العديد من معابد اليهود وفى الخاتم الرسمى لجماعات اليهود وفى الكتب المنشورة وفى غير ذلك من الأغراض . وقد انتشر هذا الرمز « درع داود » فى الجماعات اليهودية الأخرى . ولعل الدافع الرئيسى من وراء ذلك هو الرغبة فى تقليد المسيحيين الذين اتخذوا من الصليب رمزاً لهم .

وفى ضوء انتشار استعمال نجمة داود (درع داود) ذات الأضلاع الستة استعمله الصهيونيون رمزاً لحركتهم . ومنذ العدد الأول من جريدة « هيرتزل » الصهيونية ، أصبح الشعار الرسمى لها ، واصبحت نجمة داود ذات الشكل ذى الأضلاع الستة رمزاً لآمال جديدة ومستقبل جديد للشعب اليهودى .

ومع ذلك فإننا نجد أن نجمة دواد ذات الأضلاع الستة تستعمل كأداة سحرية فى بعض التمائم والأحجبة التى يرى بعض المصريين فى هذا الاستعمال وسيلة لمواجهة مشاكل الحياة . وقد يصنع هذه التمائم والأحجبة المصريون المسلمون ، أو غيرهم ، لبعض أعضاء مجتمعنا المصرى الذين قد حكم عليهم بالضعف والاستسلام ، فأصبحوا مستضعفين مستسلمين !

ولعل بعض المسلمين فى مصر وفى غيرها من بلاد العالم الإسلامى قد استرشدوا وهم واهمون ببعض آيات القرآن الكريم :

« . . . . وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء . . . » (سورة البقرة : آية ٢٥١)

و« داود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين » (سورة الأنبياء : آية ٧٨)

و« ففهمناها سليمان وكلاً أتينا حكمًا وعلمًا وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين » (سورة الأنبياء : آية ٧٩)

و« وورث سليمان داود وقال ياأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين . وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون »

(سورة النمل : آية ١٦ وآية ١٧).

وقد نسى هؤلاء الواهمون أو تناسوا أن العقيدة الإسلامية الخالصة على المستوى

النظرى تنفر من ألوان السحر واتيان الكهان والعرافين والمنجمين بالرمل والحصى أو نحو ذلك وتصديقهم . والتراث الإسلامى النظرى مملوء بالترهيب من كل ذلك . . فالسحر هو تلويث للعقيدة « ومن سحر فقد أشرك » (حديث نبوى عن أبى هريرة راوه النسائى) . و « ليس منا من تطير ، أو تطير له ، أو تكهن ، أو تكهن له ، أو سحر ، أو سحر له ، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ « حديث نبوى عن عمران بن حصين رواه الطبرانى عن ابن عباس دون قوله : ومن اتى إلى آخره) .

ويفسر البعض بأن السحر « عزائم ورقى وعقد يؤثر فى القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه ، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه » :

« فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه »

(سورة البقرة : آية ١٠٢)

و « قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات فى العقد » (سورة الفلق : آيات ١ - ٤)

ومهما يكن من الأمر فإن التراث الإسلامى النظرى يرى أنه ليس بصحيح اعتبار السحر تخييلا لا حقيقة على وجه الإطلاق ، بل منه ما هو تخييل ومنه ماله حقيقه . كما يفهم مما تقدم ، وأن السحر حرام :

« ولا يفلح الساحر حيث أتى » (سورة طه : آية ٦٩)

وقد أكد التراث المسيحى نهيه عن السحر وكل ما يتعلق به :

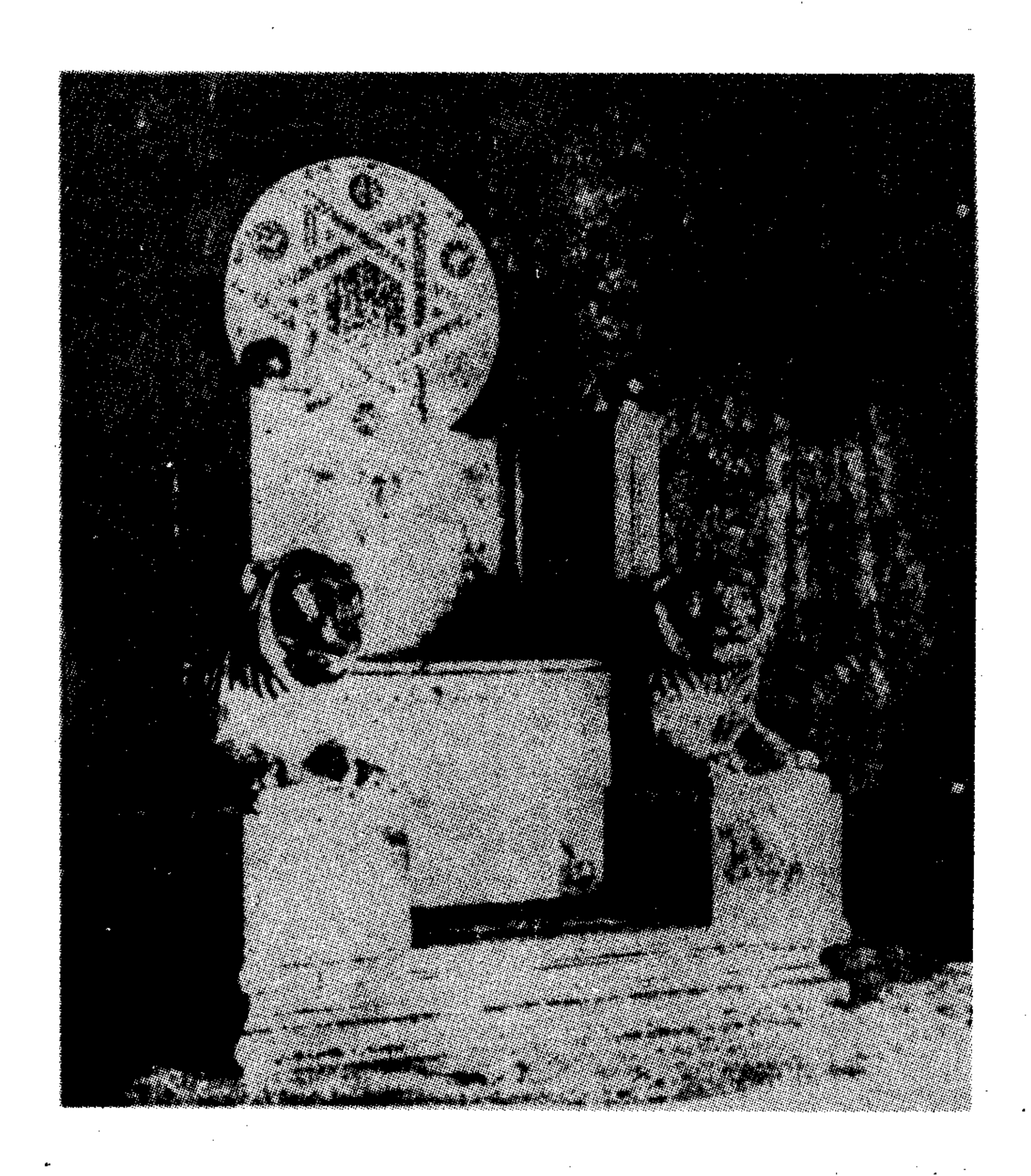
« ولا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته فى النار ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جاناً أو تابعة ولا من يستشير الموتى . لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب . . . » .

(تث ١٨ : ١٠ - ١٢)

ولعل أعداء المصريين إذ ينشرون من كتب وكتيبات تحتوى على أنماط من السحر ، وتدعو إليها ، وإذ تراهم يتجاسرون ويكتبون الأحجبة والتمائم التى تتضمن « نجمة داود » ذات الشكل السداسى الأضلاع أو النجمة ذات الشكل الخماسى الأضلاع . وإذ يفعلون كل ذلك يتخذون من بعض آيات القرآن وبعض فواتح هذه السور فضلاً عن الصلاة والسلام على نبى الإسلام ــ وجاء وستراً ــ لعل هؤلاء الأعداء أرادوا عن وعى غزو عقول المصريين غزوا ثقافيا خارجيا وهم فى عقر ديارهم .



شكل يشبه نجمة سداسية نقشت على حجر مغطى بالنسيج فى معبد يهودى فى « كابر نوم » فى خلال الفترة من القرن الثانى والقرن الثالث الميلادى .



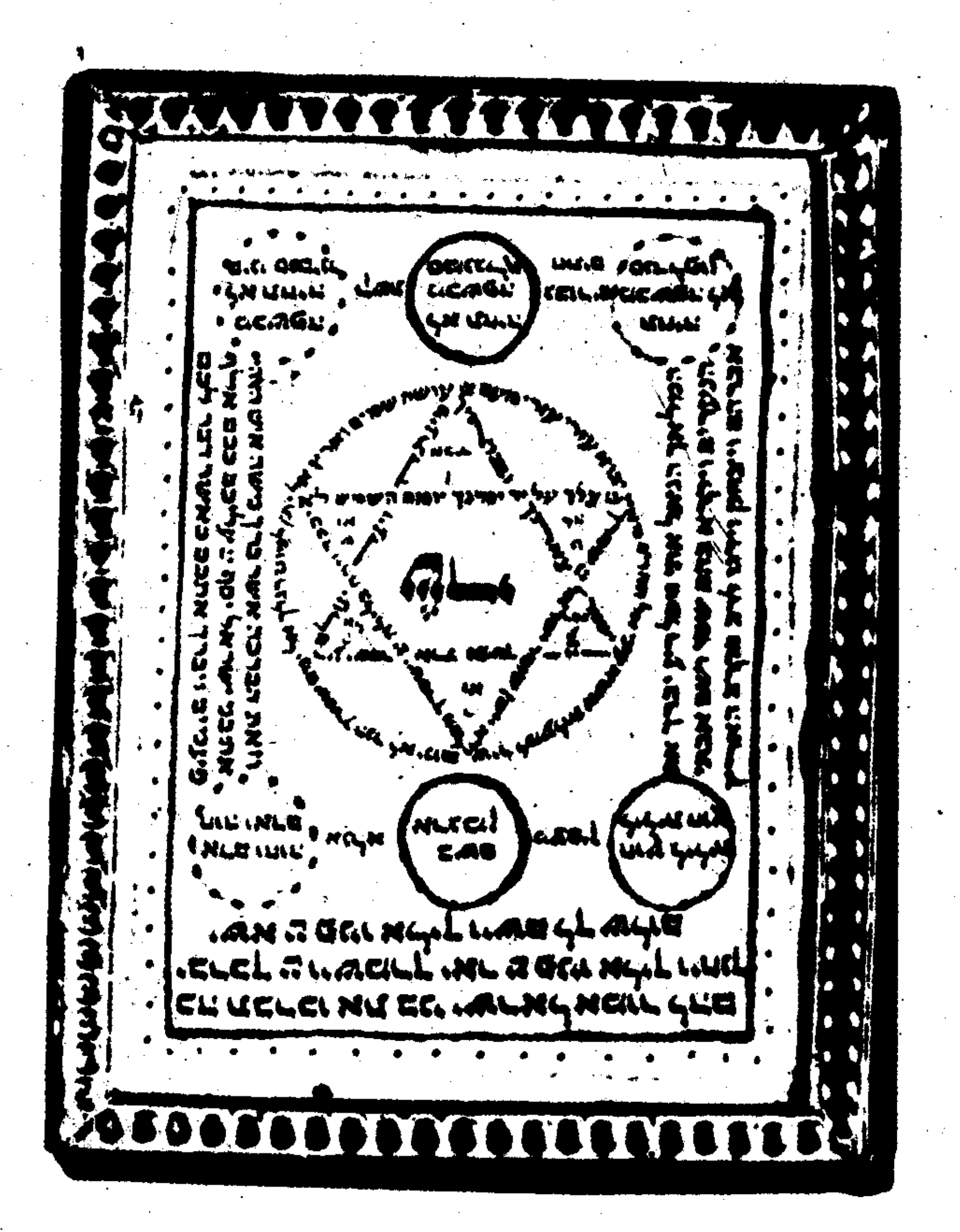
نجمة ذات ستة أضلاع نقشت على لوح مصنوع من المرمر كزخرف لعرش فى كاتدرائيلية « اناجنى » بايطاليا فى خلال الفترة بين القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر الميلادى .



« نجمة داود » استخدمت كعلامة للنشر فى أول كتاب باللغة العبرية نشر فى أوربا الوسطى ، براغ ، فى عام ١٥١٢ م .



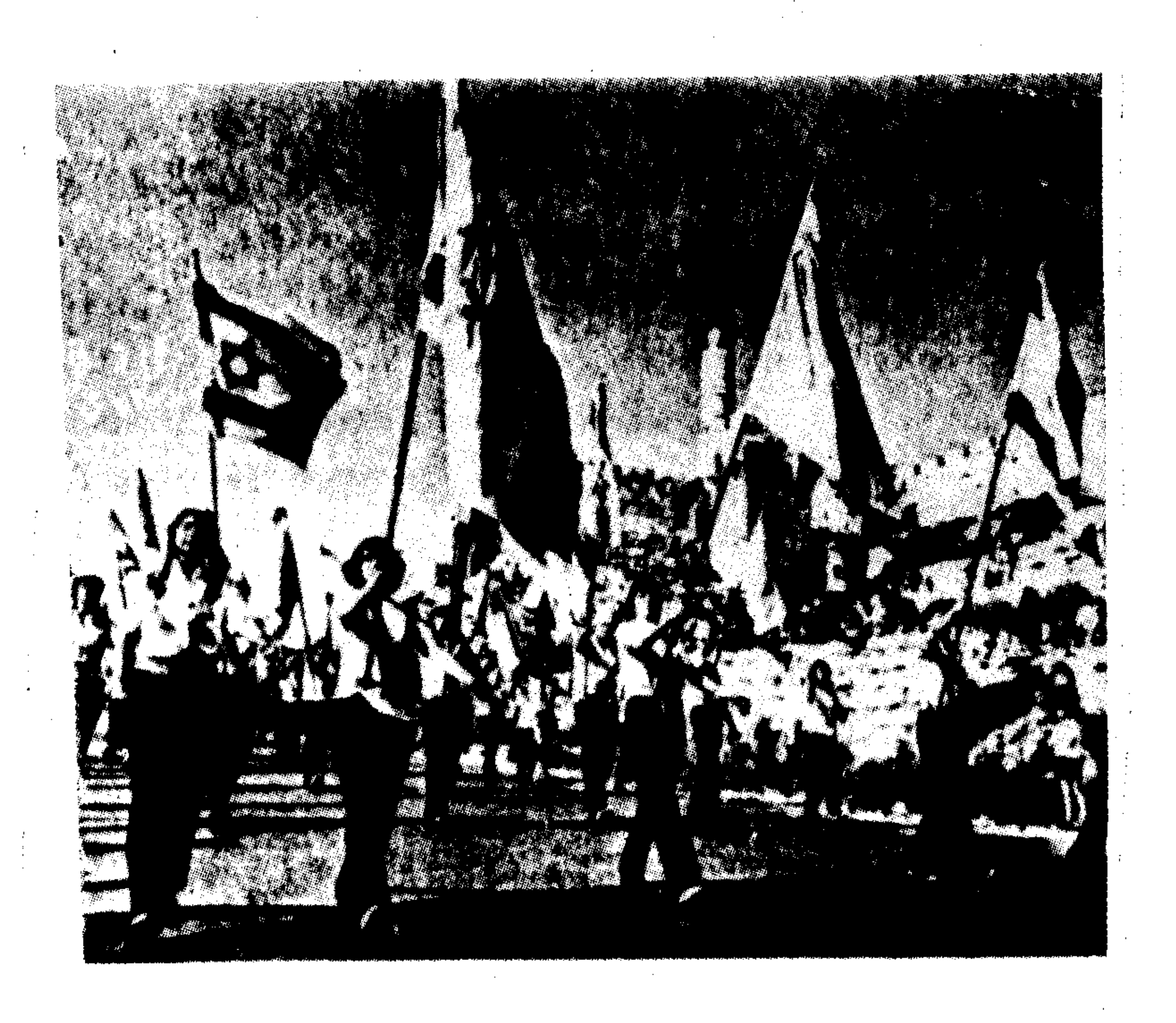
« نجمة داود » استعملت كتصميم أساسى للرسم فى إيطاليا فى خلال القرن السابع عشر الميلادى .



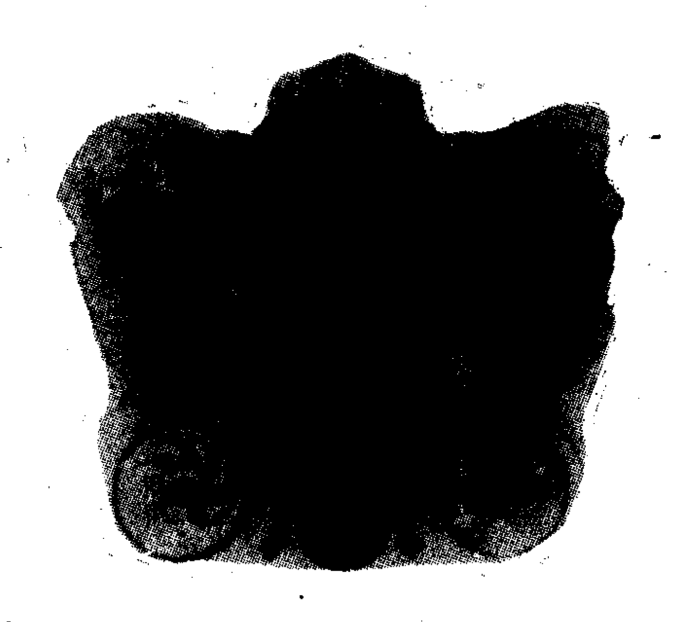
« نجمة داود » استعملت فى تعويذة مكتوب عليها « ترنيمة المصاعد » المزمور ١٢١ لتحمله امرأة فى حالة الوضع (المانيا) .

وتتضمن هذه الترنيمة :

« . . . الرب يحفظك من كل شر يحفظ نفسك . الرب يحفظ خروجك ودخولك من الآن وإلى الدهر » .



علم اسرائيل فى وسطه « نجمة داود » تحمله المجندات الاسرائيليات ،
فى أحد الاستعراضات بمدينة القدس عام ١٩٧٠ .





لعبة للأطفال لم يكتب عليها اسم المصنع أو مكانه اشتريت من مدينة الـرياض بالسعودية . ويلاحظ أن العينين أو مايشبهها مرسوم عليهما « نجمة داود » بشكلها السداسى .

الفصل الثالث

علم النفس الشعبى

١١ ــ حول موضوع حفلات الزار

كنت صبياًفى العاشرة من عمرى وربما قبل ذلك ، أى فى المرحلة التى كان يقول أولاد الحارة ، التى كنت قد ولدت فى أحد منازلها وفى أوقات الفراغ ألعب وأرتع بين جنباتها ، كما كانت تقول بنات هذه الحارة ، الشعار القائل « الصبيان مع الصبيان والبنات مع البنات » . كنت أقول مع صبيان الحارة وكانت تقوله بنات الحارة أيضاً . وكانت عبارة هذا الشعار تخرج من أفواهنا وكأنها « مطلع أغنية » !

كنا نقضى أوقات اللعب فى الحارة ، أقصد نحن الصبيان ، فى لعب « البلى » أوفى لعب « السيجة » أوفى لعب « الكرة الشراب » . وكنا نغنى الأغانى الشائعة فى ذلك الحين أحياناً . وأنا لا أذكر هذه الأغانى وقت كتابة هذه السطور . ولعلى أذكر بعض مقاطعها :

« أرخى الستارة اللى فريحنا »
« أحسن جيرانا تجرحنا »
و« تعالى ياشاطر نروح القناطر »

و « مالك كده سخسختى . . يوه
جتتى مش خالصة النبى ياأختى
ياست زهرة ما تزعليش
جوزك سبع الرجال وغيره مافيش
ياست الكل يازى الفل ! »

أما البنات ، أقصد بنات الحارة ، فقد كن فى معظم الأحيان يغنين وتدق احداهن « الطبلة » . وكنا نراهن من بعيد وهن يرقصن . وإذا ما كانت فى الحارة « حفلة زار » فى أحد المنازل أو فى منزل من المنازل التى فى حارة مجاورة ، كنا نراهن يترنحن ويرقصن على دقات الدفوف التى توجد عادة فى حفلات الزار وتصل إلى آذاننا جميعاً .

كنت فى ذلك الحين لا أعرف عن حفلات الزار إلا ما ذكرت من قبل . ثم فجأة واجهت إحدى هذه الحفلات وجهاً لوجه عندما علمت بأن إحدى خالاتى المتزوجات والتى كانت تعيش مع زوجها وشقيقتيه الست حنيفة والست سكينة ، وكانوا يعيشون جميعاً فى منزل يصفه الناس من حوله أنه « بيت المماليك » .

كانت هذه الخالة مريضة ، كما قيل لها ، وكانت شقيقتا زوجها آنستين ، ولم يتزوجا على الرغم من أنهما تجاوزتا السن التى تعودت الآنسات فى ذلك الحين الزواج فيها . أى أنهما كانتا من العانسات على الرغم مما كانتا عليه من ثراء يتمثل فى ما كانتا تتحليان به من أساور وخواتم وعقود (فقد كانت الواحدة تلبس أكثر من عقد) ذهبية ، كما يتمثل فى المنزل الذى كانتا تعيشان تحت سقفه ، أقصد المنزل ذا الحديقة الغناء والتى كانت ترتع فيها فى خيلاء

الطواويس ذوات الألوان الزاهية المتنوعة . إننى أتذكر كل هذه الأشياء كأننى أراها بالأمس لأنها فى ضوء ظروف حياتى فى ذلك الحين كانت تبهرنى وتخلب لبى .

وكان من الأمور العادية أن تذهب أمى إلى حفلة الزار هذه ، ولكن أبى أبى عليها ذلك ورفض ذهابها رفضاً لا رجعة فيه . لقد كان يرى أن حفلات الزار إن هى إلا خرافات لا يذهب إليها شخص عاقل . وإذا كان أبى رفض ذهاب أمى ، فإنه سمح لى بالذهاب إلى حفلة الزار التى تقيمها أسرة زوج خالتى كبديل لأمى التى يجب أن تكون فى رأى أبى شخصاً عاقلاً وأنا شخص غير عاقل أى غير مدرك . ولعل هذا الرأى ، رأى أبى ، لم يكن صحيحاً . فالصغار إذ يرون ما حولهم ومن حولهم يتأثرون ويؤثرون ما فى ذلك من شك .

وذهبت إلى حفلة الزار ، وشاهدت لأول مرة فى حياتى طقوسها ، واستمعت لضرب الدفوف والأناشيد التى تنشد ورأيت النساء ومعظمهن من قريباتى يرقصن رقصات هستيرية وهن لابسات ملابس غير الملابس العادية ، بعضها شفاف يظهر من أبدانهن ما لايجب ، فى ضوء القيم الدينية ، أن يظهر . ورأيت واحدة منهن تلبس « الطربوش الأحمر » وتحاول أن تبدو وكأنها رجل . ورأيت الواحدة منهن ترقص ثم ترقص ثم تسقط على الأرض « متشنجة » ! وكانت أنواع الأكل من كل نوع ممتدة لمن يحتاج إليها ، وكان من نصيبى أن امتلأت جيوبى بالبندق واللوز وعين الجمل وبعض الحلوى ، وأذكر أننى أكلت لأول مرة أكلة لذيذة جداً قيل لى عنها إنها « أم على » . وقد وزع على الحاضرين رجالاً كانوا أو نساء مشروب قيل عنه إنه « بوظة » . وإننى أذكر أن نفسى عافت شرب المشروب بعد أن ذقت طعمه . وكانت علب السجاير منثورة فى كل مكان لمن يحب أن يدخن . وكان بعض النساء اللاتى يرقصن

يدخن . ورأيت واحدة منهن تطلب ممن حولها أن يضربنها وكأنها تؤدى دور المقهورة . وكنت أعلم فى ضوء خبراتى المحدودة أن النساء المصريات فى ضوء ظروفهن الثقافية الاجتماعية والاقتصادية يعاملهن الرجال معاملة السادة للعبيد !

وفى خارج القاعة التى أقيمت فيها حفلة الزار ، كان الأطفال الذكور منهم والإناث يرقصون كذلك رقصات هستيرية وكأنهم كانوا يقلدون ما يفعله الكبار . وقلت لسيدة كبيرة السن من قريباتى مشيراً إلى صبية « البت دى عليها عفريت » فقالت السيدة :

« شى الله ياأسيادى . ربنا يجعل كلامنا خفيف عليهم »

وإننى إذ أذكر كل ما ذكرت ، أود أن أقول للقارىء الكريم إن هذه الأشياء كانت تحدث منذ أكثر من ستين عاماً . عند الأقارب والغرباء على السواء . والملاحظ أن تكاليف حفلة الزار فى ضوء ما يقدم فيها . تكاليف كما بدت لى وأنا صغير باهظة . وكنت أسمع أن فلانة قد طلبت من زوجها إقامة حفلة زار لكى ينفق ما معه من نقود ويستدين حتى لا يتزوج من غيرها . أى أنه مادامت لديه نقود ، فإن الاحتمال لكى يتزوج من أخرى كان كبيراً .

واستمرت حفلات الزار فى الحى الذى كنت أعيش فيه ، وبمرور الوقت خفت دقات دفوفها ، وتوهمت أنها قد انقرضت وذهبت إلى غير رجعة . وكنت أعمل فى إحدى المؤسسات التى تربى الأطفال الذكور ، أوكما يسمون حتى الآن « بالأحداث الجانحين » ، أو تحاول إعادة تربيتهم ــ فوجئت بأن أم أحد هؤلاء الأحداث قد تزوجت من رجل « عليه أسياد » أى أنه مريض إلى الدرجة

التى لابد له من أن يرقص رقصات هستيرية فى حفلة الزار .

وكانت المفاجأة أكبر عندما أبلغنى الحدث أن هذا الزوج يقيم فى منزله حفلات زار أسبوعية بمساعدة زوجته أى أم الحدث . وكان منزل هذه الأسرة يقع فى حى « باب البحر » بالقرب من باب الحديد بالقاهرة . وذهبت فى اليوم المحدد ، لأرى بعينى رأسى ما يحدث . ورأيت العجب العجاب ، ورأيت الرجال والنساء يرقصون على دقات الدفوف . وكانت أم الحدث أقرب من أن تكـون « كودية » ، وأقصد بهذا اللقب « شيخة الزار » أى السيدة التى تقود الأناشيد المصاحبة لكل « دقة » ، وهى التى تبدأ الحفل والتى تنهيه .

وعلمت بأنـه كلما كثر عدد الحاضرين كلما زادت النقود التى تدخل فى جيبها أو فى جيب زوجها . وحجة كل منهما أن الحفل يحتاج إلى أشياء كالبخور مثلاً كما يحتاج إلى « صيانة » الدفوف ، فضلاً عن الجهود الإنسانية التى تبذلها الشيخة والذين يعملون معها من الأعوان سواء كانوا من الرجال أو من النساء !

والملاحظ أننى سمعت لقب « الكودية » هذا من قبل ولكنى لم أفقه له معنى . سمعته وكنت صغير السن . ولاحظت أنه لقب يبث فى نفوس الناس وبخـاصة من كان عليهن « أسياد » الرهبة والاحترام . فأنا منذ ولادتى كان يطلق البخور عادة من حولى ، وكانت من تفعل ذلك « كودية » وهى سيدة سودانية . كانت تأتى إلى منـزل الأسرة وكنت أذهب إلى بيتهـا حيث رائحة البخور لا تنقطع . وعندما حضرت حفلة الزار التى أقيمت لخالتى سمعت أشياء كثيرة عما حدث ولم أره . سمعت عن الفراخ والديوك وعن الملابس التى يجب أن تلبسها خالتى وشقيقتا زوجها والتى رأيت بعضها . وهى كما قيل لى بعد ذلك ملابس « الأسياد » . وكانت الأناشيد تنشد ولم يعلق فى ذاكرتى فى ذلك الحين شىء منها . ولكنى عندما زرت أم الحدث الذى كان فى المؤسسة

التى كنت أعمل بها ، فإننى حرصت على تلقينى بعض الأناشيد ، وكان منها كما أذكر الآن :

« فاتحة الكتاب والصلاة عليه ، صلوا عليه النبى العربى ، صلوا عليه .
ماما الهدى ، آه ياماما ، بدر التمام يامحمد ، نصبوا الكراسى لماما ، بر السماح لماما ، بر الهدى ياماما ، صاحب العوايد ماما ، صاحب الدبايح ماما ، نصبوا الميدان ياماما ، آه يازهر الورد ياماما . . . . إلخ » .

و « سلام على أم غلام ، يامرحبة يأم غلام ، سلام على أم غلام ، يامرحبة بأم غلام ، ردوا السلام على أم غلام ، يابنت ماما يأم غلام ، يأم الغلام والعفو منك ، يأم الغلام بينى برهانك ، يأم الغلام واشفى عيانك ، يأم الغلام والطبل طبلك ، يأم الغلام والليلة ليلتك » .

حدث ذلك فى النصف الأول من عقد الأربعينيات ، ومرت الأيام تجرى إلى غير مستقر لها ، وجندت لأعمال فى ميدان البحث العلمى الاجتماعى فى عام ١٩٥٦ ، وبعد فترة قصيرة سرت بين الأعضاء العلميين الذين كانوا يعملون معى فى هذا الميدان إنهم يرغبون فى مشاهدة حفلة زار .

كان معظم هؤلاء لم ينشّأوا فى حوارى مدينة القاهرة ، كانوا يعيشون فى منازل تقع فى « جاردن سيتى » أوفى « الزمالك » أوفى « مصر الجديدة » (هليوبوليس) وهى الأحياء الراقية فى ذلك العهد . وذهبنا لنرى هذه الحفلة

فى حى الطيبى بالسيدة زينب . ولم أكن أشاهد ما كان يجرى فى الحفلة ولكن كان همى أن أرى ما ارتسم على وجوه « الذوات » . وكثر القيل والقال وتجاسروا فلم يكتفوا بالحديث عن انطباعاتهم بل تحدثوا عن آرائهم كذلك . وكان معظم هذه الآراء إذ كنت أسمعها وكأنه يأتى من عل .

لقد كان الهدف من زيارة الحفلة ومشاهدة ما فيها ومن فيها أن ينزل هؤلاء الزميلات والزملاء من عرش الأوهام الذى كانوا يتربعون عليه إلى الواقع الحى الذى يعيش فيه بعض أعضاء مجتمعنا . ولكننى أعتقد فى ضوء خبراتى مع هؤلاء أنّ هذا الهدف لم يتحقق !

وفى أوائل عقد الستينيات ، وبالتحديد فى عام ١٩٦٣ ، كنت أهتم بموضوع « الصدقات والنذور » . وكان هذا الموضوع موضوعاً لدراسة أشرفت عليها وقامت بإجرائها الزميلة فريدة أحمد لتقديمها تكملة لدراساتها التى ألقيت فى المحاضرات لنيل درجة البكالوريوس فى الخدمة الاجتماعية .

وللمرة الأولى عرفت موضوعياً تقسيم بعض أعضاء مجتمعنا لبعض أضرحة أولياء الله إلى مناطق نفوذ لكل منطقة بعض الاختصاصات . وتصل هذه الاختصاصات بنواحى الحياة المختلفة . وكانت أوسع هذه الاختصاصات انتشاراً الناحية الطبية التى تتفرع منها عدة فروع . . منها :

- أن نجد المرأة المصابة بالعقم مثلاً تتردد على ضريح « الشيخ المغاورى » تتمرغ على الأرض حول الضريح لتشفى من عقمها ، وتعتبر هذه العملية خدمة مباشرة يؤجر عليها الشيخ الذى يعمل بضريح الولى والذى يقوم فى نفس الوقت بتعديد مآثر هذا الولى فى الشفاء من العقم ، وإنجاب الذرية الصالحة . ولا يسمح لأية امرأة بالحصول على هذه الخدمة ما لم تنفح الشيخ المذكور « ما فيه القسمة » ، وبعد ذلك تنذر نذراً توفيه إذا ما تم الحمل !

ـ أن نجد « الشيخ أبو السعود » له « عيادة » مفتوحة كل يوم ثلاثاء . وهى عبارة عن عدة فرق للزار تحتكر مكاناً حول الضريح باسم علاج النساء اللاتى عليهن « عفاريت » أو « أسياد » . وما على المرأة التى ترغب فى العلاج إلا أن تدفع « ما فيه القسمة » لشيخة الزار (الكودية) بشرط أن لا يقل ما فيه القسمة هذا عن مبلغ معين ! وتقوم هذه الشيخة بتبخير المرأة (المريضة) استعداداً للترنح فى « الدقة » التى يفضلها « العفريت » الذى عليها ، والذى سبب لها المرض بطريقة أو أخرى ، والذى يشفيها من مرضها حين تترنح فى دقته المفضلة .

وقد لاحظت الزميلة الباحثة أن الدقة فى الزار عبارة عن نغمات موسيقية تشترك فيها الآلات الوترية وآلات النفخ والإيقاع والصاجات ، وأن كل دقة لها لحن مميز ، وهى عادة نغمات موسيقية عنيفة ذات إيقاع راقص أقربها تكون إلى موسيقى « الجاز » . والملاحظ أن النغمات تختلف حسن جنسيات الأسياد فهذه يرضاها سودانى وأخريات يرضاها مغربى أو مصرى أو جركسى . . . وهكذا .

ولا تنسى المرأة أن تنذر نذراً لأبى السعود توفيه فى حالة شفائها من المرض ! وقد ذكرت الزميلة الباحثة أضرحة أولياء آخرين ذوى اختصاصات أخرى ، ومن هؤلاء الأولياء « الشيخ الشعرانى » وتخصصه علاج الأمراض النفسية والعصبية وضيق النفس والزهقان ! و« الشيخ ريحان » الذى يختص بالأطفال الذين انكفأوا فى عتبة فى وقت الصلاة فآذتهم العفاريت الذين يسكنون الأرض ! ، و« الشيخ يحيى » الذى تتضمن منطقة اختصاصه الخلافات والمشاكل الزوجية . فهو يعالج حالات الهجر أو تزوج الزوج من أخرى . . . إلخ .

والملاحظ أننى فى ضوء تنشئتى الاجتماعية فى حى الخليفة كنت أسمع عن « الشيخ أبو السعود » ولكنى فى ضوء الحقائق التى أوردتها الزميلة الباحثة كنت اتلقاها لأول مرة بالتفصيل .

ومرت الستينيات وبدأت السبعينيات ، ولم أسمع دفوف الزار فى أحياء القاهرة . ولكنى فوجئت للمرة الثانية أو ربما للمرة الثالثة بوجودها فى منطقة الأهرامات بالجيزة فى مكان قريب من هذه المنطقة يسميه المواطنون « سيدى حمد » ، وعلمت أن هذا الولى يلقب « بالسمان » وتنسب إليه نزلة السمان ، وهو حى معروف حيث يسكن فيه المرشدون السياحيون فى الأغلب الأعم ، فضلاً عن أصحاب الجمال أو الخيل أو الحمير أو العربات التى يعشق ركوبها بأجر الوافدون إلى منطقة الأهرامات من المواطنين أو من الأجانب على السواء .

وقد تعودت على أن أذهب إلى منطقة الأهرامات كل يوم جمعة فى فصل الربيع . وفى يوم من أيام الجمع التى تصادف وجودى فى المنطقة وجدت « طابوراً » من النساء ومعهن أطفالهن يسرن جماعات . وعند ما سألت من هن هؤلاء النساء ولماذا كن يمشين سوياً وما هو المكان المقصود ؟ قيل لى أنهن ذاهبات إلى « سيدى حمد » حيث تعقد حفلات الزار أسبوعياً كل يوم جمعة .

ودفعنى حب الاستطلاع وذهبت إلى المكان حيث تعقد فيه حفلات الزار ، وكنت وحدى ، وسمعت دقات الدفوف وموسيقى الآلات الوترية وآلات النفخ والإيقاع والصاجات من بعيد ، وكلما قربت من المكان كانت أصواتها صاخبة . ووجدت أن المكان منقسم إلى قسمين : قسم للنساء وآخر للرجال والشبان . أى أن بعض حفلات الزار مخصص للنساء والآخر مخصص للرجال . وكل العملاء سواء كانوا نساء أو رجالاً ممن عليهم « أسياد » .

وسمعت دقات الدفوف وغيرها من الآلات ، كما سمعت أناشيد حفلات الزار التى تصحبها عادة حسب كل دقة على حدة . ووجدت الأطفال من حول المكان جالسين أو يترنحون راقصين ! ولم أجرؤ على دخول قسم النساء أو قسم الرجال فقد كان « البخور » يملأ كل منهما . ولكنى رأيت من بعيد النساء يرقصن على دقات الدفوف كما رأيت الرجال يفعلون نفس الفعل . ووجدت من خارج المبنى الذى يوجد فيه ضريح الولى « سيدى حمد السمان » ، والذى تقام فيه حفلات الزار ، مقاهى على شاكلة « الغرز » يجلس على الأرض حولها عدد من الرجال الذين كانوا يشربون الشاى أو يدخنون « الجوزة » ، كما وجدت منضدة مرصوصاً عليها أدوات من لعب الأطفال و « طراطير » مصنوعة من الورق وكلها للبيع لمن يشترى لطفله أو لطفلته ! .

ورأيت بعض النساء يفترشن الحصير ، ويجلسن عليها يستمعن لموسيقى الدقات ، ثم ما تلبث إحداهن قائمة تترنح ثم ترقص على الدقة التى تناسب ما عليها من « أسياد » . ويفعل الرجال نفس ما تفعله النساء . تماماً كما رأيت وسمعت أناشيد الحفلات التى كانت تقيمها أم الحدث الذى كان أحد نزلاء المؤسسة التى كنت أديرها من قبل . ولم أتصل « بالكودية » أقصد شيخة الزار أو شيخ الزار فى هذه الحالة ، فأنا غريب فلم أجرؤ على فعل ذلك . واكتفيت بما رأيت وسمعت . ومشيت راجعاً من حيث أتيت وكانت الدهشة تملأ علىّ كيانى . فقد كان ذهابى إلى هذا المكان فى منتصف السبعينيات ! وكنت أظن ، وظنى هذا كان خطأ ، أن حفلات الزار قد انتهى العهد بها وبخاصة فى المناطق الحضرية التى أعرفها . ولكنى وجدتها فى منطقة السياح الأجانب الذين يفدون إلى بلادنا من مشارق الأرض ومغاربها ليتمتعوا بالتفرج على آثارها ولينعموا بشمسها ومناخها ، ولعل بعضهم يهدف إلى التعرف على أمور أخرى منها حفلات الزار هذه مثلاً .

ومر عقد من الزمان وهأنذا أجد نفسى فى نفس المكان لكى أعرف أكثر ، وصحبتنى سيدة فى هذه المرة لتجلس بين النساء اللاتى يحطن بضريح « سيدى حمد السمان » طلباً لرضاه وداعيات لشفاء مرضاهن من النساء والرجال والشباب . وفى هذه المرة لم أسمع سوى صوت الدفوف والأناشيد التى تنشد ، واختفت موسيقى الآلات الوترية وآلات النفخ والإيقاع والصاجات . وكانت لدى الشجاعة لأجلس بين الرجال ، وشاهدت « الكودية » أقصد شيخ الزار يحادث أحد الراقصين بعد الانتهاء من الدقة . وكان مضمون حديثة غير واضح لى . ولكنه كان وكأنه يتحدث إلى « انثى » وسمعته يخاطبها راجياً مرة ومرغباً أخرى ومهدداً ثالثة . وكان رد الشاب على بعض أحاديث هذا الشيخ أن يومىء برأسه موافقاً . لم أسمع صوتاً يخرج من فيه ، لا صوت ذكر ولا صوت أنثى .

وجذب شيخ الزار يتؤده يده التى كان قد وضعها فى يد المريض وكأنه يعاهده أو كأنه يعاهد مخلوقاً لا أراه ، ثم قام مبتسماً ! وقال لمن كانوا معه « يوم الخميس لأزم يحضر المولد » وهو يقصد مولد « الشيخ حمد السمان » ثم أعلن هذا الموعد بصوت مرتفع قائلاً : « يوم الخميس المولد والحاضر يعلم الغائب وكلكم لازم تحضروا » أعلن ذلك للرجال والشباب الموجودين فى القسم المعد لهم ، ثم ذهب وأعلن نفس الإعلان للنساء والشابات فى القسم المعد لهن .

ووجدت السيدة التى كانت تصحبنى قد علا وجهها الدهشة لأن مكان الزار الذى تقام فيه حفلات مبنى من المبانى الفرعونية التى تقع بجوار هرم « خفرع » وهذه المبانى هى فى حقيقة الأمر آثار تشرف عليه الدولة . ووجدت بعض النساء الحاضرات يحرضن السيدة التى كانت تصحبنى على الدخول فى إحدى الغرف المبنية بالصخور . وكان الضوء فيها ضئيلاً ، ومن ثم لاحظت أنها لم تر شيئاً فى أول الأمر . ويبدو أنها كانت متأثرة ، ولاتزال ، من الضوء

الذى كان يملأ الطريق الذى يؤدى إلى ضريح « سيدى حمد » ، فقد كان ضوءا ساطعاً . ولاحظت معى دقة الزار ورأت الشاب المريض وهو يترنح ويتحرك حركـات هستـيرية . ويـدت وكـأنها تريد أن تجلس ولكن ما لبث بعض الحاضرات أن قد نها نحو « طرقة » مظلمة وضيقة فيها أناس من الجنسين ، يبدو وكأنهم يحاولون أن يجدوا طريقهم إلى ضريح « سيدى حمد السمان » فى الداخل .

وكـان الظلام دامساً فقد ذكرت لى أنها لم تر شيئاً . ولكنها أحست بأن « أرضية » المكان كانت غير ممهدة . وسارت فى صحبة جمع من النساء والرجال مسافة طويلة يبلغ طولها حوالى عشرة أمتار ، كما ذكرت لى . ثم وجدت نفسها أمام « منحدر » شبه عمودى وفضلت أن تعود حيث أكون فى الحجرة التى تقام فيهـا دقة الزار . ولكنها اضطرت إلى النزول بعد أن حمل « جسمها » بعض الحاضرين . وفجأة وجدت نفسها أمام الضريح الذى كان فى حجرة تغمرها أنـوار الشمـوع . وذكـرت لى بعد ذلك أنها تبادلت مع من حولها الدعوات الطيبات فضلاً عن اضطرارها إلى تقديم الشكر لهم تعبيراً عن امتنانهم باتاحة الفـرصة للحصول على بركة « الشيخ حمد السمان » . وعادت مثل ما ذهبت حيث كنت أنصت للكودية وهو يتحدث مع الشاب المريض ممسكاً بيده وكأنه يعاهده أو كأنه يعاهد مخلوقاً لا أراه !

وكنت فى خلال عام ١٩٧٠ قد قرأت مقـالاً عن ظاهرة الزار فى إحدى المجلات الأسبوعية . وتضمن هذا المقال آراء متباينة ، منها من يعدها خرافة من الخرافات التى تجب إبادتها . فهى لم تكن ، ولاتزال ، مصرية الأصل . أى أنها وافدة من خارج مصر من الحبشة والسودان . وأنه من المعلوم أن علماء الحملة الفرنسية الذين صحبوا نابليون وكتبوا كتابهم المعروف « وصف مصر »

قد ذكروا كل شيء ولم يذكروا عن حفلات الزار شيئا . وفعل نفس ما فعل هؤلاء العلماء المستشرق المعروف « ادوارد وليم لين » . لقد ذكر كما ذكر السابقون الكثير عن « الذكر » ولكن لم يذكر ، كما لم يذكر السابقون ، شيئاً عن حفلات الزار . ولعل كتابه الذى نشر فى عام ١٨٣٥ وسماه « المصريون المحدثون : شمائلهم وعاداتهم » يكون شاهداً على ما أقول .

وفى ضوء حقائق التاريخ نجد أن « إدوارد وليم لين » قد زار مصر ثلاث مرات . وكانت الزيارة الأولى فى خلال الفترة من عام ١٨٢٥ حتى عام ١٨٢٨ . أما الزيارة الثانية فقد كانت فى خلال الفترة من عام ١٨٣٣ حتى عام ١٨٣٥ . وكانت فترة الزيارة الثالثة فى خلال عام ١٨٤٢ حتى عام ١٨٤٤ . أى أن الزيارات الثلاث كلها حدثت فى خلال حكم « محمد على » (١٨٠٥ - ١٨٤٩) . فهل المقولة الخاصة بوفود حفلات الزار من خارج مصر مقولة صحيحة ؟ وأقصد من خارج مصر أى من الحبشة والسودان وذلك بعد أن فتح « محمد على » السودان فى عام ١٨٢٠ وجلب العديد من أبنائه وبناته ليكونوا عبيداً يعملون فى بيوتات المصريين « الذوات » ! وبعد أن عزز جيشه من أبنائه الذكور ليكونوا جنوداً يحارب بهم من أجل أطماعه التوسعية .

والأسئلة التى تطرح نفسها على الدارس هى :

هل خفيت إقامة حفلات الزار عن « لين » فلم يسجلها فى كتابه المشار إليه ؟ أو أنه اعتبرها رقصات شعبية مثلها مثل الذكر الذى كتب عنه وأفاض ؟ أو أنها كانت وما تزال تحاول أن تجد مكانها أو مكانتها فى محيط العناصر الثقافية للمجتمع المصرى فى ذلك الحين ؟

ومهما يكن من الأمر فإن حفلات الزار كما نراها فى الوقت الحاضر قد قبلها

المصريون وأصبحت جزءا من تراثهم الثقافى الاجتماعى . والسؤال الذى تجب الإجابة عنه هو : لماذا قبل المجتمع المصرى حفلات الزار وفيها من الأساطير ومن الطقوس مافيها ؟

وسأحاول الإجابة عن هذا السؤال ، وأرجو من القارىء أن يتسامح معى إذا كنت سأرجىء هذه الإجابة حتى نتأكد مما إذا كانت حفلات الزار هى مجرد خرافة ، أو أن لها وظائف ثقافية اجتماعية وطبية نفسية ، إذ نجد فى التراث العلمى أن علماء الانثروبولوجيا والنفس الاجتماعى والطب النفسى لهم آراء فى هذا الموضوع . فنجد أن البعض من هؤلاء يقول إن حفلات الزار تتيح للمرأة المصرية الشعور بالأهمية . إذ تعالج « مركب الاثم » الذى عادة ما يتسلط عليها . ويؤكد ذلك أن أعضاء العائلة التى تنتمى إليها المرأة التى تكون عليها « أسياد » وتحتاج من أجل ذلك إلى إقامة حفلة زار ، يهتمون جميعهم بالأمر . ونراهم يسهمون بطريقة أو بأخرى . فى إعداد هذه الحفلة . ومن ثم نراها ــ أى هذه المرأة ــ ترضى نفسياً عن هذا الاهتمام الجارف . وتكون نتيجة ذلك إعادة التوازن النفسى إليها .

وفضلاً عن ذلك فإننا نلاحظ أن ظروف الحياة وبخاصة فى محيط النساء المصريات ظروف كلها قلق مرضى وتوترات ، ولعل الجهد العضلى المبذول فى رقصات الزار والأناشيد التى تنشد فى حفلاته ودق الدفوف وغيرها يساعد على التنفيس عن هذه التوترات وتزيلها . والملاحظ كما يقول هذا البعض أن معظم المريضات من النساء بمرض « الهستيريا » قد يتوهمن وجود بعض الأمراض لعوامل نفسية وعصبية ، فإذا آمنّ بأن عوامل وجودها ما عليهم من « الأسياد » وأن إقامة حفلات الزار هى لإرضاء هؤلاء « الأسياد » فإننا نتوقع فى معظم الحالات الشفاء .

ويرى بعض الأطباء النفسيين أن حفلات الزار لا تختلف كثيرا عن الأسلوب الذى يستعمله بعض مستشفيات الأمراض العصبية . ويقصد بهذا الأسلوب ما يعرف تحت اسم « السيكودراما » . ومع التسليم بأن إقامة حفلات الزار كما نعرفها إن هى إلا خرافة ، فإن هذا البعض يتهم الأطباء النفسيين بعجزهم عن شفاء مرضاهم ، ومن ثم فإنهم يتركون الأطباء ويذهبون إلى « الكوديات » ! أى أن هؤلاء المرضى هم مجرد ضحايا للمجتمع الذى يضم بين أعضائه هؤلاء الأطباء العاجزين !

ومن الصدف التى قذفت بها فى طريقى الحياة ، أننى وجدت نفسى مع تسعة آخرين نتعاطى الدراسات العليا فى جامعة بوستن فى خلال العام الدراسى ١٩٥٤ / ١٩٥٥ ، وكنا جميعاً من الذكور ، ندرس « مادة العلاج الجماعى » فى « مستشفى بوستن السيكوباتى » . أى فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى لمجتمع « الولايات المتحدة الأمريكية » ، أقصد مجتمع ولاية « ماساتشوست » . وقد مارست مشاهدة أسلوب « السيكودراما » كما كان يمارس فى هذا المستشفى ، بل كان من حظى أن كان لى دور فى إحدى الحفلات التى استعمل فيها هذا الأسلوب . اختارنى أحد المرضى لأمثل دور الأب (كنت فى الثانية والأربعين من عمرى فى ذلك الحين) ولكنى فى ضوء تجاربى السابقة لم أجد أسلوب السيكودراما مماثلاً لحفلة من حفلات الزار . فلم يكن هناك أحد يطلق البخور أو يدق الدفوف مثلاً . ولكنها كانت تجربة أضيفت إلى غيرها .

والملاحظ أن الذين يذهبون إلى حفلات الزار لا يكونون بالضرورة مرضى بأمراض عقلية أو عصبية أو يعانون من التوترات أو القلق ولكننا نجد النساء منهم يذهبن إلى هذه الحفلات أو تقام لهن الحفلات للشفاء من العقم ، أو من

الإجهاض المتكرر ، أو من أمراض المعدة ، أو من أمراض النزيف . ومهما يكن من الأمر فإنه سواء كانت الأمراض عقلية أو نفسية أو مجرد طبية فإن الثقة التى تحظى بها « الكودية » من عملائها وعميلاتها ثقة لا حد لها . وذلك لأن هؤلاء وأولئك قد جربوا فى حدود ثقافتهم ومستواهم المالى الأطباء فلم يجدوا علاجاً ، فاختاروا « الكودية » دليلاً ومرشداً .

وأرجو أن يتفضل القارىء بملاحظة قولى « عملائها وعميلاتها » ولم أقل كل الرجال أو كل النساء ، فالمعروف الآن أن المستشفيات تستقبل من أعضاء الشعب المصرى المعاصر الكثير صباح مساء . ولعل اليأس من التردد على أطباء هذه المستشفيات دون نتيجة ترضى بعض أعضاء المجتمع أن يدفعهم إلى خلع الثقة على « الكوديات » . والدليل على هذه النتيجة تقلص عدد حفلات الزار عما كان عليه من قبل . ولعل بقاء هذه الحفلات يلفت النظر إلى السؤال الذى ارجأت الإجابة عنه وهو :

« لماذا قبل المجتمع المصرى حفلات الزار وفيها من الأساطير ومن الطقوس ما فيها ؟ » .

فالمعروف أنّ مفهوم الزار ليس مفهوماً عربياً أو حتى مفهوماً مصرياً قديمًا أو قبطياً . إن هذا المفهوم هو أحد ألفاظ اللغة « الأمهرية الحبشية » . والمعلوم أن هذه اللغة تنتمى إلى اللغات السامية . ونحن نجد فى ضوء حقائق التاريخ المصرى القديم أن التوسع الفرعونى وصل إلى بلاد النوبة فى خلال القرن الخامس عشر وقبله حتّى عام ١٥٠٠ ق . م ، وأن الحملات التجارية التى أرسلتها المكلة « حتشبسوت » (١٤٨٦ - ١٤٦٨ ق . م) بطريق البحر إلى بلاد « بونت » (أرض البخور) التى كانت تقع إلى جنوبى مصر ، والتى كانت تشمل كلاً من بلاد الصومال ، وبلاد العربية السعيدة (اليمن) .

والمعلوم أن التجارة إذ تنقل البضائع جيئة وذهابا فهى تنقل بعض العناصر الثقافية المادية منها وغير المادية . وفضلاً عن ذلك فإننا نجد فى ضوء حقائق التاريخ أن اسم « شيكا » ذلك الفرعون الأثيوبى الذى حكم مصر فى خلال القرن الثامن قبل الميلاد ، منقوش على حجر ضمن نقوش أخرى كما ذكر « جيمس هنرى برستد » فى كتابه « فجر الضمير » ، حيث تتضمن فقرات النقوش : أن جلالته (يعنى الفرعون شيكا) نقل هذه الكتابات من جديد فى بيت والده « بتاح » جنوبى جداره ، وقد وجدها جلالته بمثابة عمل خلفه الأجداد قد أكله الدود حتى أصبح لا يمكن قراءته من البداية للنهاية ، وإذ ذاك قام جلالته بكتابته من جديد حتى أصبح أكثر جمالاً مما كان عليه من قبل . أى أن الملك الذى كان يحكم مصر فى القرن الثامن قبل الميلاد كان أثيوبياً .

وقد اهتم هذا الملك بالمحافظة على الكتابة القديمة التى خلفها « الأجداد » . وكان حرص هذا الملك الأثيوبى على الكتابة القديمة حرصاً شديداً ، فقد نسخت النسخة الجديدة على الحجر لتبقى على الدوام . ومن ثم بقيت حتى يومنا هذا أقدم مسرحية فى العالم ، كما بقى أول بحث فلسفى وصل إلينا من العالم القديم . ويوجد هذا الحجر فى الوقت الراهن قابعاً فى المتحف البريطانى ! وتعرف هذه المسرحية « بالمسرحية المنفية » (نسبة إلى مدينة منف) .

ويؤكد الأستاذ « أرمان » عالم الآثار المصرية القديمة أن المدون على الحجر المذكور هو مسرحية قديمة . ويرى « زيته » عالم الآثار المصرية القديمة أنه من الضرورى :

« أن نفهم أن أحد رجال الدين المشهورين أو كاهناً

مرتـلا كان يلقى جزءا كبـيرا من الرواية التمثيلية فى شكـل خطبة مطولة ، يظهر الألهة المقصودون خلال إلقائها عند قص حادثة فى الأسطورة فيلقون أقوالهم فى شكل محاورة ، وذلك هو السبب الذى من أجله نجد المحـاورات التى كان يقـوم بالقائها الألهة المختلفون الذين ساهموا فى التمثيل منتشرة بين أجزاء المسرحية ، بشكل جعل أمثال هذه المحاورات أيضاً تمثيلية فى شكلها » .

وإذا كانت « منف دراما » أو « المسرحية المنفية » أقدم مسرحية فى العالم ، فإنها وغـيرهـا مما عرف فيها بعـد كما يقـول الأستاذ الدكتور « عبد المحسن الخشاب » فى كتابه المعروف « التياترو القديم » « تمثل الأدب المسرحى الدينى فى مصر الفرعونية ، الذى كان له مجال عرض حركى دينى يقوم به ، كما نعرف من النقوش والنصوص رجال الدين ومن فى حكمهم من العابدين دون مناظر ولانظارة أو مشاهدين يتابعون الأحداث المسرحية ، والصراع من أجل الخير أو من أجـل هدف سياسى يرمز إليه بالصراع بين الألهة . أى أن النصوص الأدبية الدينية القديمة هى من قبيل الطقوس التى تكمن فيها نواة لقيام المسرح فى طوره البدائى الدينى » !

وإذا كانت الطقوس لا تتطلب بطبيعتها إلا وجود القائمين بها أو المشتركين فيهـا فإن الدكتور الخشاب يرى أنه لا داعى لوجود أماكن للمشاهدين وإن اعـترف بأنـه ابتـداء من الأمـبراطـورية الثـانية فى طيبـة (٢١٦٠ - ١٧١٠ ق . م) ، ظهرت فى أبنية المعابد أماكن المشاهدين « عبارة عن مكعبات من الـطوب على خوافهـا أفـريز ومن رصيفهـا يمكن الـدخـول إليهـا بطرقـات

منحـدرة . . . وقـد ظهـرت هذه الأماكن فى « الكرنك » ثم « مدينة هابو » و « ميدا مود » ثم انتشر استعمالها فى داخل الأماكن المقدسة . . » .

والملاحظ أننا إذا حللنا الأغانى والأناشيد فى حفلات الزار نجدها تتضمن اسم الله ، واسماء بعض الأنبياء ، وأسماء بعض القديسين والأولياء ، وحتى أسماء العديد من الجن والعفاريت (الأسياد) . ولعل هذه الأسماء الأخيرة أن تكون بيت القصيد ! والمعروف أن المصريين القدماء قد خلفوا « كشكولاً » من الجن والعفـاريت . ويؤكـد ذلـك ما نجـده فى « كتـاب المـوتى » (الأسرة الخامسة : ٢٥٠٠ - ٢٣٥٠ ق. م) الذى يكشف لنا أكثر من أى مصدر قبله فى تاريخ مصر عن صيغة المحاكمة الخلقية فى عالم الآخرة وكيفيتها ، وتوخى المصريين الحقيقة فى تصوير المسئولية الخلقية . ونجد فى هذا الكتاب فضلاً عن ذلك أنه ينتظم طائفة من الرقى والتعاويذ السحرية التى كان يعتقد فيها القوم القدرة على جلب ما يرضى الميت من الحاجات المادية والجثمانية فى عالم الآخرة .

ونجد تصوير المحاكمة (التى تظهر فيها الموازين) أن تكون الموازين فى يد الآلـه الجنازى القديم « انوبيس » الممثل برأس ابن آوى ، ويقف خلفه « تحوت » كاتب الآلهـة ليشرف على الميزان وفى يده القلم والقـرطـاس حتى يسـجــل الـنتيجــة . وخلف « تحوت » يقعى حيوان بشــع الهيئــة يسمى « الملتهمة » ، وله رأس التمساح وصدر الأسد ومؤخرة فرس البحر ، ويكون متحفزاً لالتهام الروح إذا وجدت ظالمة .

ولعـل القـارىء الكـريم لا يجد غضاضة فى تقريرى هنا أن الفيلسوف الإغريقى « أفلاطون » (٤٢٨ - ٣٤٨ ق. م) قد أفاد من كتاب الموتى فى صياغة كتابه المشهور باسم « جمهورية أفلاطون » .

ويقـول « سلامـة موسى » فى كتابه « مصر أصل الحضارة » : إن المردة والعفاريت والتنانين إن هى إلا صور مشوهة من الأرباب والربات المصرية . فالـربـة « هاتـور » بقرنيها توضح العفاريت التى لم تكن تخلو من القرون ، ونلاحظ أن رأس الصقر قد انحدر من الرب « حورس » إلى العفاريت أيضاً . والثعبان الذى تطورت إليه هاتور فى مصر ، قد أصبح تنيناً يقتله « القديس جورج » (القديس مارجرجس) كما يرى على الجنيه الانجليزى المصنوع من الـذهب . ولعل الصراع بين هذا القديس والتنين أن يكون الطبعة الحديثة للصراع بين « حورس » وعمـه « ست » . وقـد اشتهـرت « ايزيس » بلقب « العظيمة فى أعمال السحر » نظراً لالتجائها إلى أعمال السحر للعثور على جثة زوجها وشقيقها « أوزوريس » وإعادة الحياة إليها ! .

وفى ضوء ما سبق أرجو أن يوافقنى القارىء الكريم على أن ما كان يحدث فى معابد مصر القديمة من محاورات وأناشيد ورقصات ــ فضلاً عن وجود مناخ ثقـافى اجتـماعى يتيح الفـرصـة لوجـود مخلوقـات لها أثـرها فى سلوك أعضاء المجتمع ، وأن كانت لا ترى إلا فى خيالهم ــ قد يسر لى رؤية أوجه التشابه بين ما كان يحدث فى الماضى وما يحدث فى حفلات الزار .

والمعـروف ، كما سبق أن أوضحت ، أن أول حضارة وجدت فى تاريخ الإنسـانية كانت الحضارة المصرية القديمة ، وأن سلطان هذه الحضارة امتد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وأن ما ورد من الحبشة أو السودان أو الصومال عن طريق التجـارة أو عن طريق الاحتـلال من طقـوس حفـلات الـزار لم يكن مستغـربـاً . ولعل تقبل أعضاء المجتمع المصرى ، وبخاصة النساء فى ضوء ظروفهن الثقـافية الاجتـماعية والاقتصـادية والسياسية ، كان متوقعاً . ولعل ما ورد فعـلاً قد تطور وربـما تغـير فى ضوء الظروف المشار إليها . وهذا غير

مستبعد . فمصر قد أوحت « للإمام الشافعى » (٧٦٧ - ٨١٩) أن يكتب مؤلفه القيم « الأم » ، ومصر قد اضطرت « ابن خلدون » (١٣٣٢ - ١٤٠٦) إلى تغير مقدمته المشهورة .

وبقيت كلمة أخيرة عن موضوع تقلص ظاهرة احتفالات الزار وبخاصة فى المناطق الحضرية . ذلك أننى أرى ، ولعل القارىء الكريم يرى مثل ما أرى ، أن ظروف الحياة من عام ١٨٢٠ حتى وقتنا هذا (١٩٨٥) قد تغيرت تغيراً جذرياً . فالمرأة المصرية بعامة رمز القهر » فى خلال هذه الفترة قد تعلمت وخرجت إلى العمل ومن ثم حررت اقتصادياً ، فضلاً عن انتشار المستشفيات والمستوصفات وأرتفاع مستوى العلاج الطبى والطبى النفسى . والتاريخ المصرى يشهد بأن المصريين يعطون ويأخذون ، يعطون ألواناً من الثقافات ويأخذون ألواناً من الثقافات . وما يأخذونه يكون بالضرورة نافعاً ومفيداً ومقبولاً عندهم . ولعل مثال احتلال الفاطميين (٩٦٩ - ١١٧١) أن يكون دليلاً علّى ذلك . فقد حاول هؤلاء المحتلون أن يستبدلوا بالمذهب السنى الذى كان يعتنقه المصريون المسلمون المذهب الشعيى . وصبر المصريون على مضض ، ولعلهم كانوا يؤدون دور المتفرج . وما أن انقشع احتلال الفاطميين وذهبوا إلى غير رجعة حتى رجع المصريون المسلمون إلى مذهبهم السنى على الرغم من مرور هذه السنين الطوال واستمروا قانعين به حتى يومنا هذا ! .

١٢ ــ حول موضوع الطرق الصوفية فى المجتمع المصرى المعاصر

لم أعرف شيئاً عن الطرق الصوفية فى صباى . ولكن بعد وفاة أبى وكنت فى السابعة عشرة من عمرى ، أحسست بالعزلة الثقافية عندما انفض من حولى أصدقاء أبى ، وأبيت أن أبقى كذلك فسعيت إلى أن يكون لى جماعة مرجعية

ألوذ بحمايتها وأعطى لها ما عندى من حب واحترام . فانضممت إلى « الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة المحمدية » مريداً لصاحب الفضيلة المغفور له « الشيخ محمود محمد خطاب السبكى » . وكان فضيلته ينعى على ما يقوم به معظم جماعات الطرق الصوفية المنتشرة فى أنحاء المجتمع المصرى ، ولا تزال ، من أفعال . فكان يقول مثلاً :

« . . . أما من يعرف العلم ويخرج من العمل بسنن رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فهو أخس من الغبى الجهول وهو أضر على الدين وأهله من ألف شيطان ، وإفساده أشد من إفساد المسيخ الدجال كما نص عليه المصطفى ﷺ سيد ولد عدنان .

ومن هذا القبيل شر ذمة وخيمة لئيمة تدعى أنها صوفية سلكت الطرق المستقيمة . مع أنها زادت فى ضلالها وإضلالها على مردة الشياطين . وأكلت أموال المغفلين بالباطل وتسببت فى كفر كثير من الجاهلين .

ويستطرد رحمه الله قائلاً لمن حوله من المريدين وكنت أحدهم :

« . . . وقد التبس الحال فى بعض الناس فظنوا أن العلماء العاملين القائمين فى مقام الوراثة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه فى نشر الشريعة المطهرة فعلاً وقولاً ومعاهدة الناس على سلوك طريق الرشاد والبعد عن الفساد ، هم وأولئك المتصوفة الفاسقون سواء فقالوا ما قالوا من الهذيان . وجهلوا

جهلا مركبا لا يصدر من إنسان . . » .

وكنت ـ ولم يكد عمرى يزيد على العشرين سنة ـ اتبع وصايا المغفور له فضيلة الشيخ محمود محمد خطاب فأجدد التوبة فى غالب الأزمان وأكثر من الاستغفار والصلاة والسلام على السيد المختار ، وكنت أختار وقتاً بعد صلاة العشاء مستقبلاً القبلة لكى اقرأ ما تيسر من القرآن كالفاتحة وسورة تبارك الملك وسورة الكافرون ، ثم استغفر الله بأية صيغة مائة مرة أو خمسمائة مرة أو أكثر من ذلك .

وعندما بلغت سن الواحدة والعشرين اسهمت فى إنشاء « الجمعية التعاونية الشرعية لإحياء العمل بالكتاب والسنة المحمدية بحى السيدة عائشة النبوية بالقاهرة » . وكان من أهدافها نشر تعاليم السنة الغراء ، وبذر بذور السعادة لمن أرادهم الله من السعداء ، ولم شعث المؤمنين يجمعهم لواء الشرع الشريف ، ويرفرف عليهم علم الإسلام المنيف . وكان زملائى وأنا معهم ندعو الناس من أبناء حى السيدة عائشة النبوية وما حوله من احياء . وإذ نحثهم كنا نقول :

« فليسع إليها كل عاقل ، وليدع لها كل مؤمن
كامل ، ففى ميدان الجهاد متسع للجميع » .

ومن ثم فإنه لم تكن لى صلة بالطرق الصوفية الأخرى . كنت ابتعد منها إذا هى قربت منى ، وكنت لا أرى إلا الخير والفلاح فى الدعوة إلى الدين الخالص كما لقنها لنا شيخنا الإمام الشيخ محمود خطاب .

ومر الزمان سريعاً ، وفرقت بينى وبين هذه الجماعة الأيام بل الشهور والسنون . ورأيتنى أقف عند الحديث الشريف الذى وجهه رسول الإسلام ﷺ

إلى سيدنا على بن أبى طالب فى موقعة « خيبر » ألا وهو « لأن يهدى الله بك رجلاً خير من الدنيا وما فيها » . وقفت عند هذا الحديث الشريف وعاهدت نفسى على القيام بتنفيذه **فعلاً وعملاً** فى محيط أبناء مصرنا الخالدة الأسوياء منهم وغير الأسوياء . واتجهت بكل كيانى نحو تحقيق هذا الهدف . وساعدتنى الحياة بحلوها ومرها ، أقصد خبرات الحياة وتجاربها ـ كما أرجو ـ على ذلك ،

وفى ضوء خبراتى وتجاربى المنتظمة وجدت ضرورة القيام بإجراء بحوث ودراسات عن « موضوع الطرق الصوفية فى المجتمع المصرى المعاصر » فذهبت إلى الواقع الحى ، حيث توجد هذه الطرق . واتصلت بإحداها ويقع مركز شيخها فى الزاوية الحمراء ، وكنت أرى عجباً . كان هذا المركز عبارة عن بيت يملكه صاحبه . وكنا نقابل الشيخ فى حجرته فى الدور الأول ، وكنت ألاحظ أن الحجرة المجاورة يملؤها أناس شتى ، بعضهم من الشباب والبعض الآخر من البالغين . وكلهم ينتظرون نفحات الشيخ حيث يعطى البعض أحجبة من التى كانت تملأ أحد أدراج مكتبه ، أو يتحدث مع البعض الآخر حديثاً لا أفهم منه شيئاً . وكان يطلب الشيخ منى أن آكل معه إذا حان وقت الأكل . وكان يدعو معى آخرين من الحاضرين .

كان كريماً ما فى ذلك من شك . وقد بدا علىّ التأفف ذات مرة فنهرنى أحدهم . وذلك لأن الشيخ بركة ، والطعام الذى يقدمه بركة كذلك وما علىّ إلا أن أصدع بالأمر ملتمساً هذه البركة . وكنت اترك الشيخ وأنظر إلى الحجرة التى يوجد فيها مكتبه فأجدها مليئة بالهدايا وأهمها « ساعات الحائط » وغيرها من « البراويز » التى تتحلى بآيات القرآن الكريم ، فضلاً عن المصاحف الكبيرة والصغيرة . وكنت أقول لنفسى : إن حجرة كهذه تحتاج إلى ساعة واحدة أو إلى برواز واحد . ولا بأس من أن يضمها أحد المصاحف ، فما بال الرجل ـ

أقصد الشيخ ــ يترك فى حجرته هذه الهدايا العديدة المتعددة .

وقد زرت هذا الشيخ مرات وفى كل مرة أرى شيئاً جديداً ،.عرفت أنه يعقد « حلقة للذكر » فى كل أسبوع ولكننى لم أذهب إلى أحداها .

وفى رحاب ضريح سيدنا الحسين بمدينة القاهرة ، وضريح السيدة زينب ، فضلاً عن ضريح الإمام الشافعى وضريح السيدة عائشة وضريح السيدة نفيسة وغيرها ، كنت أذهب فى أثناء حفلات الموالد ، وكنت أرى حلقات الذكر أشكالاً وأنواعاً . كما كنت أسمع الأناشيد وأرقبها فى ضوء خبراتى الثقافية الاجتماعية .

وكان شهر رمضان المعظم موسماً رائعاً لرواج وظائف الطرق الصوفية . وكنت أذهب مع آخرين لزيارة أحد المشايخ فى بيته القريب من ضريح سيدنا الحسين بمدينة القاهرة . ووجدت أن هذا البيت مفتوح لكل من يحضر إليه . وكل من يحضر يأكل إذا أراد أو يشرب « القرفة » أو « الشاى » . وفى وقت الإفطار حرصت على أن أكون موجوداً ، فوجدت أناساً شتى منتظرين مدفع الافطار ، فإذا ما ضرب هذا المدفع يبدأ بعض القائمين على عملية توزيع ألوان الطعام بهمة فائقة .

ولدهشتى وجدت من بينهم أناساً أعرفهم ومن ثم أعرف مكانتهم ، فهذا وكيل وزارة كذا ، وذاك أستاذ فى جامعة كذا ، وثالث تاجر له شهرته فى حى المغربلين . . إلخ . كانوا يوزعون الطعام على الحاضرين وهم فى الأغلب الأعم أقل شهرة ومالاً وسلطاناً . وأذكر أننى دخلت إلى المطبخ فوجدته مملوءاً بجوالات الأرز والقمح . كما وجدت بجواره الأكباش والعجول التى تنتظر دورها لتكون طعاماً سائغاً لأصحاب النصيب !

وإن أنس لا أنسى الدعوة التى وجهتها إلىّ الجامعة الأمريكية لأتحدث عن موضوع حلقات الذكر . ولبيت الدعوة بعد امتناع . وكانت كلمتى باللغة الإنجليزية حيث إن الحاضرين يضمهم العديد من الأجانب . وعندما ذهبت وجدت أحد أساتذة علم النفس وأحد أساتذة الجامعة ، وانضم إلينا أحد مشايخ الطرق وكان فى صحبته جمع من المريدين . وتحدثت كما تحدث الآخرون . وكان لحديث كلّ زاوية معينة . وكانت الأحاديث كلها باللغة الإنجليزية ولكن الشيخ أبى أن يتحدث بها وفضل الحديث باللغة العربية الفصحى أو ما يقرب منها . قال كثيراً وكانت أقواله كلها تقف أمام العلم الحديث بالمرصاد . إذ كان يرى أن الجامعات والمدارس ومثيلاتها لا فائدة منها . فالعلم هو العلم اللدنى ، الذى يهبه الله جل وسما إلى عباده المخلصين . وذكر أمثلة وقف شعر رأسى عند سماعها . ومنها ذكر أن « الإذاعة المسموعة » مثلاً فى ضوء تاريخ الدين الإسلامى قد وجدت عندما حذر سيدنا عمر بن الخطاب القائد « سارية » قائلاً وهو فى مكة وسارية هذا على بعد آلاف الأميال « ياسارية الجبل » وهو يقصد أن يحتمى بالجبل حتى ينقذ نفسه وجيشه من العدو . وقد سمع سارية هذا التحذير ونجا هو وجيشه من الهلاك ، ثم تراه أقصد الشيخ منسجماً مع نفسه وسعيداً ثم يصيح قائلاً .

« ياأحباب أليس ما حدث من سيدنا عمر بن الخطاب وسارية قائد الجيش هو بعينة ما يحدث فى الإذاعة المسموعة ! » .

ثم تراه يعقب ويقول « اذن ما فائدة العلم فى الجامعات والمدارس ومثيلاتها » ! ويستأنف الكلام عن الشاشة الصغيرة ، فيذكر للحاضرين موضوع « الإسراء والمعراج » وكيف أفحم نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام المتشككين إذ طلبوا منه أن يصف

عليه الصلاة والسلام المسجد الأقصى وما حوله ، فما كان من المسجد الأقصى وما حوله إلا أن جاء أمام النبى ﷺ ليشاهده تماماً مثل من يشاهد الشاشة الصغيرة ، وأخذ النبى ﷺ يصف كل ما رآه للمتشككين وافحمهم عليه الصلاة وأبهى السلام . ثم صاح الشيخ صيحة أخرى مردداً ما ذكره من قبل بأن العلم الحقيقى هو العلم اللدنى ولا يكون أبداً علم الجامعات والمدارس ومثيلاتها . . . العلم الحديث ! .

ثم أستأنف الشيخ حديثه عن نجاح العلماء فى إتاحة الفرصة لبعض البشر للوقوف على سطح القمر والسير عليه . وقال : إن الإسلام الحنيف قد سبق هؤلاء العلماء ثم فسر آية الإسراء دليلاً على صحة مقولته .

وكان هذا الشيخ يتحدث باللغة العربية كما سبق أن ذكرت ، وكان ما يقوله يترجم إلى اللغة الانجليزية لكى يفهمه الحضور . ولكن ما لبثنا أن وجدنا هؤلاء الحضور يخرجون من القاعة التى القيت فيها الأحاديث زرافات ووحدانا ، ولم يبق إلا المتحدثون وأنصار الشيخ . وكانت تجربة أخرى تضم إلى تجاربى فى هذه الحياة التى نحياها نحن المصريين فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى لمجتمعنا المعاصر .

ولعل كل ما سبق من خبرات وتجارب ومواقف قد حفزنى كى أقوم ببعض البحوث والدارسات عن موضوع الطرق الصوفية فى المجتمع المصرى ، وتبين لى فى ضوء نتائج هذه البحوث والدراسات أن للطرق الصوفية فى مصر شأناً وأى شأن . فهى من أقوى جماعات الضغط فى المجتمع المصرى المعاصر . فالأرقام

تقول إن فى مصر ٦٧ طريقة صوفية مسجلة طبقا للجدول الرسمى المعتمد ، وإن عدد أبناء الطرق الصوفية المنتظمين ستة ملايين ، وإن هناك ثمانى طرق صوفية غير مسجلة ، وإن مشايخ هذه الطرق الأخيرة ومريديها بعضهم من حملة المؤهلات العالية . وإن لدينا حوالى ٢٨٥٠ مولداً للأولياء الصالحين يحضرها أكثر من نصف سكان الدولة . وإن بين مشايخ الطرق الحاليين (٢ لواء و٣ دكتوراه وسفير سابق ومدير عام) . ويرى البعض أن عدد أبناء الطرق الصوفية المنتظمين فى مصر ثلاثة ملايين فحسب . أى أنهم أكثر عدداً من كل الجيوش العربية .

وتـأكـد من نتـائج الدارسات والبحوث المشار إليها ولاء المصريين لأمير المؤمنين « على بن أبى طالب » وأن له عندهم مكانة رفيعة فى قلوبهم ، ونجدهم يحتفلون بمولده رضى الله عنه فى كل عام احتفالات تشترك فيه [illegible] الطوائف الصوفية فى الساحة الحسينية بالقاهرة ، ويسهر على هذا الاحتفال الذى يستمر أياماً « المجلس الأعلى الصوفى » و« جمعية أهل البيت » .

ولعـل من المنـاسب للتـأكد على الذى تؤديه الطرق الصوفية فى تكريم « الامام على بن أبى طالب » أن أسجل فى الدراسة الحالية نص إجازة لأحد خلفاء « الطريقة الخلوتية الجنيدية » وهى تبدأ أول ما تبدأ بالآية الكريمة « الله ولى الذين آمنوا . . » (٢ م البقرة : ٢٥٧) . ثم تسجل الإجازة نص وصية الإجـازة للسـالكـين فى طريق السادة الخلوتية الجنيدية . وتبدأ بعد البسملة والحمد لله القول بأنها إجازة عن شيخنا وقدوتنا العارف بالله وشيخ عموم السادة الخلوتية الجنيدية بجمهورية مصر العربية ، حفيد الإمام الجنيدى رضى الله عنه وأرضاه صاحب الفضيلة سيدى الشيخ حسين إبراهيم الدسوقى الجنيدى المقيم بنزلة الجنيدى مركز الواسطى محافظة بنى سويف .

ثم تؤكد الوصية أن الطريق طريق غيب غير محسوس . . . وسلوكه للقلوب لأنه من الغيوب ، فيجب على المريد التصديق بآثاره والإذعان لسطور أنواره مع الجهد والاجتهاد والتوجه الكلى والاستعداد لأن سلوكه يصعب على النفوس لكنه علم ذوق لا ينظر فى الطروس . ومثال السالك فيه كمثال السالك فى طريق الحج لابد من ترك وطنه . وهنا كذلك . ثم يترك الأهل والأوطان رغبة فى رضاء الملك الديان ، وكذلك هنا لابد أن لا يلتفت إلى أهل ولا أوطان ولا إلى أصحاب ولا إخوان ، بل لابد من تغير الانفاس والجلاس ليصير من الاكياس .

ثم لابد له من زاد وهو هنا التقوى لقوله عز من قال « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » (٢ م البقرة : ١٩٧) . ولابد له من سلاح يرهب به عدوه وهو هنا الذكر . ولابد له من سلاح يرهب به عدوه وهو هنا الذكر . ولا بد له من راحلة حتى يهون عليه الطريق وهنا المقصود منه الهمة ، لأنها بها ترقى المريد إلى أعلى المقامات ، ولابد له من دليل يسير أمامه وهو هنا الأستاذ المربى ، فإن من سلك طريقاً بغير دليل تاه وضل وربما هلك مع الهالكين .

ولابد له من رفقة يستأنس بهم فى طريقه ويساعدونه . . . والمراد بهم إخوانه الذين هم طالبون مطلبه . ثم إنه إذا سار وأراد أن يشتعل مصباح الحكمة فى بيت قلبه المظلم من آثار السهر والعمل بالحظ والهوى ليرى ما فيه من الرذائل فيطهره منها ويخرج بكليته عنها لابد له من سبعة أشياء ، لأن من أراد أن يوقد المصباح فلابد له منها . . . ثم تذكر الوصية أن هذه الأشياء السبعة هى : الزناد ، والحجر ، والحراق ، والكبريت ، والمسرجة ، والفتيلة والدهن . وكلها كما يرى القارىء رموز لأفعال . فالزناد هو زناد الجهد والجهاد ، والحجر هو حجر التضرع إلى الله ، والحراق هو احتراق النفس

بالمخافة . قال تعالى « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » (٧٩ ك النازعات : ٤) . والكبريت هو كبريت الإنابة إلى الله تعالى ، والمسرجة هى مسرجة الصبر ، والفتيلة تعنى الشكر لله على نعمه ، ثم لابد بعد كل ذلك من دهن الرضا بالقضا (القضاء) .

فإذا تخلق المريد بهذه الأوصاف السبعة فحينئذ يمكنه أن يشعل مصباح الحكمة فى قلبه . وهذه كرامة يكرم الله بها المريد أن يوقد فى قلبه مصباحاً ملكوتياً يحميه من الدسائس النفسانية . فالقلب يشبه البيت فيه خمس نوافذ يدخل فيها الهوى إذا فتحت ، وإذا أغلقت امتنع دخول الريح إلى ذلك البيت ، وعند غلقها يقوى نور ذلك المصباح ويشرق البيت به . وإذا فتحت هذه النوافذ أو الكوات، أو إحداها ضعف اشراق ذلك النور وربما انطفأ ، والمقصود من الكوات الخمس هو الحواس الخمس . وعلى المريد أن لا يشغل حواسه الخمس لغير الحق ومن ثم يشغل قلبه بمراقبة جلال الحق تعالى وعظمته وكبريائه التى هى كناية عن المصباح .

وتذكر الوصية بعد ذلك أنه يجب على أهل الطريق ألا يخطو خطوة ينكرها الشرع عليهم . فإن كل من خالف الشريعة المحمدية تاه وضل عن الطريقة المرضية . فالشريعة أصل والحقيقة فرع ، فكل من لم يحكم الأصل لا ينفع به الفرع ، ولهذا كان سيد رؤساء هذه الطريقة سيدى أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه وقدس سره يقول :

« ما حرموا الوصول إلا بتضييعهم الأصول . فشريعة بلا حقيقة باطلة وحقيقة بلا شريعة عاطلة » . ثم تحض الوصية على قيام أهل الطريق بأوراد الطريق جميعها من غير إخلال بشىء منها ، وأن يوبخوا أنفسهم إذا تخلفوا عن مجلس ذكر ووعظ وغير ذلك . وذلك لأن سيدى إبراهيم الدسوقى « رضى الله

عنه كان يقول » : ماقطع مريد أوراده يوما إلا قطع الله عنه الإمداد فى ذلك اليوم .

وشروط الطريقة كما تذكرها الوصية ثمانية وهى : الصمت . والجوع ، والسهر ، والاعتزال ، ودوام الطهارة ظاهراً وباطناً ، ومداومة الذكر بالاسم الذى يلقنه الشيخ لمريديه ، ونفى الخواطر من القلب ، وربط قلب المريد بالأستاذ ، ومعناه أنه يداوم على مشاهدة صورة الشيخ * . وشرحت الوصية كل شرط من هذه الشروط شرحاً وافياً .

وتهتم الوصية بآداب أصول الطريق وهى عشرون : خمسة سابقة على الذكر . واثنا عشر فى حالة الذكر ، ثم ثلاثة بعد الانتهاء من الذكر . وفصلت الوصية هذه الآداب وشرحتها . وتتضمن الآداب التى قبل الذكر : التوبة والغسل للذكر ، والسكون بأن يستمد المريد بقلبه عند شروعه فى الذكر من همة شيخه ، واستمداده من شيخه هو استمداده من النبى ﷺ لأنه الواسطة بينه وبين النبى ﷺ . وتتضمن الآداب فى حالة الذكر : جلوس المريد على مكان طاهر ، وأن يضع راحتيه على ركبتيه ، وأن يطيب المجلس بالرائحة الطيبة وكذلك ثيابه ، وأن يلبس المريد اللباس الحلال الطيب ، وأن يكون المكان مظلماً ، وأن يغمض المريد العينين لكى تنشط الحواس الظاهرة ، وأن يتخيل المريد شخص شيخه بين عينيه ، والصدق فى الذكر ، والإخلاص فيه ، وأن يختار المريد من صيغ الذكر « لا إله إلا الله » لأن لها تأثيراً لا يوجد فى غيرها ، وأن يستحضر المريد معانى الذكر ، وأن ينفى كل شىء موجود حال الذكر من القلب سوى الله سبحانه وتعالى فالله غيور أن يرى فى قلب عبده المؤمن غيره .

---

* صورة فوتوغرافية للشيخ ملتصقة بالصفحة الرابعة من الإجازة

أما الآداب الثلاثة التى تعقب الذكر فأولها يسكن إذا سكت ويخشع ، وثانياً أن يزم (بحبس) نفسه مراراً من ثلاثة أنفاس إلى سبعة ، وثالثها منع شراب الماء عقب الذكر . ثم تختم الوصية بأصول الطريق وهى خمسة أشياء : تقوى الله فى السر والعلانية ، واتباع السنن فى الأقوال والأفعال ، والإعراض عن الخلْق والإقبال والإدبار ، والرضا عن الله فى القليل والكثير ، والرجوع إلى الله فى السراء والضراء . وتنتهى الوصية ثم يبدأ الإذن للخليفة الجديد بأن يدعو الخلق إلى طريق الحق ، فقد قال العارفون ليس الرجل من كمل فى نفسه بل من كمل به غيره ولا من زال عنه الخوف من نفسه ولكن من زال به الخوف من غيره ، ويعتبر هذا الإذن تصريحاً للخليفة بالتجول فى أنحاء جمهورية مصر العربية لإقامة الأذكار والصلح بين الناس ، وهو إذ يفعل ذلك يكون نائباً عن شيخنا وقدوتنا العارف بالله تعالى وشيخ عموم الطريقة الخلوتية الدسوقى الجنيدى المقيم بنزلة الجنيدى مركز الواسطى محافظة بنى سويف ، وهو عن والده القطب الربانى سماحة سيدى الشيخ إبراهيم الدسوقى الجنيدى الميمونى أو هو عنه والده العالم العلامة سيدى الشيخ ابراهيم الدسوقى الجنيدى الميمونى ، وهو عن والده العالم العلامة سيدى الشيخ محمد أحمد الجنيدى وهو عن والده القطب الشهير سيدى الحاج أحمد الجنيدى الشهير بالمغربى ، وهو عن سيدى وأستاذى الشيخ عبد العليم السنهورى ، وهو عن شيخه سيدى شمس الدين محمد بن سالم الحفناوى ، وهو عن سيدى مصطفى البكرى وهو عن سيدى عبد اللطيف الحلبى وهو عن سيدى مصطفى أفندى الإدرناوى وهو عن سيدى قُره باش أفندى وهو عن سيدى إسماعيل الجوررومى ، وهو عن سيدى عمر الفؤادى ، وهو عن سيدى محيى الدين القسطمونى ، وهو عن سيدى خير الدين التوقادى ، وهو عن سيدى . . . الألبى سلطان الأقسرائى ، وهو عن سيدى محمد بن بهاء الدين الأزرنجانى ، وهو عن سيدى يحيى الياكوبى ، وهو

عن سيدى صدر الدين الخيالى ، وهو عن سيدى الحاج عز الدين ، وهو عن سيدى محمد بيرام الخلوتى ، وهو عن سيدى عمر الخلوتى ، وهو عن أخيه سيدى محمد الخلوتى ، وهو عن سيدى ابراهيم الزاهد الكيلانى ، وهو عن سيدى جمال الدين التبريزى ، وهو عن سيدى شهاب الدين محمد الشيرازى ، وهو عن سيدى ركن الدين محمد النجاشى ، وهو عن سيدى قطب الدين الأبهرى ، وهو عن سيدى أبى النجيب السهروردى ، وهو عن سيدى عمر البكرى ، وهو عن سيدى وجيه الدين القاضى ، وهو عن سيدى محمد البكرى ، وهو عن سيدى محمد الدينورى وهو عن سيد الطائفة سيدى أبى القاسم الجنيدى البغدادى ، وهو عن سيدى السرى السقطى وهو عن سيدى معروف الكرخى ، وهو عن سيدى داود بن نصير الطائى ، وهو عن سيدى حبيب العجمى ، وهو عن سيدى الحسن البصرى ، وهو عن سيدنا الامام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وهو عن سيدنا ونبينا سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، وهو عن سيدنا جبريل عليه السلام ، وهو عن رب العزة والعظمة سبحانه وتعالى رب العالمين جل جلاله وتقدست أسماؤه .

ومثل الطريقة الخلوتية الجنيدية ، نجد الطريقة البرهمية ومؤسسها سيدى ابراهيم الدسوقى وهو من مواليد مصر ، ومدينة دسوق بالذات ، وتروى إحدى الروايات عن هذا الصوفى الكبير ، أنه جوهرة من جواهر آل بيت الرسول ﷺ الذين عاشوا فى مصر ، ودفنوا فى ثراها . ويقولون إن سيدى إبراهيم الدسوقى يلتقى مع « سيدى أحمد البدوى » فى الجد العاشر . وهو ينتمى إلى الدوحه المباركة التى ينتمى إليها « سيدى أحمد البدوى » ، وسيدى حسين أبو على أو السلطان أبو العلا . ويؤكد مؤرخو سيدى ابراهيم الدسوقى أنه قرشى الأصل ، ويقولون : إنه ينتمى نسبه إلى الإمام جعفر الصادق بن

الإمام محمد الباقربن الإمام على زين العابدين بن الإمام الحسين بن على ابن أبى طالب .

واحتفال المجلس الأعلى الصوفى وجمعية أهل البيت ، بالإمام على بن أبى طالب بخاصة وبأهل البيت بعامة والاهتمام الواضح للطرق الصوفية بهم . يعنيان بالضرورة نشر الروايات عنهم ، ومحاولة غرس محبتهم فى قلوب الملايين المصريين المسلمين . وفى ضوء الواقع نجد أن المصريين المسلمين قد استجابوا أو تعاطفوا لذلك .

واستجابة المصريين المسلمين لهذا الاهتمام أو تعاطفهم أو محبتهم لأهل البيت لا يمكن أن ترجع بعضها أوكلها بالضرورة إلى قبولهم لدعوة بعينها أو التزامهم بمذهب معين .

والملاحظ أن دولة الفاطميين قد حكمت مصر فى خلال المدة ٣٦٢ - ٥٦٧ هـ الموافق ٩٧٢ - ١١٧١ م . أى لمدة حوالى ١٩٩ عاماً ميلادياً . وقد حاولت هذه الدولة فى خلال فترة حكمها أن تنشر الدعوة الشيعية فى مصر ، وحين أصبحت على وشك الانهيار عاد أهل مصر إلى المذهب السنى . وفشلت بذلك المجهودات الهائلة التى بذلها الفاطميون فى سبيل نشر هذه الدعوة فى مصر .

وإذا كان الفاطميون قد فشلوا فى نشر الدعوة الشيعية ، فإن آثار حكمهم المادية مازالت قائمة . منها وأهمها مدينة القاهرة ثم الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم وجامع الجيوشى وجامع الأقمر وجامع طلائع بن رزيك ، ومن الأماكن التى خلفها الفاطميون ومازالت قائمة فى مدينة القاهرة نجد قصر الشوق والجمالية والحسنية وزويلة والجودية وبرجوان .

والطرق الصوفية الموجودة فى مصر فى الوقت الراهن ، كما يذكر القارىء ، عديدة . وعدد مريديها لا يمكن أن يستهان به ، وهم منتشرون فى كل قرية مصرية ، وأغلبهم من الفقراء والأميين والبسطاء . ومن ثم لا يمكن إغفال فاعلية الطرق الصوفية ومن يقومون عليها على هؤلاء المريدين . ومع ذلك فإننى أرى أنه لولا أن الدعوة التى تدعو إليها كل طريقة من هذه الطرق قد صادفت هوى فى نفوس مريديها لما التفوا حولها . هذا الهوى لا يأتى من لا شىء ، فهو بالضرورة نتاج ثقافة المجتمع .

إن سيرة مثل سيرة « الإمام الحسين » فى ضوء التراث الثقافى المصرى لابد أن تجد صدى فى وجدان كل مصرى ما فى ذلك من شك . فالمصرى القديم قد عرف « أوزيريس » ووعى قصة استشهاده وعاشت فى نسيج كيانة على مر الزمان . والتراث الثقافى المصرى ، كما يعلم القارىء منذ الماضى السحيق ، مملوء بالشهداء الذين واجهوا الموت دفاعاً عن الحق وضربوا الأمثلة الرائعة ، وكانوا القدوة الحسنة . وكل من يعقد المقارنة الموضوعية بين قصة « أوزيرس » (أمام الشهداء) وقصة الإمام الحسين (سيد الشهداء) يلاحظ أن الأول أى أوزيريس ، فى إحدى الروايات ، كان بشراً عاش فوق الأرض ، وقاسى من شرورها وذهب ضحية مؤامرة (أخيه ست) انتهت بقتله ، وكان أوزيرس هو الراعى الحكيم الذى ما كاد يجلس على العرش حتى حرر الناس من حياة الهمجية ، وعلمهم الزراعة وشرع لهم القوانين ، وحثهم على التقوى واحترام الآلهة . وكان أوزيرس يمثل الخير بأجلى معانيه فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى الذى ظهر فيه وعاش .

وكان الناس عندما ما تغيب الشمس لتعود إليهم فى الصباح يرون صورة هذا المعبود الأرضية وهى الأصيلة كان يرمز إليها بالمحصول الجديد ، فهو زاد

الناس وهو ماء الفيض الذى يخصب الأرض ، وقد عاشت هذه الصور المتعلقة بأوزيريس فى وجدان الشعب المصرى واستمرت تعيش ، مروراً بالظروف التاريخية ، التى أكدت حياتها وبقاءها واستمراوها فى ظل عصر الاضطهادات التى ذهب ضحيتها آلاف المصريين . تلك الاضطهادات التى ظلت تندلع من آن إلى آخر مدى قرن من الزمان (حوالى سنة ١٩٤ م حتى سنة ٢٩٥ م) . ولا جدال فى أن الذين استشهدوا من المصريين وبخاصة الأساقفة منهم قد قدموا المثل الأعلى لأبنائهم فى البذل والتضحية .

ومن حق القارىء أن يعلق على ما سبق بالموافقة على ما جاء به أو بعدم الموافقة ، ومهما يكن من الأمر فإن الدراسة الحالية تهتم أول ما تهتم بعلاقة الطرق الصوفية بالدعوة إلى الأولياء والاهتمام الأكيد بآل البيت . فالطريقة الصوفية هى المدرسة الأكيدة لهذه الدعوة ، ويؤكد ذلك ما ضمه كتاب « جامع السعود من عوالم الشهود المقرب إلى علام الغيوب » ، فهو يتضمن فضلاً عن أحكام الطهارة وأركان الصلاة على مذهب « الإمام الشافعى » ، خطباً منبرية وأحاديث نبوية وكلام السادة الصوفية ، والأسرار الربانية فى الحضرة النورانية ، وأحزاب وأوراد ومدح فى الرسول وآل بيته . وشرح المملكة الانسانية (يقصد شخصية الإنسان فهى مدينة فى ولاية القلب ، وكل من فى هذه المدينة من سمع وبصر وقدم وجميع الجوارح رعايا وخدم للقلب ، فهم مسخرون له بالقهر مستخدمون له تحت الأمر والنهى) ، وآداب المريد ، وكلام المؤلف فى طريق القوم والسادة الصوفية .

ولا جدال فى أن من يقرأ مضامين الرسائل المرسلة إلى ضريح « الإمام الشافعى » يجد انعكاس المناخ الثقافى الذى يسود العديد من العناصر الثقافية السابق ذكرها . ويكفى أن نذكر جزءاً من مضمون إحدى الرسائل :

« فقـد أرسـل رجـل من كفـر عجيبه مركز ههيا محافظة الشرقية ، ذكر اسمـه ، وكتب رسالته على ورقة عادية بتاريخ ١٢ من ابريل سنة ١٩٥٨ م الموافق ٢٣ من رمضان سنة ١٣٧٣ هـ قال بعد ذكر البسملة والحمد لله والسلام على أشرف المرسلين النبى الأمى ، موجهاً خطابه إلى الإمام الشافعى .

يتشرف بعرض هذا على فضيلتكم العبد الخادم فلان من كفر عجيبه مركز ههيا شرقية .

المدد يارسول الله
المدد ياسيدنا الحسين ، المدد ياصحبة الشورى ياأم هاشم ،
المدد ياأبا العلمين يارفاعى ، المدد ياأبا الربيعين ياجيلانى ،
المدد ياأبا اللسانين يابدوى .
ياباب الرسول ياباب القبول ياأبا الفراج المدد .
المـدد ياأبا العينين يادسوقى ، المدد ياكريمة الدارين يانفيسة العلوم
يامبرقعة بالأنوار ، المدد ياسيدى شبل يامنوفى .
المدد يارجال الله انتم الوسيلة إلى الله العلى القدير أن ينتقم لى من كل من آذانى وأخذ أمتعتى وخاننى فى منزلى . . . »

وأرتباط الطرق الصوفية بالموالد ، كما سبق أن ذكرنا ، أرتباط أكيد . نجد ذلك واضحاً فى موالد « النبى عليه الصلاة والسلام » ، و « الإمام على بن أبى طالب » و « الإمام الحسين » و « السيدة زينب » و « الإمام الشافعى » . ونجد

ذلك واضحاً أيضاً فى الموالد التى يرتبط أصحابها بالطرق الصوفية ارتباطاً أصبح عند الرأى العام عاماً . ومن هؤلاء « السيد أحمد البدوى » بطنطا ، والسيد « إبراهيم الدسوقى » بدسوق . ونجد ذلك واضحاً كذلك فى الموالد التى يعتبر أصحابها من مؤسسى الطرق الصوفية . ومنها المولد الذى تشرف عليه « الطريقة الحامدية الشاذلية » إحياء لذكرى « الشيخ سلامة حسن الراضى » مؤسس هذه الطريقة .

وتشترك الطرق الصوفية فى احتفالات المناسبات الدينية المختلفة مثل موكب الهجرة وموكب رؤية هلال رمضان . وفى هذه المواكب يجتمع أهل الطريقة فى صفوف منتظمة وقد لبس كل واحد منهم وساماً مصنوعاً من القماش بلون معين يكتب عليه اسم الطريقة بلون آخر ، ويتقدم الموكب حملة الأعلام واللافتات والبيارق ، وقد كتب عليها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وأيضاً اسم الطريقة . والملاحظ أن ترتيب الطرق إذا اجتمعت فى أى موكب يكون حسب نظام معين تحدده اللائحة الداخلية للطرق الصوفية !

وفى ضوء استخدامى لأسلوب « الملاحظة » أحياناً وأسلوب « الملاحظة بالمشاركة » أحياناً أخرى ، تبين أن اجتماع أهل الطريقة (الصوفية) للذكر والإنشاد أو ما يسمى بـ « الحضرة » يكون بحضور شيخ الطريقة أو من ينوب عنه ويقال إن الحضرة « اجتماع فاتباع » أى أنها اجتماع لأهل الطريقة يتبعون فيها أداء شيخ الطريقة للذكر والإنشاد . ولا تقام الحضرة فى مكان واحد . فهى قد تقام فى بيت أحد أبناء الطريقة ، وقد تقام داخل « الزوايا » فى القرى ، وقد تقام فى أحد المساجد مثل مسجد « الإمام الحسين » بالقاهرة . وقد تناولت الدراسات التى اهتمت بموضوع « الإنشاد فى الحضرة وفقاً للطريقة الحامدية الشاذلية » الحضرة التى تقام بمسجد « الإمام الحسين » بالذات ،

وهى تقام مساء يوم الثلاثاء أسبوعيا بعد صلاة العشاء وتضم من الذاكرين من أهل الطريقة ومن غيرهم (بشرط أن يحترم الآخيرون النظام والتقاليد الروحية للحضرة) حوالى ألفين . وفى الحضرة الكبرى يشترط أن تقام تحت إشراف « شيخ مشايخ الطريقة » ويلقب أيضاً بـ « شيخ السجادة » أو « صاحب السجادة » بمعنى « شيخ الطريقة » .

والحضرة كشكل لتجمع أهل الطريقة بقصد الذكر تخضع لنظام معين فى ترتيب أماكن جلوس الحاضرين داخل المسجد (إذا أقيمت فى المسجد) . وشكل الحضرة على هذا الأساس يأخذ شكل مستطيل بداخله صفوف الذاكرين من أهل الطريقة . وفى أول صف للمنشدين على شمال موقع الشيخ يوجد موقع رئيس فرقة المنشدين بالقرب منه ، ثم صف من المنشدين وخلفهما صفوف الذاكرين .

وما وصفناه من صفوف المنشدين والذاكرين على شمال موقع الشيخ يوجد ما يطابقه تماماً فى عدد الصفوف على يمين موقع الشيخ . وفى منتصف الصف الأول للمنشدين على يمين موقع الشيخ يوجد موقع رئيس فرقة المنشدين ، وبين صفى المنشدين على يمين موقع الشيخ يوجد موقع خليفة خلفاء السجادة أى « خليفة الشيخ » . وحول صفوف الحضرة يوجد عشرة نقباء للإشراف على نظام الحضرة ويساعدهم فى مهمتهم ستة عشر منظماً يقف كل اثنين منهم عند طرفى كل صف من صفوف الذاكرين .

ومن وظائف النقباء فى الحضرة ، عدا إشرافهم على النظام ، توصيل إشارات الشيخ إلى الذاكرين من قيام وقعود وسكوت وذكر ، وانتقال من درجة سرعة إلى درجة أخرى فى أثناء أداء الذكر والإنشاد . ويلاحظ أنه فى الحالة الأخيرة أن الشيخ هو الذى يضبط إيقاع الذكر والإنشاد من أول الحضرة إلى

آخرها ووسيلته فى ذلك « التصفيق » . والشيخ فى العادة هو أول من يبدأ بصوته افتتاح الحضرة .

وتعتبر الحضرة ، فى ضوء ما سبق ، « النظام الجماعى للذكر » أو « حفلة الذكر » ، ومن ثمّ أهم التقاليد الروحية ممارسة فى الطريقة الصوفية . والملاحظ أنه على الرغم من أن الذكر ، على المستوى النظرى هو رأس الأعمال الصالحة ، ذلك لأن المقصود منه تزكية الأنفس وتطهير القلوب وإيقاظ الضمائر ، والذاكر حين ينفتح لربه جنانه ويلهج بذكره لسانه يمده الله بنوره فيزداد إيمانه إيماناً ويقينه يقيناً فيسكن قلبه للحق ويطمئن به .

« الـذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب »

(الرعد : ٢٨) .

على الرغم من ذلك فإننا نجد فى الواقع الحى فى المجتمع المصرى المعاصر ، فى هذا المجال ، أن ما يقال نظرياً لا يمارس فى الكثير من الأحيان عملياً ، وبخاصة فى محيط العديد من الطرق الصوفية . نجد أن الذاكرين منهم إذا ذكروا لا يذكرون « ذكر الله تعالى الوارد فضله فى الكتاب العزيز والسنة المقدسة ، المتلقى من رسول الله ﷺ بالطرق المتواترة والآحاد الصحيحة . فإنه عليه الصلاة والسلام أفصح العرب وأبلغهم وأصحابه الآخذون عنه هم من الفصاحة والبلاغة بالمكان الأعلى واللسان الأغلى ، والقرآن العزيز والسنة المطهرة إنما أخذا عنهم على الحال الواصل إلينا بطريق التواتر أو الآحاد الصحيحة من المد أو القصر والتفخيم أو الترقيق والإدغام أو الفك ونحو ذلك » .

وحلقة الذكر أصبحت فى الوقت الحاضر ظاهرة اجتماعية قد تعددت وظائفها ، وأصبحت هذه الوظائف فى الواقع المصرى الحى غيرها كما أمر الله جل ذكره وعلا شأنه ، والذى وصف أولى الألباب الذين ينتفعون بالنظر فى آياته بأنهم :

« الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم »
(آل عمران : ١٩١) .

والذى أرشد سبحانه وتعالى إلى الأدب الذى ينبغى أن يكون عليه المرء فى أثناء الذكر ، فقال :

« واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر
من القول بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين »
(الأعراف : ٢٠٥) .

أصبحت حلقة الذكر فى الوقت الحاضر تعقد فى الموالد وفى الأفراح وفى المواسم . نجد ذلك كما سبق أن أوضحنا فيما يسمى بـ « الحضرة » وفى حفلات الزواج « وفى حفلات الختان » وفى « شهر رمضان » . وقد تكون حلقة الذكر الأسلوب الوحيد للاحتفال ، وقد تكون أحد الأساليب للوفاء بالنذور .

وإذا كان لحلقة الذكر وظائف اجتماعية معينة فى المجتمع المصرى المعاصر ، فإنها هى نفسها إحدى وظائف الطريقة الصوفية . والملاحظ أن الانتماء إلى إحدى الطرق الصوفية يعنى إتاحة الفرصة للعضو لكى يجد نموذجاً فريداً من المنافذ الاجتماعية الذى ينفس أعضاء الطريقة عن طريقه عن الشعور بالعداوة الفردى أو الجماعى ، أو عن الشعور بالنقص ، أو الشعور بالذنب الفردى أو الجماعى ، إذا وجدت هذه الألوان من الشعور كلها أو بعضها .

والانتماء إلى إحدى الطرق الصوفية أيضا ييسر للعضو الشعور بالحماية .

فعمليات التضامن بين الأعضاء ، وتماسكهم فى ظل مناخ ثقافى معين ، فضلاً عن إحساسهم بنوع ما من الامتياز ، تكون كل هذه الأمور الملجأ الثقافى الاجتماعى الأمين لكل عضو منهم . ومن ثم تصبح الطريقة إحدى الجماعات « المرجعية » الهامة لأعضائها وتكون فى الوقت نفسه إحدى الجماعات « الضاغطة » فى المجتمع لها قوتها ونفوذها فى محيط مئات الألوف إن لم يكن الملايين من البشر (فى ضوء عدد الطرق الصوفية المنتشرة فى ربوع المجتمع المصرى المعاصر الرسمية منها وغير الرسمية) ، وهى بهذه الصفة قد تستغل ضد مصلحة هؤلاء الملايين من البشر .

والملاحظ كذلك أن الانتماء إلى احدى الطرق الصوفية يتيح للعضو أنواعاً شتى من المعرفة وخاصة ما تعلق منها بالسلوك الإنسانى والنظرة نحو الحياة والنظرة نحو الموت على الرغم مما يشوب هذه المعرفة من سلبيات . والدليل على هذه السلبيات واضح فى قرار المجلس الأعلى للطرق الصوفية المنعقد فى شهر يونيو عام ١٩٨٠ ، والذى يتضمن عدم الموافقة على إنشاء طرق جديدة إلا بشروط ، وشروط قاسية جداً . ذلك لأن فى مصر الآن ٦٧ طريقة صوفية . بعضها انحرف عن طريقه ، وبعد عن الدين وشعائره لدرجة أن إحدى الطرق (الطريقة البرهانية) غيرت من شريعة الله ، ورفعت تكاليف الصلاة عن بعض أتباعها .

الفصل الرابع

قنوات ثقافية إعلامية مصرية

١٣ ــ مركز اشعاع دينى مصرى

لم أدر متى كان عمرى عندما سألت أبى « انتو جبتونى منين ؟ » أقصده هو وأمى . وكنت بين مصدق ومكذب عندما قال وهو يبتسم « إحنا لاقيناك على باب الجامع (المسجد) فأخذناك وقلنا نربيك » . وبان على سمات وجهى عدم تصديق هذه المقولة وبخاصة عندما أصبحت الابتسامة ضحكة ثم قهقهة ! وكان اسم الجامع لأول مرة فى حياتى أسمع به أوعنه . وكان أبى رحمه الله يقصد مسجد « السيدة عائشة النبوية » الذى كان يقع محل عمله بجواره . ثم عرفت هذا الجامع أقصد مسجد السيدة عائشة النبوية الذى كان يقع ولا يزال فى حى الخليفة بمحافظة القاهرة عندما ذهبت إلى « الكتاب » الذى كان يقع فى رحابه . ورأيت الناس (الرجال والشبان) يدخلون إلى صحنه لكى يصلوا ثم يخرجوا . وكانوا عند دخولهم يخلعون « مداسهم » . وقد يكون هذا المداس « حذاء » وقد يكون « بلغة » أو « مركوباً » ، وعند خروجهم كانوا يلبسون ما خلعوه عند دخولهم فى الجامع . وكنت أرى فى أيام معينة وفى أوقات محددة بعض النساء يدخلن إلى هذا المسجد لزيارة ضريح السيدة عائشة تبركاً . وكان بعضهن يحملن أطفالهن . أما اللاتى لم يحملن أطفالاً فقد كن فى الأغلب

الأعم شابات فى صحبة سيدات كبيرات فى السن .

وكنت فى بيت الأسرة أرى الأعضاء الكبار رجالاً كانوا أو نساء يقومون ببعض الطقوس قيل لى عنها إنهم يصلون . وكانت صلاتهم فى أوقات محددة وكنت أجدهم يتجهون إلى جهة معينة دائماً ، قيل لى عنها إنها « القبلة » .

وفى المساء كان جدى والد أبى الذى كان يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب يصلى صلاة العشاء . وكنت أسمعه ويسمعه معى أهل الحارة التى يقع فيها بيت عائلتى ــ وهو يرتل آيات القرآن ترتيلاً فيه عذوبة وسلاسة تجتذب الأسماع .

هذا ما كنت أعرفه عن المسجد وأنا صغير السن . وعندما ذهبت إلى المدرسة الابتدائية كان أستاذ الدين يعلمنا الصلاة علماً وعملاً . كان يبدأ بالتأكيد على أن الصلاة ركن ركين من أركان الدين الإسلامى الذى اعتنقه فى البيت الذى كانت تعيش فيه عائلتى . ويبدأ بتعليمنا كيفية الوضوء ثم كيفية الصلاة . وعندما يحين وقت صلاة العصر كنا نصحب أستاذ الدين إلى مسجد المدرسة ليكون أمامنا فى هذه الصلاة يكبّر فنكبر ويركع فنركع .

وفى خلال دور المراهقة أصبت إصابة عنيفة غيرت مجرى حياتى عند وفاة أبى رحمه الله . وأحسست بأننى فى حاجة إلى الهجرة روحياً إلى الله جل وعلا وأننى فى حاجة ماسة إلى جماعة مرجعية أعيش فى كنفها لكى تحمينى ولكى أسهم بدورى فى حدود خبراتى فى حمايتها . فأسهمت مع غيرى فى إنشاء جماعة لكى تشرف على « مسجد » نصلى فيه ويصلى معنا الناس من أهل الحى (حى السيدة عائشة النبوية) .

ولم تكن وظائف هذه الجماعة الاشراف على المسجد فحسب ولكن كان من

وظـائفهـا تكـوين « جمعية تعاونية » (استهلاكية) لكى يتيسر على أعضائها تزويدهم بالسلع التى يحتـاجون إليها وفضلاً عن ذلك ، وهذا هو الأهم ، تغرس فى نفوس هؤلاء الأعضاء روح الديمقراطية التى رأينا منذ ذلك العهد البعيد أنها ضرورية للغاية .

وفى خلال فترة حياتى ذهبت إلى مئات المساجد ، سواء تلك التى تقع فى مدينـة القـاهرة أو غيرها من المدن الكبيرة أو الصغيرة على السواء . وكان من حظى أن أذهب إلى بعض مساجد القرى المصرية فى الوجه البحرى أو فى الوجه القبلى . وفى صلاة الجمعة كان يختارنى الناس المجتمعون للصلاة أحياناً لكى أخطب خطبة الجمعة وأصلى بالناس إماماً .

ولا يمكن أن أنسى صلاة الجماعة فى مسجد المؤسسة التى كنت أديرها . وهى مؤسسة الأحداث الجانحين بالعباسية أمام قلم المرور . كنت أصلى إماماً لبعض الأحـداث تقـويماً وتقـرباً منهم . وكـانت صلاة العيد (الفـطر أو الأضحى) فرصة ذهبية لكى يجتمع أكبر عدد من هؤلاء الأحداث الجانحين ليصلوا صلاة العيد ولكى يجتمعوا على قلب رجل واحد وبخاصة وأنا أدعو لهم فى الخطبة بالتوبة والهداية إلى الطريق القويم .

وفى « الجمعية الشرعية للعـاملين بالكتاب والسنة المحمدية » كانت لى جولات . فكنت أحرص الحرص كله لكى أصلى صلاة الجمعة فى مسجدها بشارع المغربلين ، وكنت أحرص أيضاً على سماع الدرس ، وكنت أخطب فى الناس وأقول ما كان يجول بخاطرى من مشاعر إنسانية نحو إمامها ومشايخها والأعضاء الحاضرين جميعاً . كنت أقول ما أقوله نثراً أحياناً وكنت أقول ما أقوله شعراً أحياناً أخرى .

وفى ضوء الخبرات السابقة وغيرها من الخبرات فى داخل الجمهورية وفى خارجها أحاول أن أكتب الدراسة الحالية عن « وظيفة المسجد فى المجتمع المعاصر » باعتباره « مركز اشعاع دينى » . أقدمها كمواطن مصرى فى ضوء هذه الخبرات النظرية والعملية . وإننى إذ اتحدث عن هذا الموضوع أتحدث عنه من وجهة النظر الثقافية الاجتماعية . فأنا لست رجل دين ، أى أننى لست متخصصاً فى علوم الدين واننى إذ اتحدث كمواطن عن وظيفة المسجد فى المجتمع المعاصر حديثاً يعبر عن وجهة النظر الثقافية الاجتماعية أحاول مخلصاً أن أربط حديثى بظروف عصرنا الحاضر . . . عصر الخمس الأخير من القرن العشرين .

والملاحظ أن الناس إذ يعيشون يعيشون حياتهم عادة ، فى مجتمعات . فالمجتمع يعنى وجود أناس (رجال ونساء وأطفال) يعيشون فى بيئة جغرافية معينة حياة مستقرة نسبياً . وينتظمون ، بالضرورة ، فى جماعات . . جماعات اجبارية أحياناً (كالأسر أو العائلات) أو جماعات اختيارية أحياناً أخرى (كجماعات اللعب والترفيه) . كما ينتظمون فى مؤسسات ثقافية اجتماعية منها المؤسسات التربوية (المدرسة) أو المؤسسات الاقتصادية (الحقل أو المصنع) ، أو المؤسسات السياسية (الاحزاب مثلاً) أو المؤسسات الدينية (المسجد أو الكنيسة) . . . إلخ ويعملون فى ضوء ما لديهم من أساليب علمية تطبيقية أو فنية مثل الجمع والرعى والزراعة والتجارة والصناعة . . فى سبيل تحقيق بعض الأهداف الكبيرة كحفظ الحياة وحفظ النوع مثلاً ، فى ظل مناخ ثقافى اجتماعى معين . . أى فى ظل عقائد معينة وقيم اجتماعية معينة ومبادىء ومثل عليا معينة وتقاليد وعادات معينة . . . إلخ .

والملاحظ أيضاً أن مفهوم « المعاصر » لا يعنى مفهوم « العصرى » . ذلك

أن مفهوم العصرى يعنى فى الواقع أهم السمات الثقافية التى يتميز بها عصر من العصور . ومن ثم فهو مفهوم متغير . لأن العصور ، كما يعلم القارىء ، فى تغير مستمر . وأن السمات الثقافية لعصر من العصور تختلف عادة عن السمات الثقافية للعصر الذى يسبقه ، أو العصر الذى يليه . ومع ذلك فإن بعض السمات الثقافية وليس كلها ، يستمر عادة مع توالى العصور . . أى أنه يتخلف من العصور السابقة ويبقى فى العصور التالية . وبمرر الزمن قد يتطور وقد يتغير .

والسمات الثقافية لعصر من العصور . . أى عصر . . ، تكون فى الواقع إما سمات ثقافية مادية أو سمات ثقافية غير مادية . وتتضمن السمات الثقافية المادية العناصر الثقافية المادية التى يتميز بها العصر ويعيش بها مثل الآلات ووسائل المواصلات والمبانى والأثاث ، ومثل وسائل الاتصال كالتليفزيون والتلغراف والتليفون . . أما السمات الثقافية غير المادية فهى تتضمن العناصر الثقافية غير المادية مثل المعتقدات واللغة والعادات والاعراف والقيم والمثل العليا ، فضلاً عن الأساليب الفكرية التى تعبر عنها مثل الأسلوب العلمى والأسلوب الفنى . . . إلخ .

والعناصر الثقافية بنوعيها فى عصر من العصور هى فى الوافع تراثه الثقافى . ويلاحظ أن العناصر الثقافية المادية تتغير عادة بسرعة أكبر من العناصر الثقافية غير المادية ، أى أنه بينما تتطور العناصر الثقافية المادية بخطى أوسع ، نجد أن العناصر الثقافية غير المادية فى تطورها تتخلف . وهذا ما يعبر عنه بظاهرة « التخلف الثقافى » . وأهم مظاهر هذه الظاهرة ما يمكن أن يعبر عنه بـ « الرواسب البالية » .

وإننى أرى أن السمات الثقافية لعصرنا الحالى ــ الخمس الأخير من القرن

العشرين ـــ سمات عديدة . منها السمات الثقافية المادية مثل استخدام الذرة ، والتكنـولوجيا الصناعية والعسكرية ، ومحاولة التسلط على الظاهرة الفلكية ، والطيران فى القضاء الخارجى .

ولعل أهم عناصرها الآن استخدام الأساليب التى توفر تفكير الإنسان وتوفر بذل قدراته وتقوم هى بهذا التفكير وبذل هذه القدرات ، دون أن يعنى ذلـك بالـطبع الاستغناء تماماً عن تفكير الإنسان أوعن قدراته أو اعتبار هذا التفكير أو هذه القدرات ، فى الحالتين ، أموراً متماثلة . ودون أن يوحى ذلك بأن الإنســان ، كإنســان إن هو إلا آلة من الآلات ، ويضم هذه الأساليب ما يعـبر عنه بالنظم السبرنيتكية (Cybernetique) ومن السمات الثقافية غير المادية لعصرنا الحالى يمكن أن نذكر التفكير العلمى والمبادىء الديمقراطية بأنماطها ، فضلاً عن المبادىء التى تهدف إلى تحرير الإنسان ولعل أهمها الآن المبادىء الاشتراكية .

ومهـما يكن من الأمـر فإن السـمات الثقـافية لعصرنا الحالى المادية وغير المادية ، يجب أن تتوافر معاً حتى يمكن أن نقول إن مجتمعاً ما يتمثل مفهوم العصرى فعلاً ، أى أنه يعيش ، بحق ، فى عصره . ويعنى ذلك أن يضيق نطاق الرواسب البالية فى المجتمع حتى تقل هذه الرواسب ويتلاشى أو يضعف تأثيرها فى عقول أعضاء المجتمع . أى أن يبذل الجهد كل الجهد فى القضاء أولاً بأول على أهم ظاهرة التخلف الثقافى .

أما مفهوم المعاصر فيعنى به السمات الثقافية بعناصرها المادية وغير المادية التى يتميز بها مجتمــع من المجتمعــات فى فترة معينــة من الـزمن تكـون ، بالضرورة ، الفترة الحاضرة . فمجتمعنا المصرى المعاصر مثلاً ، يعنى المجتمع الذى نعيش فى واقعه الحى فى الوقت الحاضر . ولعل قياس عصرية مجتمعنا

المعاصر يتم بمقارنة ما يتضمنه من سمات ثقافية بعناصرها المادية وغير المادية ، الآن ، بالنسبة لما يتضمنه عصرنا الحالى ، أى عصر الخمس الأخير من القرن العشرين ، وما يتميز به هذا العصر من سمات ثقافية بعناصرها المادية وغير المادية .

إن هذه المقارنة ليست سهلة ولكنها فى ضوء تطبيق المنهج العلمى يمكن أن تتم . مع الأخذ فى الاعتبار العوامل التاريخية والثقافية الاجتماعية والاقتصادية التى هى ، فى الواقع ، عوامل وجود المجتمع المصرى المعاصر الذى نعيش فى واقعه الحى فى الوقت الحاضر .

ومجتمعنا المصرى المعاصر هو نتاج عوامل وجوده التاريخية والثقافية الاجتماعية والاقتصادية ومن أهم سمات هذا المجتمع أنه مجتمع قديم . إن عمره المكتوب هو نحو سبعة آلاف عام . أما عمره غير المكتوب فلم يستطع إنسان حتى الآن أن يعرف ، بالضبط ، له عدداً . وقد بنى هذا المجتمع فى خلال عمره الطويل حضارات عديدة أصيلة . وفى خلال تاريخهم القديم قدم الدهر غيّر المصريون الكثير من العناصر الثقافية المادية وغير المادية . فقد جدد الزارع المصرى فى الحقل أدواته فى الزراعة والرى ، ونوّع فيها على مر الزمن . وجدد أنواع محصولاته فأضاف إليها نباتات جديدة من وقت لآخر ، وجدد أنواع الحيوان المستأنس وأضاف إليها ما لم يكن معروفاً من قبل .

وقد غير المصريون لغتهم التى يتكلمون والتى يكتبون بها أكثر من مرة فى خلال تاريخهم ، واستبدلوا بدينهم ديناً آخر مرتين أو أكثر . وعاش المجتمع المصرى القديم واستمر حتى الآن ، على الرغم من العادات ومن الظلم ومن الألوان القاتمة من البؤس التى قاساها ، محتفظاً بروحه العالية ، ومحتفظاً بتماسكه وحيويته . ونجد أبناءه يحاولون الآن صنع حياتهم من جديد ويغيرون

من أنفسهم من جديد إلى الأفضل ، على الرغم من بعض المعوقات .

وإذا كان من سمات المجتمع المصرى المعاصر أنه مجتمع قديم ، وأنه مجتمع مستمر ، فإننا نجد أن ظواهر التغير الاجتماعى والتغير الثقافى والتخلف الثقافى من سماته كذلك . فالملاحظ أن تراث المجتمع المصرى المعاصر أو بعضه يتغير فى الوقت الحاضر ، وأن بناءه الاجتماعى وحتى بناءه المادى يتغيران كذلك . والأمثلة على ذلك كثيرة ويكفى أن نذكر منها الصراع بين بعض الأدوار الاجتماعية الجديدة ، والأدوار الاجتماعية القديمة ، والصراع بين تطبيق الأسلوب العلمى وتطبيق غيره من الأساليب التقليدية ، والصراع بين التعليم والأمية ، وحدة التناقض بين بعض المعايير الثقافية ، وضعف سلطان القواعد أو المعايير السلوكية فى بعض الأحيان ، والحاجة الماسة إلى تعاريف جديدة متفق عليها لبعض المفاهيم الجديدة أو بعض المواقف الاجتماعية الجديدة ، وما ينتج عن كل ذلك من نتائج ، هى أهم التحديات التى يواجهها المجتمع المصرى المعاصر .

فالملاحظ أن التحديات ليست هى ، فحسب ، تحديات عمليات الانتاج القائمة فى هذا المجتمع فى الوقت الراهن ورفع مستوى المعيشة وإرساء التنظيم السياسى فيه ، وغرس المبادىء الجديدة فى نفوس أعضائها وتطبيق قواعد العدالة وتكافؤ الفرص فى محيطهم ، ومواجهة الاستعمار وأذنابه فى الداخل وفى الخارج . . بل هى ، أيضاً خلق المناخ الثقافى الاجتماعى الإيجابى الذى فى ظله يمكن أن نواجه كل هذه التحديات .

إن خلق المناخ الثقافى الاجتماعى الإيجابى يعنى المحاولة الإيجابية لتطهير المتناقضات الثقافية فى مجتمعنا المعاصر ، كما يعنى المحاولة الإيجابية للتخفيف

من حدة ألوان الصراع الناشىء عنها . وإن تطهير المتناقضات الثقافية والتخفيف من حدة ألوان الصراع الناشىء عنها ييسران بالضرورة وضوح الرؤية عند أعضاء مجتمعنا المصرى المعاصر .

إن وضوح الرؤية فى محيط أبناء الشعب المصرى المعاصر ، فى ضوء المهام الملقاة على عاتقهم فى الفترة الحالية من عمر مجتمعنا ، يعنى تيسير بذر بذور الاستعداد للتغير إلى الأفضل فى نفوسهم . فهو يعنى الإدارك والفهم ، أى هو يعنى تيسير الاستيعاب لكل ما يعمل فى المجتمع ، ولكل ما يقال فيه ، ولكل ما يصنع فيه . . وتمثل كل ذلك . كما يعنى الثقة المتبادلة بالقادرين المخلصين من أبنائه الذين يعملون والذين يقولون والذين يصنعون . وهو يعنى كذلك إدراك توقيت كل ما يعمل وكل ما يقال وكل ما يصنع ، وإدراك ظروف هذا التوقيت .

ووضوح الرؤية فى محيط أبناء الشعب المصرى المعاصر ، فى ضوء المهام الملقاة على عاتقهم فى الفترة الحالية من عمر مجتمعنا ، لا يعنى الادراك والفهم والاستيعاب والتمثل والثقة المتبادلة بالقادرين المخلصين من أبنائه وبناته الذين يعملون فيه والذين يقولون والذين يصنعون فحسب ، بل هو ييسر غرس الحاجة الملحة إلى كل ذلك . . حاجة أعضاء الشعب المصرى المعاصر الملحة إلى كل ذلك . وإن غرس الحاجة الملحة إلى كل ذلك فى نفوس أبناء الشعب المصرى المعاصر يعنى فى الواقع تيسير الظروف المواتية لتفجير طاقاتهم الإنسانية الكامنة لتعمل ، كلها ، فى سبيل توفير الإمكانات ، المادية والمعنوية جميعاً ، التى تيسر تحقيق الأهداف . . كل الأهداف .

نحن فى مسيس الحاجة ، فى ضوء ظروف مجتمعنا المعاصر إلى **العمل البناء القادر الواعى** . إن هذا العمل هو شرط وجودنا الانسانى . والتحديات التى

تواجهنا ، كلها ، نستطيع بالعمل البناء القادر الواعى ، وحده ، أن نواجهها وأن نوجهها فى سبيل الخير الذى نأمله .

والملاحظ أن العمل البناء القادر الواعى يصدر ، بالضرورة ، عن شخصيات اجتماعية قادرة واعية . والملاحظ ، أيضاً ، أن الشخصية الاجتماعية تكتسب عادة فى المجتمع الانسانى . فالمواطنون الصالحون وغير الصالحين هم أعضاء المجتمع . . أى مجتمع . وهم كأعضاء فى المجتمع لا يعيشون فى فراغ . أى أنه لا يوجد فرد أوشخص لا يعيش فى علاقات اجتماعية دائمة . . . أى فى جماعات . وأعضاء المجتمع كأشخاص . . أقصد كأفراد لهم شخصيات ، موجودون فى كل المجتمعات . ولكن نلاحظ أن الطفل ، مهما كان لون المجتمع الذي ولد فيه ويعيش ، هو فرد لم تتكون شخصيته ، أى أن شخصيته لاتزال فى دور التكوين .

ونلاحظ ، أيضاً ، أن شخصية كل شخص تزداد نمواً كلما نما هذا الشخص جسمياً ونضج عقلياً وعاطفياً ، وكلما نمت خبراته الاجتماعية . أى كلما ازدادت علاقاته الاجتماعية واتسعت مجالاتها . أى كلما تعددت أدواره الاجتماعية (مثل دور الأب ودور الأم ودور الأبن ودور الابنة فى الأسرة . وفى محيط العمل مثل دور الجندى ودور الرئيس ودور المرؤوس ، أودور التلميذ أودور الطالب فى المدرسة أو الجامعة . . . إلخ) التى يؤديها للمجتمع الذى يعيش فيه ، فى محيط الجماعات التى ينتمى إليها .

ونلاحظ مرة ثالثة أنه كلما ازداد تعدد الأدوار الاجتماعية عند شخص معين كلما زادت مكانته الاجتماعية ارتفاعاً . وإذا كانت العلاقة الاجتماعية المستمرة فى مجالات الجماعات البشرية هى التى تصنع الأفراد ، أى تجعلهم أشخاصاً ، أى أفراداً ذوى شخصيات . . فإن هذه الجماعات تصنع أيضاً المجتمع ، أى

أن هذه الجماعات هى قوام المجتمع . ومع ذلك فإننا نرى أنه إذا كانت الجماعة تصنع أعضاءها فإن أعضاءها يصنعونها كذلك . فما يقدمه الأعضاء فى الجماعة من قدرات وآراء ومشاعر يحدد بالضرورة مدى حيوية الجماعة ومدى تحقيق أهدافها ، وما تقدمه الجماعة للأعضاء يعتمد بالضرورة على مستوى قيمة التجربة أو التجارب التى يصنعها الأعضاء معاً كفريق فى داخل الجماعة .

وإذا كانت حياة عضو المجتمع فى جماعات ، كما سبق أن أوضحنا ، أمراً ضرورياً لأنه منذ أن يبدأ حياته يعيش فى علاقات اجتماعية دائمة ، فالملاحظ أن أهم الجماعات الأساسية ــ التى يكون عضو المجتمع فى ضوء الضرورة الاجتماعية عضواً ــ فيها هى الجماعات التى تقوم بعمليات التنشئة الاجتماعية لأعضاء المجتمع ، أقصد الأجهزة الاجتماعية التى تقوم بإعداد أعضاء المجتمع ، ليؤدوا أدوارهم الاجتماعية كما يتوقعها منهم المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون .

وتوجد هذه الأجهزة الاجتماعية فى كل المجتمعات . ولكن وظائفها فى مجتمع ما قد تختلف عنها فى مجتمع آخر . وذلك لأن المناخ الثقافى الذى يظلل المجتمعات يكون ، فى الكثير من الأحوال ، مختلفاً ، حسب عقائد كل مجتمع وقيمه ومثله العليا . والجماعات الاجتماعية الأساسية المشار إليها عديدة ، تتكون منها الأسرة والعائلة والمؤسسة الدينية والمدرسة ومؤسسة شغل أوقات الفراغ والمؤسسة السياسية ومؤسسات الإعلام والثقافة (الصحف ، الكتب ، السينما ، الإذاعة والتليفزيون) .

والمؤسسة الدينية الاسلامية فى مجتمعنا المعاصر تتضمن أهم ما تتضمن المسجد وما يتصل به من نشاطات . والمسجد فى ضوء النظرة الثقافية الاجتماعية هو مؤسسة ثقافية اجتماعية . وهو ككل مؤسسة ثقافية اجتماعية له بناء اجتماعى

معين وله وظائف ثقافية اجتماعية معينة كذلك . ويقصد بالبناء الاجتماعى للمسجد نظامه الداخلى الذى يتضمن طبيعة العلاقات الكلية بين المسئولين الذين يعملون فيه (شيخ المسجد وإمامه وخطيبه والمؤذن وقارىء السورة والخادم . .) فى ضوء أدوارهم ومكانتهم الاجتماعية والمبادىء التى تحكم هذه العلاقات .

والملاحظ أن أهم دور اجتماعى فى البناء الاجتماعى للمسجد وأرفع الأدوار الاجتماعية الأخرى مكانة هو دور « إمام المسجد » ، وأن أهم المبادىء التى تحكم العلاقات بين الأدوار الاجتماعية فى المسجد هو مبادىء « الشريعة الإسلامية » .

أما الوظيفة الثقافية الاجتماعية للمسجد فهى النشاط الانسانى المنتظم الذى يقوم به المسئولون على المسجد كجماعة منظمة فى المجتمع بقصد تحقيق الخير لأعضائه . والملاحظ أن النشاط الانسانى المنتظم كوظيفة ثقافية اجتماعية للمسجد قد اختلف من عصر إلى عصر ولكنه مهما اختلف أو تغير فقد كانت أهدافه دائماً ، فى ضوء القيم الاجتماعية والمبادىء والمثل العليا السائدة فى أى عصر ، تسعى إلى تحقيق الخير لأعضاء المجتمع . والذى كان يتحقق أحياناً وقد لا يتحقق فى أحيان أخرى .

والملاحظ أن دور رجل الدين فى شخص « إمام المسجد » ومساعديه دور هام جداً . فهو واحد أو يجب أن يكون واحداً ، من القادة الثقافيين الاجتماعيين فى مجتمعنا المعاصر الذين يقومون بالإسهام فى عملية التنشئة الاجتماعية لأعضاء هذا المجتمع . وأنه يفعل ذلك . أو يجب أن يفعل ذلك ، بالتعاون مع غيره من القادة الثقافيين الاجتماعيين الآخرين مثل الطبيب والمدرس والأخصائى الاجتماعى والمسئول السياسى والمسئولين عن أجهزة

الإعلام والثقافة وغيرهم . . فضلاً عن آباء المجتمع وأمهاته .

ويعتبر هؤلاء القادة فى حكمهم رموز النظام الاجتماعى ولسان حاله ، وهم فى حقيقة الأمر يكونون جزءًا هاماً من كل شخص من أعضاء المجتمع ، أى أن سلوك أعضاء المجتمع وأداء أدوارهم الاجتماعية يكونان « عادة » فى حدود النظام الاجتماعى الذى يعيشون فيه .

وقد آن الأوان لكى تهدف مهنة كمهنة رجل الدين إلى توضيح مكانها المناسب فى المجتمع المصرى المعاصر ، وإننى أرى على سبيل المثال أن علاقة رجل الدين بالطبيب علاقة ذات أهمية خاصة . وفى ضوء التاريخ نجد أن كلًا من رجل الدين والطبيب ، فى بعض الفترات ، قد عملا معاً فى انسجام وتآزر وتفاهم . وفى أحيان أخرى نجدهما قد عملا فى سبيل تحقيق أهداف مماثلة وأن كان اعترافهما بأهدافهما المشتركة اعترافاً جزئياً .

وإذا رجعنا إلى الماضى السحيق نجد أن مهنة الطب كانت مجرد فرع من فروع مهنة رجل الدين . وكان من نتائج هذا الاتصال الوثيق بين المهنتين بعض الصعوبات وإن كان يمكن أن ينتج عنه التعاون الضرورى بينهما .

ومهما يكن من الأمر فسواء اعترف بهذا التشابه بين المهنتين فى الأصول والفروع والأهداف أم لم يعترف به فإنهما فى واقع الأمر تتقابلان فى مواقف اجتماعية عديدة : عند كوارث الولادة ، مثلاً ، والأمراض الخطيرة وعند الموت . وهما يخدمان فى بعض الأحيان نفس الأشخاص .

إن ما يعانى منه المريض قد يدفعه إلى زيارة عيادة الطبيب ، كما يدفعه كذلك إلى زيارة رجل الدين فى المسجد . وبالإضافة إلى ذلك نجد أن المهنتين فى حاجة ماسة إلى الاعتراف بالإسهامات الرائعة التى قامت بها العلوم

الانسانية كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الانثروبولوجيا . ولا يكتفى بالاعتراف ، ولكن يجب أن تعمل المهنتان جنباً إلى جنب مع هذه العلوم وفى سبيل تطبيقها فى سبيل خير الإنسان .

ولعل تعاون رجل الدين فى شخص « إمام المسجد » بمساعدة الطبيب أن يتأكد مع غيره من القادة الثقافيين الاجتماعيين الآخرين ، مثل : المدرس فى المدرسة والأخصائى الاجتماعى فى المؤسسات الاجتماعية التربوية ، والمسئول السياسى والمسئولين عن أجهزة الاعلام والثقافة وغيرهم فضلاً عن آباء المجتمع وأمهاته . والملاحظ أن مجتمعنا المصرى المعاصر يتطلب فعلاً هذا التعاون ويرجوه ، وهو فى ضوء ظروفه الاجتماعية الراهنة فى مسيس الحاجة إلى تشجيعه والحرص عليه .

والمسألة فى رأيى المتواضع تحتاج إلى التخطيط الرشيد وإلى التنسيق الواعى . وليلاحظ القارىء أن مشكلة تنظيم الأسرة فى مجتمعنا المعاصر عندما واجهها الطبيب وحده لم تؤت هذه المواجهة ثمارها المرجوة . وذلك لأن الطبيب ، كواحد من القادة الثقافيين الاجتماعيين فى المجتمع لا يمكن أن ينجح وحده فى هذا المجال . وإنه لكى ينجح يجب أن يتعاون مع بعض قادة المجتمع الثقافيين الآخرين ، ومنهم بالضرورة رجل الدين والأخصائى الاجتماعى والمسئول السياسى والمسئولون عن أجهزة الإعلام والثقافة وغيرهم . وما ينطبق على مشكلة تنظيم الأسرة فى مجتمعنا من حيث وجوب تعاون القادة الثقافيين الاجتماعيين فى المجتمع المعاصر ينطبق أيضاً على مشاكل الأمية ، وظاهرة الثأر والجرائم بأنماطها ، وبخاصة جرائم تعاطى المخدرات ، ومشكلة القضاء على مرض البلهارسيا وغيرها .

والملاحظ أن رجل الدين فى مجتمعنا المعاصر ذى التاريخ القديم المستمر

له مكانة اجتماعية مكتسبة عالية فى هذا المجتمع . . هى فى الواقع أعلى المكانات الاجتماعية . أى أن رجل الدين فى هذا المجتمع له سلطان معنوى كبير على أعضائه . والملاحظ أيضاً أن القول بأن الشعب المصرى المعاصر شعب متدين لا يختلف عليه اثنان . والمقصود بظاهرة التدين هنا الحرص على آداء الواجبات الدينية من فروض وسنن ونوافل . ولعل وجود المساجد والزوايا التى لا تحصى فى مجتمعنا ، ولعل تلاوة القرآن الكريم المستمرة التى تملأ المناخ الثقافى لهذا المجتمع ، ولعل إذاعة آذان الصلوات من على المآذن ، أو عن طريق أجهزة الإعلام . . وإذاعة البرامج الدينية العديدة عن طريق هذه الأجهزة ونشر المقالات الدينية فى الصحافة ، ولعل رواج بيع الكتب الدينية فى محيط أعضاء المجتمع . . لعل كل هذه اللأمور وغيرها . . يؤكد وجود ظاهرة التدين ويؤكد احترامها وتقبلها ، كما يؤكد تأثيرها وآثارها فى محيط أعضاء مجتمعنا المعاصر .

وفى ضوء الحقائق السابقة نلاحظ أن دور المسجد ـ كمؤسسة ثقافية اجتماعية أو كجهاز اجتماعى يسهم فى عمليات التنشئة الاجتماعية لأعضاء المجتمع المعاصر ـ دور كبير الأهمية أو يجب أن يكون كذلك . إن دور المسجد يعنى فى هذا الضوء الإسهام فى تكوين المواطنين الصالحين الذين يحتاجهم مجتمعنا المعاصر فى الوقت الحاضر احتياجاً ملحاً . فإننى أرى ولعل القارىء يرى ما أراه ، أننا فى ضوء ظروف مجتمعنا الحالية نواجه معركة تحقيق الحياة الفاضلة . وإذا كان من واجبنا أن نعمل جاهدين على أن لا يعلو صوت على صوت هذه المعركة ، فإنه يجب أن نركز اهتماماتنا وطاقتنا نحو تحقيق النصر فى هذه المعركة .

إن معركة تحقيق الحياة الفاضلة تعنى فى حقيقة الأمر الانتصار على

التحديات التى تواجهنا فى سبيل تحقيقها ومنها الانتصار على أدوائنا ومشاكلنا وتطهير أرضنا من الفسوق والعصيان جميعاً . إن هذه المعركة كلّ لا يتجزأ . وذلك لأن كسب الحرب ، أى الانتصار على هذه التحديات ، يحتاج أول ما يحتاج إلى المواطنين الصالحين . وإن تكوين هؤلاء المواطنين الصالحين جزء لا ينفصل عن استعداداتنا لتحقيق أهدافنا : الانتصار فى سبيل تحقيق الحياة الفاضلة التى تتسع لأعضاء مجتمعنا المعاصر لكى ينطلقوا يشيدون للمستقبل ويعمرون للإنسان ويبنون للحرية .

والملاحظ أن المواطن الصالح **هو شخص له سمات معينة** . والملاحظ أيضاً أن تحديد السمات الشخصية الضرورية لشخصية المواطن الصالح الإنسانية أمر غير يسير ، وحتى محاولة هذا التحديد ليست سهلة كذلك لأن تحديد سمات شخصيات المواطن الصالح وحتى محاولة هذا التحديد يحتاجان للقيام بهما أو بأحدهما إلى العديد من المتخصصين . . منهم بالضرورة رجل الدين . ولا يعنى تحديد سمات شخصية المواطن الصالح ، أو محاولة هذا التحديد . . أننا نهدف إلى تحويل أعضاء المجتمع إلى قوالب جماعية . **إننا لانود أن نتعامل أبداً مع قوالب جماعية** ، ولكن نود أن نتعامل مع أناس من البشر ، أناس متباينين . . أى أناس من حقهم أن يتباينوا وأن يختلفوا .

إن أهم اهتماماتنا هو أن نيسر لكل عضو عن طريق علاقاته بجماعاته ، وأن ينضج فى الاتجاه الذى يميزه عن غيره ، وأن يصبح ذاته الكاملة ، وأن يكوّن الاحساس الخاص بقيمته كشخص . ليكون فعلاً وحقاً عضواً فى المجتمع أكثر نفعاً وأكثر قيمة . وذلك بأن ييسر المجتمع له أن يكون شخصاً صحيحاً نامياً ويحب الخير والكرامة الاجتماعية ، ويستطيع أن يواجه قوانين السلوك العامة مواجهة سوية ، ويستجيب للمواقف الإنسانية المتعددة استجابة

سليمة . ويكون مدربا على فن الحياة الاجتماعية ، ويستطيع أن يهنأ بالكفاح والعمل وبأداء الخدمات العامة . أى ليستطيع أن يؤدى أدواره الاجتماعية فى ضوء ما يتوقعه منه المجتمع المعاصر على هدى قيمه ومبادئه ومثله العيا .

ولكى يسهم المسجد فى المجتمع المعاصر بالقيام بهذا الدور الاجتماعى الخطير فإننى أرى ، فى ضوء كل ما ذكر سابقاً ، ضرورة **تحديد وظيفة المسجد باعتباره مركز إشعاع دينى فضلاً عن أنه جهاز من أجهزة التنشئة الاجتماعية** فى هذا المجتمع ، وبالإضافة إلى ذلك ، ضرورة تحديد دور رجل الدين فى المسجد فى ضوء تحديد وظيفة المسجد ، حتى تتضح الرؤية لنا ونكون على بينة من أمرنا .

إن العبرة . . كل العبرة . . أن نقول ما هو خير ، وأن نستعد لقبول ما نقوله ، وأن نمارس عملياً فى ضوء قيمنا ومبادئنا ومثلنا العليا ما تقبلناه من أقوال خيرة . أى أن القول الخير مهما تكرر لا يكفى . والاستعداد لقبوله لا يأتى اعتباطاً ، وأن ما يقال فى حاجة إلى أن يدرك ويفهم وأن يستوعب وأن يتمثل . . وأن يكون مطلوباً فعلاً أو محتاجاً إليه . والاستعداد لقبول ما يقال وحده لا يكفى . ولكن يجب أن تتاح لما يقال فرص وجود الإمكانيات المادية والمعنوية كلها التى تيسر الممارسة العملية الفعالة حتى نثرى خبراتنا وتجاربنا فى محيط القادة ، وفى محيط أعضاء المجتمع المصرى المعاصر على اختلاف فئاتهم العريضة .

والملاحظ أن المسجد كمؤسسة ثقافية اجتماعية له تاريخ طويل وله قدسية وإجلال ، وآثاره فى نفوس المسلمين لا تخفى على أحد . وفى ضوء تاريخه الطويل نجد أن رسالة المسجد قد تضمنت التوجيه والتوعية والتعليم وبث روح الإسلام ونشر تعاليمه . وقد أسهم المسجد الأول فى الإسلام بالدور الإيجابى

فى بناء الدولة الاسلامية والدور القيادى لما بعده من مساجد . وفيه نزل الوحى على رسول الإسلام . وكان رسول الإسلام يستقبل فيه السفراء ، ويدير شئون الدولة ويخطب جماعة المسلمين على المنبر فى الأمور السياسية والدينية ، أى أن بين جنبات هذا المسجد كانت الصفوة المختارة من الصحابة تتعلم وتتثقف . ومنه انطلقت جحافل المجاهدين تغزو وتفتح وتنشر الإسلام فى المشرق والمغرب . وفى أيام أبى بكر وعمر وعثمان كان المسجد مركزاً للخلافة الإسلامية . وكان المسجد فى عهد عمر بن الخطاب المكان المختار فى قضائه وتدبير شئون دولة الإسلام الفتية .

وعندما فتح المسلمون مصر فى عام ٢٠ هجرية ، كان أول عمل قام به قائد المسلمين أن بنى المسجد وبنى بجواره بيته ، وبنى أصحابه حواليه حتى أسسوا مدينة الفسطاط . وقد بنى هذا المسجد فى مصر ليكون نقطة الارتكاز التى ينشأ عليها إطار الإسلام ، وفى أول أمر هذا المسجد كانت تذاع فيه الأخبار الهامة التى تهم الدولة . وفى هذا المسجد جلس للتدريس أحد الصحابة الأجلاء ، ثم تكاثرت فيه حلقات الدراسة بعد ذلك . وتطور هذا المسجد إلى مركز ثقافى عظيم ومحكمة للقضاء فيما بعد .

والملاحظ أن العلوم التى كانت تدرس بالمساجد لم تكن قاصرة على علوم الدين ، وإنما كانت تتعداها إلى سواها من معارف العصر . ومن الأمثلة على ذلك نجد أن علم الكلام والدراسات الأدبية واللغوية ، وعلوم الكيمياء والطب والصيدلة والهندسة والميكانيكا والسياسة والمال كانت كلها تدرس فى المساجد الإسلامية .

وفى كلمة نلاحظ أن المسجد ، فى مجتمعنا وفى غيره من المجتمعات لم يكن مكاناً للعبادة وحدها بل كان جامعة تحمل المشعل لنشر الدعوة الاسلامية وعلوم

العصر ومعارفه ، وكانت تثقف القادة والمصلحين وتكونهم فى جميع الميادين فى داخل البلاد الإسلامية وخارجها . كما كان المسجد مجلس أمة ومركزاً للخلافة وداراً للقضاء ، وفضلاً عن ذلك كان جهازاً من أجهزة الإعلام .

ومع ذلك فإننا نجد أن وظيفة المسجد بمرور الزمن ، وفى ضوء الظروف السياسية والاجتماعية القاسية التى واجهها مجتمعنا فى الماضى ، قد تقلصت . وأصبحت هذه الوظيفة فى معظم الأحيان مجرد آداء الفرائض أو بعضها ، والقيام ببعض الدروس التى لا تمت إلى الحياة بصلة فى معظم الأحيان . أى أن وظيفة المسجد أصبحت تجعل منه فى معظم الأحيان مكاناً لنوع معين من العبادة . . هو نوع باهت غير متعمق لا روح فيه ولا صدق ولا يصل إلى أغوار النفس . وفضلاً عن ذلك نجد بعض المساجد وبخاصة التى دفن فيها أولياء الله قد أصبحت قبلة لزيارة أعضاء مجتمعنا الذين يعتبرون بعض هؤلاء الأولياء أصحاب نفوذ واختصاصات ، ومنهم من يرسلون إليهم رسائل بالبريد يطلبون منهم فيها أموراً معينة أو يشكون فيها إليهم من أمور معينة . ومنهم من يقدمون إليهم النذور النقدية أو العينية فى مقابل تحقيق رغبة شخصية هم فى حاجة إليها ، أو فى مقابل دفع ضر يريدون أن يتجنبوه ويتحاشوه .

وقد اكتشفت فى احدى الدراسات أن بعض الرسائل ترسل بالبريد إلى مسجد الإمام الشافعى حيث يعد فيها مرسلوها بإرسال النذور إلى الإمام الشافعى إن تحققت طلباتهم . وأعضاء مجتمعنا المعاصر إذ يفعلون ذلك يفعلونه على الرغم من أن الاسلام ينهى عن الاعتقاد فى قبور الصالحين والأولياء أنها تنفع أو تضر ، أو تقرب إلى الله تعالى ، أو تقضى الحوائج بمجرد التشفع بها .

ووظيفة المسجد كجهاز من أجهزة التنشئة الاجتماعية فى مجتمعنا المعاصر

تعنى أشياء كثيرة ، منها بل أهمها العودة إلى رسالة المسجد القديمة ، وبخاصة ما تعلق منها **بتخريج أو الإسهام فى تخريج القادة والمصلحين الذين يحتاجهم المجتمع** . ومنها أن يكون المسجد مركز إشعاع فى البيئة الثقافية الاجتماعية التى يوجد فيها ويهتم أول ما يهتم بالناس الذين يعيشون فيها ، الأطفال منهم والشباب والرجال والنساء على السواء ، **أى أن يتعاون التعاون الأكيد مع أسر الحى وعائلاته** . ومنها أن يكون المسجد معهداً للتعليم والاطلاع الثقافى أى أنه **يتعاون تعاوناً صادقاً مخلصاً مع المدرسة ومع الجامعة** . ومنها أن يكون المسجد جهازاً مخلصاً لتحقيق مبادىء المجتمع وقيمه ومثله العليا المعاصرة ، **أى أنه يتعاون تعاوناً وثيقاً مع أجهزة الإعلام فى المجتمع** . ومنها أن يكون المسجد مكاناً صالحاً ليجتمع فيه القادة الثقافيون الاجتماعيون الحقيقيون من أعضاء الحى الذى يوجد فيه حيث **يتدارسون تحت اشراف إمام المسجد مشاكل الحى** الثقافية الاجتماعية وأعضاءه المشكلين . أى أن يكون المسجد فضلاً عن أنه مكان للعبادة مركزاً اجتماعياً يقوم فى جد واخلاص ويشترك مع غيره من أجهزة التنشئة الاجتماعية فى المجتمع المعاصر **فى عمليات التنشئة الاجتماعية فى محيط المادة البشرية** فى البيئة الثقافية الاجتماعية التى يوجد فيها ، **وفى عمليات وقاية هذه المادة البشرية وفى عمليات علاجها على السواء** .

ويلاحظ أن اقتصار وظيفة المسجد على الوعظ والإرشاد وإلقاء الخطب لا يجدى كثيراً . إن الذى يجدى كثيراً أن يعيش الناس فى الحى الذى يوجد فيه المسجد القيم الرائعة التى يتضمنها هذا الوعظ وهذا الإرشاد وهذه الخطب ، وأن يعيشوا كذلك مبادئها ومثلها العليا . ولن يكون ذلك إلا بإتاحة الفرصة تلو الفرصة لهؤلاء الناس أطفالاً كانوا أو شباباً أو رجالاً أو نساء لكى يمارسوها ، وذلك بأن يواجهوا المواقف الاجتماعية العديدة التى تكسبهم هذه القيم وهذه المبادىء وهذه المثل العليا .

ويتطلب وجود هذه المواقف الثقافية الاجتماعية فى رأى الكاتب وجود بعض الامكانيات فى مبنى المسجد الحالى . منها على سبيل المثال لا الحصر وجود حجرة فيه تجتمع فيها أسر الحى وعائلاته فى المناسبات الأسرية أو العائلية أوغيرها ، كما توجد فيه دار حضانة لأطفال هذه الأسر أيضاً . كما يتحتم كذلك وجود مكتبة لشباب الحى تحتوى على الكتب المناسبة ومستوصف طبى ، ومدرسة تسهم إسهاماً فعالاً فى القضاء على الأمية فى محيط أعضاء الحى ، وقاعة للاجتماعات العامة ، وفضلاً عن ذلك وجود مكان يزاول فيه بعض أعضاء الحى بعض أوجه النشاط الثقافى الاجتماعى .

والملاحظ أنه ليس من الضرورى أن تكون هذه الإمكانيات أويكون بعضها موجوداً فى كل مسجد من مساجد مجتمعنا المعاصر . إن وجود هذه الإمكانيات يرجع بالضرورة إلى حاجات البيئة الثقافية الاجتماعية التى يوجد فيها المسجد . كما يرجع أيضاً إلى أولويات الحاجات الحقيقية التى يحتاجها فعلاً أعضاء الحى الذى يوجد فيه المسجد . والملاحظ أيضاً أن وجود هذه الإمكانيات كلها أو بعضها أو حتى غيرها غير كاف . إن وجود الاستعداد عند أعضاء الحى الذى يوجد فيه المسجد لاستخدام هذه الإمكانيات أمر أكثر ضرورة . وخلق الاستعداد فى الناس أطفالاً كانوا أو شباباً أو رجالاً أو نساء يعتمد كل الاعتماد على دور رجل الدين فى المسجد كجهاز من أجهزة التنشئة الاجتماعية فى مجتمعنا المعاصر .

إن هذا الدور يعنى أن يؤهل رجل الدين فى المسجد دينياً وعلمياً ، نظرياً وعملياً ، ليكون شخصاً يستطيع أن يعمل مع الجماعات الاجتماعية الأساسية أو غيرها من الجماعات فى مجتمع المسجد المحلى ومن أجلها . وهو إذ يفعل ذلك يجب أن يكن الاحترام للناس . ولا يعنى الاحترام مجرد أن يكون رجلاً مهذباً ،

إنه أكثر من ذلك ، إنه شعور عميق يؤكد أن كل إنسان جدير بالاعتبار .

واحـترام النـاس يعنى عدم التمييز بين النـاس فى ضوء نماذج سلوكهم البشرى أى مهما كانت صور هذه النماذج وأنماطها أوفى ضوء آرائهم واتجاهاتهم أو حتى أذواقهم . ولكن الاحترام المقصود يعنى أنه مهما كان الشخص ومهما كانت شخصيته ومهما كانت مكانته الاجتماعية فهو يستحق اهتمام رجل الدين كإنسان . . كواحد من البشر . . **فالاحترام مفهوم إنسانى وهو أيضاً مفهوم ديمقراطى وهو سبيل تطور الجماعات وأعضائها إلى الأفضل .**

ورجل الدين لكى يؤدى دوره كقائد ثقافى اجتماعى فى مجتمعنا المعاصر وهو يعمل مع الجماعات الاجتماعية الأساسية فى المجتمع أو غيرها من الجماعات فإنه من الضرورى أن يقبل أعضاء هذه الجماعات كما هم أى **بصفاتهم الإيجابية والسلبية على السواء** . فتقبل الناس كما هم وكما عندهم من إمكانيات ييسر تكوين العلاقة بين رجل الدين كقائد ثقافى اجتماعى وبين من يعمل معهم .

وتقبل أعضاء الجماعات ينبع من الشعور الحار نحو الإنسانية ككل ، وهو ينبـع أيضـاً من الـرغبة فى تخفيف أعباء المعاناة عن كاهل الإنسانية أياً كان أعضاؤها ومهما اختلف أعضاؤها وتباينوا . ومهما يكن فأعضاء الجماعة ، أية جماعـة . . يشعـرون بقبـول القائد الثقافى الاجتماعى لهم إذا لم يكن مصدر تجريح لهم ، وإن كان من حقه أن ينقدهم نقداً بنّاء وأن يقيم لهم بعض الحدود .

والمعلوم أنه لا يوجد الشخص الذى يحاول أن يرضى الآخرين إذا كان يحتقرهم . ولكن كل إنسان مستعد لأن يقوم بعمل ما . . لأن يضحى بشىء ما . . من أجل الناس الذين يعاملونه معاملة طيبة . إن رجل الدين فى ضوء

تقبل أعضاء الجماعة أو الجماعات الذين يعمل معهم ومن أجلهم ، يستطيع أن يفعل الكثير حتى لو كانت الجماعة التى يعمل فى محيطها جماعة من الأشخاص المنحرفين . إنه يستطيع أن ينجح فى تغيير جهاز قيمهم الاجتماعى من جهاز غير مقبول إلى آخر مقبول اجتماعياً ومتوقع .

والملاحظ أن رجل الدين كواحد من القادة الثقافيين الاجتماعيين فى مجتمعنا المعاصر ، يجب أن يهتم أول ما يهتم بالوسائل التى تساعد أعضاء الجماعات فى مجتمع المسجد المحلى لكى ينموا وينضجوا . وطبيعى أن الجماعة باقية لأعضائها ، وليست لرجل الدين ، ومن ثم فإنه يجب أن يكون على بينة من مشاعره الخاصة التى تؤثر فى كل عمل يقوم به . إنه يجب أن يهتم فى كل الأوقات بنتائج ما يقوم به من أعمال وبأن ما يقوم به من أعمال يكون حقيقة فى سبيل مصلحة الجماعة وليس فى سبيل إشباع حاجة فى نفسه .

إن رجل الدين فى ضوء هذا الدور الخطير فى الواقع يمثل المجتمع المعاصر . فهو يسهم أو يجب أن يسهم فى القيام ببعض العمليات الثقافية الاجتماعية فى هذا المجتمع : عمليات التنشئة الاجتاعية . وفى ضوء قيم مجتمعنا المعاصر ومبادئه ومثله العليا يعمل رجل الدين . ومن المؤكد أن العبء الملقى على عاتقه عبء جسيم . فإن مجتمعنا الحالى ينتقل من مرحلة إلى أخرى . وإن الرواسب البالية تحوّم ولاتزال فى المناخ الثقافى الاجتماعى لمجتمعنا فى الوقت الحاضر . إن هذه الرواسب تنفر منها تعاليم الدين الإسلامى وتأباها . إن رجل الدين لكى يؤدى دوره كقائد ثقافى اجتماعى فى مجتمعنا يجب أن يصارع الرواسب البالية فى محيط الجماعات التى يعمل معها ومن أجلها حتى يصرعها . وهو إذ يفعل ذلك يفعله فى ضوء عقيدة وإيمان ويتعاون مع غيره من القادة الثقافيين الاجتماعيين فى المجتمع فى سبيل تحقيق ذلك .

ورجـل الدين وهو يؤدى دوره كقائد ثقافى اجتماعى فى المجتمع المعاصر يكـون له بالضرورة علاقات وثيقة بالجماعات التى تعيش فى المجتمع المحلى الذى يوجد فيه المسجد . والمعروف أن المجتمعات كبيرة كانت أو محلية لا تثبت على حال . أى أنها متغيرة على الدوام ، أى أنها مثل الأشخاص ومثل الجماعات دينامية .

والقائد الثقافى الاجتماعى يعيش ، وهو فى ضوء حياته وعمله ، فى مركز منـاسب يلاحظ منـه صور التغير الثقافى الاجتماعى التى تحدث باستمرار ، خصوصاً فى مجتمع كمجتمعنا . أقصد المجتمع الذى يعيش فى الوقت الحاضر فى ما يشبــه الثـورة الاجتـماعية ، ويحـاول فى إصرار أن يواجـه هذه الثـورة الاجتماعية . وفى ضوء ملاحظات رجل الدين ، القائد الثقافى الاجتماعى ، لألوان التغير الثقافى الاجتماعى يستطيع أن يقوّم مداها . وفى ضوء هذا التقويم يستطيع أن يتعرف على الآثار الثقافية الاجتماعية المترتبة عليها .

إن رجـل الـدين فى ضوء هذا الـدور الخطير هو إحدى عيون المجتمع وجمـاعـاتـه . . المجتمـع المحلى الذى يعمل فيه والجماعات التى تكوّن هذا المجتمع . وهو شخص مسئول لا يعمل لحسابه . أى أنه يعمل لحساب هذا المجتمع أو يجب أن يكون ذلك .

وإذا كانت الحـاجـة ماسـة إلى رجال الدين كقادة ثقافيين اجتماعيين فى مجتمعنا المعاصر ، يعملون مع الجماعات الأساسية وغيرها من الجماعات التى تستطيع أن تؤدى أدوارها فى تكوين المواطنين الصالحين فى هذا المجتمع ــ فإن الحاجة ماسة أيضاً إلى حسن اختيار هؤلاء القادة والاختيار وحده غير كاف . فهم كقادة محترفين فى مسيس الحاجة إلى التدريب الذى يهدف إلى التربية .

فإن التدريب يعنى أن التلقين ، وحده ، لا يجدى . وإن تكوين هؤلاء القادة يعنى بناء شخصياتهم أى يعنى تأهيلهم دينياً وعلمياً ، ونظرياً وعملياً ، أى أن هذا التدريب المقترح نوعان : تدريب نظرى وتدريب عملى . والنوعان فى ضوء ظروف مجتمعنا الحالية ضروريان . إن رجل الدين كقائد ثقافى اجتماعى يجب أن يحذق بالممارسة النوعين : أى يجب أن يكون على دراية عملية مستخدماً مواقف تطبيقية من المادة النظرية التى تكوّن مستواه النظرى . والمستوى الدينى العلمى لرجل الدين كقائد ثقافى اجتماعى يجب أن يؤسس ــ فضلاً عن العلوم الدينية المتخصصة ، كما سبق أن أوضحنا ــ على الإسهامات الرائعة التى قامت بها العلوم الإنسانية ، كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الانثروبولوجيا وغيرها من العلوم التطبيقية الأخرى ، مثل الخدمة الاجتماعية : طرقها ومجالاتها وميادينها جميعاً .

وإننى أرى فى ضوء كل ما كتب عن موضوع « وظيفة المسجد فى المجتمع المعاصر » باعتباره « مركز اشعاع دينى » فى الدراسة الحالية أن أقدم بعض الخطوط العريضة عن هذا الموضوع . فالقضية التى تناولتها على درجة كبيرة من الأهمية . وفى ضوء هذه الأهمية كتبت ما كتبت . وقد كتبت ما كتبت ... كل ما كتبت . . فى ضوء ما أعلمه علم اليقين عن المكانة الاجتماعية الرفيعة التى يكنّها أعضاء مجتمعنا المعاصر لرجل الدين ، وعن سلطانه المعنوى الخطير على هؤلاء الأعضاء ، وفى ضوء ما تأكد لدى من سيادة ظاهرة التدين فى هذا المجتمع .

ولعل ما علمت يقيناً فى هذا المجال وما تأكد لى فيه ييسران قيام المسجد بدوره فى تكوين المواطنين الصالحين فى مجتمعنا المعاصر . وقيام المسجد بهذا الدور الخطير، يعنى فى الواقع بعض التغييرات فى بناء المسجد الاجتماعى ،

كما يعنى عودة الروح لبعض وظائف المسجد القديمة فى ضوء ظروف العصر الذى تعيش فيه ، وفى ضوء تقدم العلوم الانسانية فى هذا العصر ، وفى ضوء قيم مجتمعنا المعاصر ومبادئه ومثله العليا .

وأضيف إلى ما سبق أن المسجد على الرغم من أنه مكان مقدس يهدى المسلمين الذين يتلقون مواعظ وعاظه إلى الطريق المستقيم حتى يكونوا قدوة صالحة ، فإننا لا نجد فيه « لوحات تذكارية » تسجل فيها أسماء شهداء المجتمع المحلى المبرزين على مر العصور ، الذى يقع فيه المسجد ، من الذين خاضوا الحروب والثورات التى تدافع فيها مصرنا الخالدة عن نفسها حرصاً على حريتها وكرامتها . وإننى أرى أن وجود هذه اللوحات يكون تخليداً لذكرى هؤلاء الشهداء ، ودرساً وعبره لغيرهم من الصبيان والشباب وغير هؤلاء من الذين يؤمون المسجد فى أى حى وجد فيه .

ولعله فى ضوء ما سبق ، كل ما سبق ، أن يتأكد القارىء الكريم من تقلص أدوار المسجد المعاصر فى مصرنا الخالدة باعتباره مركز إشعاع دينى . وأن أهم الأدوار التى يقوم بها هذا المركز فى الوقت الحاضر أصبح مجرد أداء الفرائض أو بعضها ، وإلقاء بعض الدروس التى لا تمت إلى الحياة الانسانية بصلة وثيقة فى معظم الأحيان .

والملاحظ أن أداء الفرائض وإلقاء بعض الدروس الدينية يتبارى فى القيام بها أئمة المساجد حكومية كانت أو أهلية ، وبخاصة فى بعض مساجد المدن الكبرى فى محافظات الجمهورية . مع العلم بأننا نجد فى ضوء خطة « وزارة الأوقاف » عام ١٩٨٣ / ١٩٨٤ التى يتضمنها تقريرها أن عدد المساجد التى توجد فى هذه المحافظات هو ٣١١٠٣ من المساجد ، نجد منها ٤٩٩٣ مسجداً تابعاً لوزارة الأوقاف بنسبة نحو ١٦ ٪ ، أما الباقى وعدده ٢٦١١٠ من المساجد

بنسبة نحو ٨٤ ٪ فهى مساجد أهلية أى يشرف عليها الأهالى متطوعين فى معظم الأحوال * .

والملاحظ أنه فى ضوء تحليل مضمون بعض الخطب ، وبخاصة خطب يوم الجمعة ، التى يلقيها أئمة المساجد ، بنوعيها ، والتى تيسر لى أن أكون أحد روادها ، وبخاصة فى مدينة القاهرة . نجد أن هذه الخطب تحاول أن تبث فى نفوس رواد هذه المساجد باعتبارها مراكز إشعاع دينى ألواناً من الثقافة أهمها ما يلى :

أولاً ــ ألوان تتعلق بموضوعات العقائد والعبادات .
ثانياً ــ ألوان تتعلق بالموضوعات الأخلاقية .
ثالثاً ــ ألوان تتعلق بموضوعات الأسرة والمجتمع .
رابعاً ــ ألوان تتعلق بموضوعات المناسبات الإسلامية .

وتتضمن موضوعات العقائد والعبادات موضوعات عديدة منها الإيمان بالله ، والإيمان بالجزاء الأخروى ، والقضاء والقدر ، والصلاة وأثرها فى النفس ، والصيام والتربية الروحية ، والتوبة . . . . إلخ .

أما الموضوعات الأخلاقية فإنها تهتم بقيم الصدق ، والوفاء ، والإخلاص ، والأمانة والحلم ، والصفح ، والجود والكرم ، والصبر ، والحياء ، والإخاء ، والرحمة ، والشجاعة . . . . إلخ .

ونجد أن الموضوعات المتعلقة بالأسرة والمجتمع تؤكد على بر الوالدين ،

---

* ذكر الأستاذ الدكتور الأحمدى أبو النور وزير الأوقاف فى حوار له نشرته مجلة « صباح الخير » بعددها المنشور يوم الخميس ٢٢ من شهر مايو عام ١٩٨٦ ، أن لدى مصر حوالى ٧٠ ألف جامع بينما هناك ٦ آلاف إمام جامع على قوة الوزارة .

وحقوق كل من الزوجين على الآخر ، وحق الجوار ، والعدالة ، والشورى . . . . إلخ .

وموضوعات المناسبات الإسلامية تدعو إلى الاهتمام بمولد النبى عليه الصلاة والسلام ، وبالإسراء والمعراج ، وبغزوة بدر ، وبفتح مكة ، وبليلة القدر . . . . إلخ .

وأرجو أن يتفضل القارىء بملاحظة أن هذه الموضوعات تلقى عادة على جموع غفيرة من المصلين الكبار منهم والشباب وبعض الصبيان . ونجد من بينهم الأمى ومتوسط التعليم ، والذين اتموا التعليم العالى أو لا يزالون فى هذه المرحلة . وما يلقى من خطب قد لا يفهم على حقيقته وقد يفهم .. ومع ذلك فإننا نلاحظ أن الذهاب إلى صلاة الجمعة أصبح مجرد وظيفة اجتماعية لبعض المصلين إلا من رحم ربك ، وإن الذى يلقى من على المنبر كما ذكرت من قبل إن هو إلا فرصة لكى يتبارى فى خلالها أئمة بعض المساجد .

ولعل هذا البعض يرى أن الفترة الزمنية للخطبة من حيث طولها دليل على الإجادة المرجوة ! ومع ذلك فإننى أرى أنه على الرغم مما يلقى من موضوعات قيمة فإن فائدتها مؤقته ، فقد يراها البعض مجرد مواعظ تلقى لتنسى ، حيث يجرف خضم الحياة وما فيه من مشاكل ، الذين حضروا هذه الصلاة . واستثنى من هؤلاء بعض الصبيان والشباب . وذلك لأنه إذا كان الأولون يفيدون بعض المعلومات الدينية الهامة فإن الأخيرين لا يفيدون معلومات فقط ولكن قد تسهم هذه المعلومات فى غرس بعض الاتجاهات الدينية فى نفوسهم .

١٤ ـ جهاز ثقافى إعلامى مصرى

منذ حوالى ستين عاماً ، أى عندما كنت أبلغ سن الثانية عشرة من

عمرى ، أذكر أننى كنت فى إجازة المدرسة الصيفية فلم يكن اليوم يوم جمعة عندما صحبت أبى إلى محل تجارته (الوكالة) . ومشينا من منزلنا بشارع البقلى بحى . الخليفة إلى هذه الوكالة التى كان مقرها بجوار ضريح السيدة عائشة النبوية بنفس الحى ووصلنا إلى المكان المقصود وكان يجلس أمامه عمال الوكالة . ووجدت أن أحدهم سارع وأخذ مفاتيح الباب من أبى وفتح الأقفال المغلقة . وتعاون الجميع على فتح الباب وكان مصنوعاً من الحديد . وبدأ أبى فى الدخول فإذا أشياء من الرفوف قد وقعت على الأرض وبعثر ما فيها ، ويبدو أن أبى قد إستاء من ذلك فقد نمت أسارير وجهه عن ذلك ، ولكن سرعان ما عادت البشاشة تملأ صفحات هذا الوجه عندما أزال من نتيجة الحائط ورقة اليوم السابق لتطل ورقة اليوم التالى . ولم أكن أعلم أن فى كل ورقة يكتب فى أسفلها عبارة من العبارات إلا عندمارأيت أبى يقرأ العبارة المكتوبة فى ورقة النتيجة التى تبرز التاريخ الميلادى والتاريخ الهجرى ، ثم يبتسم وتعود البشاشة تملأ صفحات وجهه . وأذكر أننى سمعته يتمتم فى سره قائلاً وكأنه يخاطب نفسه :

« صحيح : لولا الكاسورة ما كانت الفاخورة »

وخمنت أن ما قرأه على ورقة النتيجة كان نفس هذه العبارة ، وتأكدت من ذلك عندما قرأتها بنفسى . ولكنى فى ذلك الحين لم أهتم بهذا الموضوع وكدت أنساه إن لم أكن قد نسيته فعلاً ، لولا أن تكرر موضوع مشابه له بعد أن مرت منذ حدوثه سنوات تربو على العشرين عاماً . كان هذا الموضوع المشابه مصدره أمى التى استأنفت رعايتى بعد أن مات أبى عندما كدت أن أبلغ سن السابعة عشرة من عمرى . كنت قد أتممت تعليمى العالى وتزوجت وأثمر زواجى ابنتى آمال وتيسير وأبنائى أحمد وسمير ومسعد . وكنت أعمل فى سبيل « لقمة العيش » من أجلهم ومن أجلى . وكنت حريصاً فى ذلك الحين على أن أتعلم ،

فكنت أقرأ كثيراً وأكتب قليلا ، وكانت الشقة التى نسكنها لا تخلو من كتب وجرائد ومن نتيجة حائط ! وكنت أحرص على أن تكون من النتائج التى تكتب فى أسفل أوراقها عبارات قد تتضمن بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والحكم والأقوال المأثورة وغيرها .

وإننى أذكر أيضاً أن أمى إذ كانت تحاول أن تتخفف من بعض قطع الأثاث التى تمتلكها ، وجدت ضمن هذه القطع طبقاً مصنوعاً من النحاس قالت إنها ورثته عن أمها التى بدورها ورثته عن جدتها . وأذكر إننى فى صباح اليوم التالى بعد أن عثرت أمى على هذا الطبق أزلت من نتيجة الحائط ورقة اليوم السابق لتطل ورقة اليوم التالى فإذا بى أقرأ عبارة :

« طبق نحاس ياما يفنى ناس » !

ولم أبتسم كما ابتسم أبى منذ حوالى عشرين عاماً أو يزيد ، ولكنى جلست وحدى أفكر فى مغزى هذه العبارة وحاولت كمصرى أن أفسره وأفيد من عبرته . وكنت ولاأزال أرى الجانب الإيجابى من هذه العبرة . فالناس فى رأيى لا يرثون أرضاً أو عقاراً أو أطباق نحاس ، ولكن الأرض ترث الناس وكل ما عداهم . ومع ذلك فالمصرى عاش لكى يخلد ، أى لكى يبحث عن سبيل الخلود واختار كل سبيل لكى يصل إلى بغيته .

ومنذ الماضى السحيق وحتى الوقت الراهن يشهد العالم هذه السبل عندما يماط اللثام عن كل سبيل فى كل يوم بل فى كل لحظة . والعالم إذ يفعل ذلك يقف مشدوهاً فاغراً فاه إن كان له فوه . فعلماؤه فى كل الفروع يحاولون أن يعرفوا ، وقد عرف الكثير منهم أشياء ، ومازال أمام الكثيرين أشواط فى سبيل التعرف على أشياء وأشاء أخرى . وأنا أعلم ذلك علم اليقين وبخاصة عندما

كنت أزور مكتبة « المعهد السويسرى » بحى الزمالك بمدينة القاهرة ، لا ستقى من المعارف التى تضمها كتب هذه المكتبة ، وكلها أى هذه الكتب تتضمن ملخصات عن الكشوف الأثرية التى وجدها علماء الآثار السويسريون وغيرهم من الإنجليز ومن الألمان ومن الأمريكيين فضلاً عن علماء الآثار الفرنسيين وغيرهم من المصريين .

كنت فى ذلك الحين أحاول التعرف على تاريخ المصريين القدامى . وكان اهتمامى فى ذلك الحين ينحصر فى اقتفاء أثر « الرسائل » التى كان يرسلها أجدادنا القدامى إلى موتاهم . وفى خلال فترة زياراتى لمكتبه المعهد السويسرى ، فترة تربو على الثلاث السنوات ، كنت أجد الصناديق الكبيرة المملوءة بقطع الآثار وبالبرديات وغيرها استعداداً لشحنها إلى سويسرا ، حيث يدرسها المتخصصون ويكتبون عنها التقارير وينشرون منها ما ينشرون . وعندما لاحظت كثرة هذه الصناديق وكبر حجمها ذكر لى الأستاذ السويسرى المسئول أن الكثير من هذه الأشياء الثمينة مازال فى صناديقه بعد شحنها إلى سويسرا وذلك لأن السويسريين المتخصصين فى علم الآثار المصرية يقلون سنة بعد سنة . ومن ثم فإن دراستها أو الكتابة عنها بل ونشرها أصبح كل ذلك أمراً صعباً جداً ، ويحتاج إلى سنوات عديدة . وبالإضافة إلى هذه الخبرة التى استقيتها فى خلال أعوام ١٩٦٠ - ١٩٦٣ أى الفترة التى كنت أعد فيها كتابى « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشافعى » الذى طبع وخرج إلى حيز الوجود فى طبعته الأولى فى عام ١٩٦٥ ـ نلاحظ جميعاً ما كشفت وتكشف عنه الحفريات فى طول البلاد وعرضها من آثار وبرديات ومعالم حضارات مصرية قديمة أو يونانية أو رومانية حتى لحظة كتابة هذه السطور .

وإننى أذكر كذلك أننى فى عام ١٩٧٧ كنت قد انتهيت من كتابة الكلمة الأخيرة فى كتابى « حديث عن المرأة المصرية المعاصرة : دراسة ثقافية اجتماعية » . وكنت على الرغم من صدور ثلاثة عشر من الكتب والكتيبات وفضلاً عن العشرات من الدراسات والمقالات المنشورة باسمى أقف مكتوف اليدين أمام نشر الكتاب المذكور . كان كتاباً علمياً ولم يكن تجارياً . وكان كتاباً ذا صفحات عديدة . وقد نفر الناشرون من مسئولية طبعه ونشره . وكنت حائراً ويملأ الغيظ قلبى ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئاً . ولما ضاقت الدنيا واستحكمت حلقاتها فرجت وذلك بفضل مساعدة السيدة « الزا ثابت » التى كان لها الفضل الأول فى تيسير طبعه ونشره بعد أن أعجزتنى الظروف المعاشية عن القيام بهذا العبء .

ولابد أن أذكر فى هذا الصدد فضل ولدى العزيز أحمد عويس الذى أرسل لى بعض النقود وهو يواجه الحياة فى إحدى الدول العربية مغترباً ويكد ويكافح بشرف من أجل دعم حالته الاقتصادية . ولولا عون هذين الشخصين الكريمين ربما لم يكن قد خرج هذا الكتاب إلى حيز الوجود . إنه كتاب عزيز على لا لأننى عانيت فى تأليفه ولكن لأن المرأة المصرية بأدوارها الاجتماعية العديدة لا تحيا كما يجب أن يرجو لها كل مصرى كريم ، ولأننى فى ضوء ظروفى التاريخية أجدنى أهتم اهتماماً كبيراً برفع المستوى الإنسانى للمرأة المصرية والحرص على كرامتها واحترام مشاعرها كإنسانة تكمل الرجل والرجل يكملها . هى تكمل الرجل بأدوارها الاجتماعية كأم وكزوجة وكأخت وكابنة وكزميلة وكجارة . . . والرجل يكملها بأدواره الاجتماعية كأب وكزوج وكأخ وكابن وكزميل وكجار . . . وقد علمت بعد عودة العزيز أحمد عويس إلى أرض الوطن أن ما دفعه إلى إرسال النقود التى لم أطلبها منه أنه قرأ فى أحد الأيام فى أسفل

إحدى أوراق نتيجة الحائط التى يعلقها على حائط بغرفة فى شقته التى كان يعيش فيها إحدى العبارات التى تقول :

« أنت ومالك لأبيك »

فما كان منه إلا أن وجد نفسه مدفوعاً ليرسل ما أرسل من نقود . وما كان منى إلا أن أسعى حثيثاً إلى الاتصال بأحد الناشرين وأطبع كتاب « حديث عن المرأة المصرية المعاصرة : دراسة ثقافية اجتماعية » على حسابى الخاص الذى كان فى حقيقــة الأمــر يتضمن تبرع السيدة « إلـزا ثابت » ولـدى العـزيز « أحمد » ، وقمت وحدى بعبء توزيع هذا الكتاب . وكان عبئاً ثقيلاً حقاً !

وإننى أبادر فأقول : إن الأمثلة السابقة ، كل مثال على حدة ، لم يكن أبداً المسئول الأوحد عن سلوك أبى أو سلوكى أو سلوك ابنى . إن المناخ الثقافى الذى يشعه ما يكتب من عبارات بالإضافة إلى عوامل ثقافية اجتماعية أخرى ، هى بالضرورة العوامل التى يجب أن يرجع إليها الباحث عن صدور نمط معين من السلوك الإنسانى أو عدم صدور هذا النمط من السلوك الانسانى . ويبدو لى أن قراءة العبارات المذكورة وغيرها كانت وتكون الدافع إلى هذا النمط من السلوك الإنسانى . والملاحظ أن دوافع السلوك الإنسانى غير عوامله .

ومع ذلك فإننى أقول بأن موقف أبى الذى واجهته وأنا بعد صبى قد أثر على . كنت صبياً لم تكتمل بعد شخصيتى . فلم يكن تأثير ما أفصح عنه أبى بعد قراءته للعبارة التى تقول :

« لولا الكاسورة ما كانت الفاخورة » !

مجرد رأى قد أغيره بعد فترة من الفترات ، ولكن كما بدا من تصرفى بعد قراءة العبارة التى تقول :

كان أعمق من كونه رأياً . كان كما يبدو لى الآن أقرب إلى الاتجاه . وربما كانت نفس التجربة مر بها أبى كما مر بها ابنى . ومهما يكن من الأمر فإننى أرى فى ضوء خبراتى أننا إذا اعتبرنا عبارات نتيجة الحائط تصدر عن « جهاز ثقافى إعلامى » فتأثيرها على صغار السن والمراهقين من الشباب الذين فى مرحلة المراهقة الأولى يكون تأثيراً بالضرورة كبيراً . والملاحظ أن هؤلاء أقصد صغار السن والمراهقين من الشباب فى مرحلة المراهقة الأولى سيكبرون بمرور الزمن وتعيش معهم بالضرورة خبراتهم . وتراهم يسلكون أنماطاً من السلوك تتفق أو لا تتفق وما وصلوا إليه من مستويات أخرى من الخبرات الأكثر تبايناً . وذلك لأن محددات شخصياتهم وهم كبار سواء أكانت تكوينية أم ثقافية اجتماعية أم نفسية عقلية تكون قد بدت واضحة للعيان . والمرجع الأول والأخير هنا كما يبدو لى هو أنواع الخبرات التى يكفلها لهم المجتمع الذى يعيشون فيه . وإننى فى ضوء خبراتى أدعو ملحاً أن تكون هذه الخبرات عصرية ومن ثم يعيش الواحد منهم ليس فقط فى ضوء تراث هذا المجتمع ، بل أيضاً فى ضوء نتائج الحضارة المعاصرة والعصرية جميعاً .

ومن الغريب ، وقد لا يبدو غريباً ، أننا نجد فى بعض المساجد فى الحضر وفى الريف ، وبخاصة فى الريف ، أن نتائج الحائط معلقة فى أحد أركان المسجد . ويحرص المسئولون عن الاشراف على هذه المساجد على أن تكون هذه النتائج مكتوباً عليها أقصد فى أسفل أوراقها العبارات التى قد تتضمن بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والحكم والأقوال المأثورة وغيرها . ويحرص الكثير من الذين يسكنون بجوار المسجد على صلاة الفجر حاضراً . ونجد بعض المصلين بعد هذه الصلاة يتسابقون على إزالة ورقة اليوم السابق من

النتيجة المعلقة لتطل عليهم ورقة اليوم الذى بدأ بعد الصلاة . ويكمن وراء هذا السباق حرص هذا البعض على التعرف على ما هو مكتوب تفاؤلاً بما يقرأ أو إذعاناً لمعناه . وفى رأيى أن هؤلاء على الرغم من معرفتهم القراءة والكتابة يتأثرون ، فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى ، ما فى ذلك من شك ، بما يقرأون .

وفى ضوء كل ما سبق أرجو أن لا يعتبر القارىء الكريم أن الدراسة الحالية جاءت اعتباطاً ، فقد كان لها جذور فى الصبا وفى الشباب وفى الكهولة . وقد أعددت لها منذ بداية عام ١٩٨١ ، واخترت عام ١٩٨٢ ليكون مجالها الزمنى ، وكان « تقويم شركة الشمرلى » بمدينة القاهرة هو مجال دراسة العبارات المكتوبة فى أسفل أوراق نتائج الحائط التى نشرتها هذه الشركة فى ذلك العام . واختيارى لنتائج هذه الشركة مرجعه إلى أننى تعودت على شراء نتيجة منها فى بداية كل عام ميلادى جديد . وقد اتضح أن عدد النتائج التى أنتجتها هذه الشركة فى عام ١٩٨٢ أكثر من ربع المليون نتيجة ، بل كان عددها فعلاً ٢٧٠٠٠٠ نتيجة . أى أننا إذا قدرنا أن كل أسرة اشترت واحدة من هذه الكمية فإن عدد الذين قد يتأثرون بما يكتب فى أسفل أوراقها إذا كان متوسط عدد الأسرة خمسة أعضاء يكون ١,٣٥٠,٠٠٠ شخصاً .

وأرجو أن يلاحظ القارىء قولى « قد يتأثرون » . وذلك لأننى لا أجزم كما سبق أن أوضحت بذلك . وإن كنت أميل إلى أن العبارات المكتوبة تشع عناصر مناخ ثقافى معين قد يتأثر بها الأطفال والصبيان والأشخاص الذين فى سن المراهقة الأولى . وقد يستمر هذا التأثر عندما يكبرون وقد يتعدل أو يختفى ويتبدد .

والملاحظ أن الأسرة التى تحرص على اقتناء نتيجة حائط لابد وأن يكون

من بين أعضائها من يعرف القراءة والكتابة . وأن البالغين من أعضاء الأسرة الـذين فى ضوء ظروفهم الثقافية والاجتماعية فضلاً عن محددات شخصياتهم التى أشرت إليها من قبل قد يكون تأثيرهم كبيراً على من هم أصغر منهم سناً سواء أكان هذا التأثير تأثيراً سلبياً أم إيجابياً .

وفى الدراسة تبين أن عدد العبارات المكتوبة ٣٢٧ عبارة ، وكان فى أسفل أوراق نتيجة الحائط عبارات عددها ٣٨ عبارة وهى التى تثبت أيام شهر رمضان وأيام عيد الفطر وأيام عيد الأضحى ، ومواعيد السحور والإمساك بمحافظتى القاهرة والإسكندرية ، ووقفة عيد الفطر وأول أيام عيد الفطر وثانى أيام عيد الفطر وثالث أيام عيد الفطر ، ثم وقفة عيد الأضحى وموعد صلاة العيد ثم أيام هذا العيد ، ومن ثم يكون عدد الأوراق كلها ٣٦٥ ورقة هى أيام عام ١٩٨٢ .

والعبـارات المكتوبة وعددها ٣٢٧ عبارة ، عبارات شتى تتضمن بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والحكم والأقوال المأثورة وغيرها . وقد نجد أيضاً بعض المناسبات الدينية والقومية التى تدل على أعياد الأقباط المصريين ، وبعض الأعياد الأخرى كعيد « الأم » وعيد « القوات المسلحة » وعيد « مدينة السويس والمقاومة الشعبية » . . . إلخ .

ويلاحظ أن معانى مضامين العبارات المشار إليها كلها قد فرضت على قارئيها فرضاً ، وأن من فرضها من المسئولين عن طبعها ونشرها لا يدرى بهم احـد . أقصـد أنهم لا يكـونـون بالضرورة من القادة الثقافيين الذين ترتبط مصـالحهم أو لا ترتبط بمصـالـح الـدولة . ويعنى ذلك أن معانى المضامين المذكورة قد تكون الدولة فرضتها أو قد لا تكون فرضتها رسمياً .

ومهـما يكن من الأمـر فإن الذين اختاروا معانى هذه المضامين يكونون بالضرورة على وعى بعنـاصر المنـاخ الثقـافى السـائـدة فى المجتمـع المصرى المعاصر . وقد تكون أهدافهم أهدافاً سوية أوغير ذلك . ولعل اختيار نشر هذه المضامين بمعانيها مرجعه إلى عوامل معينة ، التعرف عليها على كل حال خارج عن مجال الـدراسة الحالية ، لأن التحقق منها ، أى من هذه العوامل موضوعياً ، غير وارد فى هذه الدراسة . وما يمكن أن يقال فى هذا الصدد هو أن كمية نتائج الحائط التى تطبع وتنشر تجد الرواج كما سبق أن أوضحنا عند حوالى ٢٧٠٠٠٠ أسرة من أسر المجتمع المصرى المعاصر . وأن عدد الذين قد يتـأثرون بما يكتب فى أسفل أوراقها حوالى ٠٠٠, ٣٥٠, ١ عضواً من هذا المجتمـع . مع ملاحـظة أن نتـائـج الحـائط ، موضـوع الدراسة الحالية ، لا تشكل كل نتائج الحائط التى تنتج فى المجتمع المصرى وتكون عادة فى أسفل أوراقها عبارات ذات مضامين معينة .

وإننى أرجو أن يفرق القارىء بين الدراسة الحالية والدارسة التى ضمها كتـابى « هتـاف الصامتين : ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات فى المجتمع المصرى المعاصر » الذى نشر فى عام ١٩٧١ . وذلك لأن العبارات والكلمات المكتـوبـة على هياكـل المركبات قد اختارها كاتبوها أنفسهم بمحض إرادتهم وأصروا على كتابتها أو إملائها على هياكل المركبات التى يستخدمونها على الرغم من عدم موافقة الدولة على هذه الكتابة . وأنهم إذ يكتبون ما يكتبون أو يملونه بمحض إرداتهم ، فإنهم فى حقيقة الأمر يحاولون أن يسمعوا أصواتهم دون أن يراهم أحد ، أى أنهم فى حقيقة الأمر يحاولون بمحض إرادتهم أن يهتفوا . وأنهم فى ضوء ظروفهم الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، إذ يهتفون بمحض إرادتهم ، قد استخـدمـوا دون ما إرادة إحـدى وسـائل التعبير عند

الصامتين من أعضاء مجتمعنا المصرى المعاصر ، هى فى حقيقة الأمر وسيلة جديدة تجلجل فيها أصواتهم دون أن يراهم أحد ، ويعبرون عن طريقها عن أنينهم وعن آمالهم وأفراحهم وأتراحهم واستسلامهم ودعاباتهم ، وعن بعض القيم التى يقدسونها وبعض أنماط تفكيرهم .

أما الدراسة الحالية التى تتضمن العبارات المكتوبة فى أسفل أوراق نتائج الحائط ، موضوع الدراسة الحالية ، أوغيرها ـ فإنها كما ذكرت تبدو مفروضة على قارئيها فرضاً من أعلى ! ولم يكن لهؤلاء القارئين أية مشاركة فى كتابتها أو إملائها . فهى كما ذكرت من وضع آخرين رسميين أوغير رسميين قد يراهم البعض قادة ثقافيين أوغير هؤلاء . وهذا هو الفرق الجذرى بين الدراسة التى نشرت فى عام ١٩٧١ وبين الدراسة الحالية .

وقد لاحظت أن بعض العبارات المكتوبة مكررة (انظر الملحق رقم (١) العبارات أرقام : (١, ٣ - ١٨ و١٩ - و٢٣ و٢٤ - ٤٦ و٤٧ - ٦٤ و٦٥ - ٨٨ و٨٩ - ٩٤ و٩٥ - ٩٩ و١٠٠, ١٠١ - ١٠٨ و١٠٩, ١١٠ - ١١٣ و١١٤ - ١١٥ و١١٦ - ١٢٨, ١٢٩ - ١٤٣ و١٤٤ - ١٤٦, ١٤٧ و١٤٨ - ١٥٨ و١٥٩ - ١٩٩, ٢٠٠ و٢٠١, ٢٠٢ - ٢٤٥ و٢٤٦ - ٢٥٣ و٢٥٤ - ٢٦٩ و٢٧٠ - ٢٨٤ و٢٨٥ - ٢٩٦ - و٢٩٧ - ٣٢٣ و٣٢٤)

العبارات	مرات التكرار
ـ ابتسم تبتسم لك الدنيا (العالم)	٢
ـ إذا سألت فاسأل الله	٢
ـ إذا كان القلب نقياً كان الخلق كريماً	٢

ـ الاعتبار للرجل وليس للمال	٢
ـ الحذر لا يمنع القدر	٢
ـ الصمت رداء يخفى ضعف صاحبه	٢
ـ العظمة لله والكبرياء للشيطان	٢
ـ العقل السليم فى الجسم السليم	٣
ـ القناعة كنز لا يفنى	٣
ـ الكريم يقول بعمله والبخيل يقول بلسانه	٢
ـ الكفاح نوعان : كفاح للبقاء وكفاح للخلود	٢
ـ المغرور إنسان ينتهى إلى لا شىء	٢
ـ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً	٢
ـ إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً	٣
ـ أنت تريد وغيرك يريد والله يفعل ما يريد	٢
ـ رب مصادفة خير من ألف موعد	٤
ـ كل عام وانتم بخير	٢
ـ لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد	٢
ـ لا يذوق لذة الغنى من لم يذق مرارة الفقر	٢
ـ مجلس العلم روضة من رياض الجنة	٢
ـ من رد النصيحة ندم	٢
ـ يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك	٢
المجموع	٤٩ عبارة

ويبدو لى أن هذا التكرار له دلالة . فالعبارات تتضمن التفاؤل والحض على الخلق الكريم والتدين ، وإن العبرة ليست بالمال ، وإن القدر لا يمنعه

الحـذر ، وإن الصمت فى بعض المواقف يخفى ضعف الصامت . ويلاحظ وجود عبارات تتضمن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أو بعض أجزائها . وتتضمن العبـارات المكـررة أيضـاً تعظيم الله جل وعلا وإن الأمر منه وإليه والحض على القناعة والكرم والكفاح الذى يصل بصاحبه إلى الخلود ، فضلاً عن العزوف عن الغرور وبعض النصائح (لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد) . و (من رد النصيحة ندم) ، وتتضمن هذه العبارات كذلك حلاوة الغنى ومرارة الفقر .

وفى رأيى أن العبارات المكررة قد جمعت الخلال الحميدة أو الكثير من هذه الخـلال ، وإن كانت قد جمعتها على وجه الإطلاق . وكأن الإنسان فى ضوء ظروفه هو هو مهما تغيرت هذه الظروف . ولكن دلالتها عندى فى تكرارها وأنها تصلح لكل زمان ومكان ! .

وقد حاولت الدراسة الحالية أن تبين العبارات المكتوبة فى الشهور الميلادية وفى الشهور الهجرية للتعرف على تباينها أو تشابهها إن وجد هذا التباين أو هذا التشـابـه ، أقصـد للتعرف على معانى العبارات فى ضوء مناسبة حلول هذه الشهور أو تلك . والملحق الذى ذكرته آنفاً يتضمن جميع العبارت المكتوبة فى أسفل أوراق نتيجة الحائط عن عام ١٩٨٢ وعددها ٣٢٧ عبارة مرتبة حسب الحروف الأبجدية .

وإذا كان المجـال الـزمنى للدراسة الحالية هو عام ١٩٨٢ ، وكان مجال دراسـة العبـارات المكتـوبة فى أسفل أوراق نتيجة الحائط التى نشرتها شركة الشمـرلى فى ذلـك العـام ــ فإن المنهـج الـذى اتبعته فيها هو « منهج تحليل المضمـون » . وقد استخدم هذا المنهج كما ذكرت من قبل لتجليل مضمون ٣٢٧ عبارة ، واتضح فى ضوء هذا التحليل بعض النتائج هى :

أولاً ــ وجود العديد من العبارات التى تتضمن « الحكم » المتداولة فى المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى . والملاحظ أن مفهوم الحكم هو جمع مفهوم « الحكمة » . والمفهوم الأخير ينطبق بكسر الحاء وسكون الكاف . وهو يعنى لغة إتقان الأمور ، أى أن الحكيم هو كل من يتقن الأمور . ومفهوم الحكمة بكسر الحاء وسكون الكاف يعنى فى الدراسة الحالية كل ما يمنع صاحبها من أخلاق الأرذال ، فرأس الحكمة ، كما يعلم القارىء ، مخافة الله . ومن يخاف الله ينأى ، بالضرورة ، عن أخلاق الأرذال ، ويتمسك ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، بالأخلاق الرفيعة ، أخلاق الصالحين الطيبين .

وقد بلغ عدد العبارات التى تتضمن الحكم فى الدارسة الحالية ١٣٢ عبارة (انظر الملحق رقم « ٢ ») .

والملاحظ أن العبارات التى تتضمن الحكم معانيها عديدة كذلك . ففيها ما يدعو إلى طلب المستطاع ، أو التأكيد على العمل ، وعلى الحرص على الوقت ، وعلى الحرص على الإيمان وعلى طاعة الأب فإن « غضب الأب من غضب الرب » ، والحض على المشاركة فى عمل الغير والاهتمام بالآخرين ، والعمل من أجل اليوم الآخر ، والحض على التفاؤل ، والاتعاظ بالغير ، والدعوة إلى الأدب والعفة وإلى العفاف وإلى القناعة ، والحرص على عدم الظلم وترك الشبهات ، والدعوة إلى الثبات وإلى الوقاية فهى خير من العلاج ، والحرص على الهيبة وعدم الاسراف فى الوعد والتعلم من الأخطاء وعدم رد النصيحة فمن « رد النصيحة ندم » ، والتذرع بالصبر ، والحض على النظافة لأن « النظافة من الإيمان » والحض على الصمت ف « الصمت رداء يخفى

ضعف صاحبه » ! وعلى قول الصدق « كن صادقا تنجى من المهالك » ، وعلى اتباع الحق « ما عرف الحق من لم يتبعه » .

وتتضمن هذه الحكم أموراً أخرى منها أن الأدب خير من الذهب ، والحض على الاستمرار فى طلب العلم ، والتأكيد على أن الإنسان قد يتحطم بلسانه ، وأن الخير له أهله كما أن الشر له أهله أيضاً ، وأن الأصل والحسب والنسب هو ما يفعله الإنسان ، وأن الحليم مهما كان مدى حلمه فله عثرة ، وأنه لا يهضم من عرف قيمة الحق .

ونجد أن هذه الحكم تؤكد على أن مشاورة العاقل مطلوبة ، وأن التمادى فى الباطل لا يجدى ، وأن الكذب ظلام لأن « شمعة الكذب لا تضىء » ، وإن كلام الإنسان يجب أن يكون كلاماً ليناً حتى ينال محبة الناس ، وأن المواطن يجب أن يكون فخوراً بوطنه غيوراً عليه . وكان ضمن العبارات التى تتضمن الحكم ما تعلق بالمرأة إذ أن « عقل المرأة نصف جمالها » ، وإن المرء منا يجب أن يتقى الشبهات ، كما تتضمن السبق فى زرع الخير والإحسان للغير وعدم الأمان للدهر « فالدهر يومان يوم لك ويوم عليك » .

(انظر أرقام : (١٢ و٥٨ و٩٣ و١٣٨ و١٣٩ و٢٣٩ و٢٣٦ و٢٧٩ و٣١٠ و٥٧ و٩٢ و٤٣ و٨١ و٩٦ و٩٧ و١٠٨ و١٠٩ و١١٠ و٢٦٧ و٢٩١ و٥٩ و١٣٧ ٢٤١ و٢٥٦ و٢٩٤ و٢٩٦ و٢٩٧ و٢٤٢ و٢٩٨ و٨٥ و١٣٤ و٨٨ و٢٤٧ و٢٨١ و١١ و٣١ و١٧١ و١٨٨ و٢٣٧ و٢٦٣ و٣٠٣ و٢٠ و٧٨ و٧٥ و٢٠٧ و٣٠٨ و٢٤٨ و٢٩٥ و٢٧ و٣٢٦) .

والملاحظ أننى تيسيرا للقارىء اخترت عشوائيا خمسين عبارة تتضمن الحكم بمعناها الذى تبنته الدراسة الحالية . ويبدو لأول وهله « أن هذه الحكم تدعو فعلاً إلى التحلى بالأخلاق الرفيعة ، أخلاق الصالحين الطيبين » . فهى تهتم بالإيمان بالله واليوم الآخر وتحض على طاعة الأب وعمل الخير . وهى تدعو إلى العفة وإلى العفاف وإلى القناعة والصدق وتنفر من الكذب والتمادى فى الباطل ، كما تدعو إلى الوطنية وإلى الفخر بالوطن والغيرة عليه .

والملاحظ أيضاً أنه قد تأكد لدى ، كما أرجو أن القارىء الكريم يوافقنى على هذا التأكيد ، أن الحكم التى ذكرتها وغيرها من التى لم أذكرها ، تأخذ أسلوب الوعظ نبراساً لها . وأننى لست ضد الوعظ أبداً ولكنى أرى ، وربما أكون مخطئاً فيما أرى ، أن الوعظ وحده لا يكفى . وذلك أن معظم أعضاء المجتمع يستمعون إلى الوعظ والإرشاد فى بيوت الله ، ولكن الظروف الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية تنسيهم ما سمعوا أو وعوا . لقد ذكرت هذا الرأى مراراً فى الدراسات التى يضمها هذا الكتاب ، كما ذكرته فى مقالاتى المنشورة وفى محاضراتى ، واثبتت البحوث والدراسات التى قمت بإجرائها أو الإشراف عليها صحته . وقد ذكره غيرى من قبل ومن بعد . وإننى أرى أن الوعظ وحده لا يجدى كثيراً أو قليلاً . قد يؤثر على الصبيان والشباب فى بعض الأحيان أجل ، ولكن الملايين الآخرين لا يتأثرون . ولعل أولو الأمر يرون أن التربية هى أجدى وأنفع . وهى فى بساطة ، أقصد التربية ، أن يعيش الفرد منا معانى هذه الحكم وأمثالها ، ولا يكتفى بالاستماع لها .

ثانياً ـ وجود العديد من العبارات التى تتضمن « الأقوال المأثورة » . ويقصد بمفهوم المقول المأثور عادة « ما ورث الخلف عن السلف » . وهو فى الدراسة الحالية يعنى ما تضمنه التراث المكتوب (الذى يعرف قائله) . أى أنه على عكس « المثل الشعبى » الذى لا يعرف قائله ويكون عادة باللغة العامية (لغة الشعب) ، أى أن الأقوال المأثورة تكتب باللغة الفصحى .

وقد بلغ عدد العبارات التى تتضمن الأقوال المأثورة فى الدراسة الحالية ٩١ عبارة (انظر الملحق رقم « ٢ ») .

والملاحظ أن معانى العبارات التى تتضمن الأقوال المأثورة عديدة كذلك ، فمنها ما يدعو إلى التواضع ومحبة الناس والاجتهاد والصبر ونضال الشباب والكفاح من أجل البقاء والخلود ، والتسلح بالعلم والمعرفة من أجل المستقبل . ويؤكد على أن عمار البيوت لا يوجد بدون الأمهات الصالحات ، وأنه ملعون من أضاع الحق حيث أنه « لعن الله قوماً ضاع الحق بينهم » ، وأن زوال النعم من أسباب الظلم ، وأن السعادة الكاملة هى راحة الضمير .

ومن هذه العبارات ما يرى أن الدفء مصدره الأم وأن النور هو عطاء الأب ، وأن الحياة أمل ، وذلك لأنه « ليس هناك مستحيل إذا وجد الأمل » ، ومن ثم فإن طاعة الوالدين واجبة لأنه من أطاع والديه فقد أطاع الله .

ونجد أن بعض العبارات ما يحض على الابتسام حتى تبتسم لمن يبتسم الدنيا ، وعلى الخلق الكريم الذى يدل على نقاء القلب ، وعلى

الكـرم ، وينفـر من البخـل ومن الغـرور ويدعـو إلى التقـوى ف « انت بخير ما اتقيت الله » .

وإذا كان على المرء منا أن يبتسم حتى تبتسم له الدنيا فإنه يجب عليه « أن يبتسم عند الهزيمة وأن يتواضع عند النصر » ! وإذا طلب المرء منا لا يطلب من مخلوق ولكن يطلب من الله جل وعلا . والعبرة كل العبرة ليست فى كثرة الكلام ولكن فى حسنه حتى يصيب مرماه ، والدموع لا وقت لها عند من يعمل . ومهما يكن من الأمر فإنه « إذا حسن البدء حسن الختام » ، وإنك إذا ذكرت الله فالله عون لك على ما تطلب ، فالعـظمـة لله ، والكـبرياء للشيطان ، والعقـل كالمـال لا يملكه الجميع ، والعمل الناجح يفرض نفسه . وليعلم المتقاعسون من أعضاء المجتمع أن « الحرية شجرة تروى بالدماء » .

(انظر أرقام ٢٢ و٢٩ و٢٧٤ و٣٠٠ و٨٢ و١١٥ و١٧٤ و٥٣ و٢٧٢ و٨٠ و٩٠ و٤٩ و٦٩ و٢٧٧ و٣٠ و١ و٢ و٣ و١١٣ و١٤٤ و١٢٩ و١٥٧ و٢ و٢١ و٢٨٠ و٣١٢ و١٧ و٢٦ و٩٩ و١٠٤ و٦٦) .

ويلاحظ القـارىء أننى اخـترت عشـوائيا ثلاثين عبارة تتضمن الأقوال المـأثـورة بالمعنى الـذى تبنتـه الـدراسـة الحـالية وهـذه العبـارات المختـارة تدعو نفس الدعوات التى تدعوها الحكم المذكورة فى (أولاً) . إنها كلهـا نصـائح ومحاذير وتدعو إلى السعادة التى تفسرها بأنها « راحة الضمير » ، وتراها تحض على الخلق الكريم وعلى نقاء القلب . كما تدعو إلى أن العبرة فى العمل الصالح وليست فى كثرة الكلام ، وفضلاً عن ذلـك ترى هذه العبـارات تؤكـد على طلب الحـرية وأنها ليست

بالتمنى ولكن لابد أن تؤخذ غلاباً ، فهى أى الحرية شجرة تروى بالدماء .

وهذه المعانى التى تدعو إليها عبارات الأقوال المأثورة معانٍ رفيعة وتتضمن قيماً اجتماعية ، يحتاج إليها المجتمع المصرى المعاصر فى ظروفه الراهنة . وقد لا يوافق القارىء على بعض ما جاء فى هذه العبارات وقد أشاركه هذا الرأى ، ولكننى لا يمكن أن أنكر أنها تردد الكثير مما تدعو إليه الكتب المقدسة وتقول به وتحض على التحلى بصفاته الحميدة . ولكن كلنا نعلم ، أقصد القارىء وأنا ، أنه ليس كل ما يقال يمارس . أى أن ظاهرة الازدواجية الثقافية فى هذه العبارات وفى العبارات السابقة أقصد عبارات الحكم ، واضحة كل الوضوح .

وإننى لا يمكن أن أرفض تلك العبارات أو هذه ولكنى حريص الحرص كله على أن تتحقق فى الواقع الحى . . أقصد فى معاملات أعضاء المجتمع ، وأنماط سلوكهم فى البيت وفى الشارع وفى المدرسة وفى المنظمة الدينية وفى الحقل وفى المصنع وفى إدارات الحكومة وفى غيرها ، حيث نجد تعامل الناس ، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً أم كباراً أم شباباً أم صبياناً أم أطفالاً .

ثالثاً ــ وجود بعض العبارات التى تتضمن الآيات القرآنية أو بعض أجزائها أى أن هذه العبارات تتضمن بعض أجزاء آية من الآيات القرآنية . ومن العبارات التى وجدتها عبارات تتضمن الأحاديث النبوية أو بعض أجزائها أو مأخوذة من الأحاديث النبوية . وقد تتضمن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية معانى هذه الآيات والأحاديث .

أ ــ وفى ضوء أرقـام الملحق زقم (١) اتضح أن عدد العبارات التى تتضمن الآيـات القـرآنيـة أو بعض أجزائها أو معانيها هو ٢٦ عبارة ويبينها الجدول التالى :

(العبارات التى تتضمن الآيات القرآنية أو بعض أجزائها أو معانيها)

العبارة	رقمها فى الملحق رقم (١)
١ ــ الحق أحق أن يتبع .	٦٧
٢ ــ اللهم اجعل معونتك العظمى لنا سنداً .	١١٨
٣ ــ اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم .	١٢١
٤ ــ المال والبنون زينة الحياة الدنيا .	١٢٤
٥ ــ إن الحسنات يذهبن السيئات .	١٤١
٦ ــ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .	١٤٢
٧ ــ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً .	١٤٣
٨ ــ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً .	١٤٤
٩ ــ إن الله لا يحب المستضعفين .	١٤٥
١٠ ــ إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .	١٤٦
١١ ــ إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .	١٤٧
١٢ ــ إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .	١٤٨
١٣ ــ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .	١٤٩
١٤ ــ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين .	١٥١
١٥ ــ إن الهدى هدى الله .	١٥٢
١٦ ــ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً .	١٥٣
١٧ ــ إن ربك لبالمرصاد .	١٥٤

١٨ ــ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء .	١٥٥
١٩ ــ إن ينصركم الله فلا غالب لكم .	١٥٦
٢٠ ــ تعاونوا على البر والتقوى .	١٧٥
٢١ ــ لا خير فى صدقة يتبعها أذى .	٢٦٥
٢٢ ــ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه .	٢٨٩
٢٣ ــ وبشر الصابرين .	٣١٦
٢٤ ــ وتلك الأيام نداولها بين الناس .	٣١٧
٢٥ ــ وكلوا من طيبات ما رزقناكم .	٣١٩
٢٦ ــ يارب هيىء لنا من أمرنا رشدا .	٣٢٢

ولعل القارىء قد لاحظ ، كما لاحظت ، تكرار آية « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » مرتين ، وآية « إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً » ثلاث مرات ، والملاحظ أن صحة هذه الآية كاملة « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » . أما باقى العبارات فهى تتضمن آيات قرآنية كاملة أو بعض أجزائها أو معانى لها . ومن الأمثلة على ذلك ما يلى :

الحق أحق أن يتبع . . فهى جزء مأخوذ من الآية القرآنية « أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع » و « اللهم اجعل معونتك العظمى لنا سنداً » أقرب إلى الدعاء الدينى الذى يقول « يارب هيىء لنا من أمرنا رشداً واجعل معونتك العظمى لنا سنداً » ، و « اللهم اهدنا صراطك المستقيم » مأخوذة من آية « اهدنا الصراط المستقيم » ، و « إن الله لا يغير ما بقوم حتى

يغيروا ما بأنفسهم » وهى آية كاملة ، و« إن الحسنات يذهبن السيئات » و« إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكـر والبغى » و« إن الله لا يحب المستضعفين » وهذه تتضمن معنى آية قرآنية ، « والمال والبنون زينة الحياة الـدنيا » ، و« لا خير فى صدقـة يتبعها أذى » وهى مأخوذة من الآية « قول معروف ومغفرة خير من صدقـة يتبعها أذى » ، و« بشر الصابرين » و« تلك الأيام نداولهـا بين النـاس » ، و« إن المبـذرين كانوا إخـوان الشياطـين » و« إن ربـك يبسط الـرزق لمن يشـاء » وهى مأخوذة من الآية « له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ، و« إن ربك لبالمرصاد » ، و« إن ينصركم الله فلا غالب لكم » ، و« تعـاونوا على البر والتقوى » ، و« من اهتدى فإنما يهتـدى لنفسه » ، و« وكلوا من طيبات ما رزقناكم » و« يارب هيىء لنا من أمرنا رشداً » .

وفى ضوء ما سبق نجد أن هذه العبارات تدعو إلى التمسك بالقيم الدينية ومنها التمسك بالحق ، والطلب من الله جل وعلا ، وفعل الحسنات ، والحث على الصلاة ، وإن الأجر والثواب من الله ، وإن التغير يكون إذا غيّر الناس أنفسهم . وقد تضمنت التحذير من التبذير ومن الظلم « إن ربك لبالمرصاد » ومن الصدقة التى يتبعها أذى . كما تضمنت الدعوة إلى الهداية ، وأكدت أن النصر من عند الله كما أكدت الدعوة إلى التعاون على البر ، وإلى الصبر ، وإن الرزق من عند الله ، والدعوة إلى الأكل الطيب الحلال . وتضمنت أن الفتح

مرجعه إلى الله جل وسما ، فضلا عن الدعاء لكى يرشدنا الله فى أمورنا .

ب ـ وفى ضوء أرقام الملحق (١) اتضح أن عدد العبارات التى تتضمن ، أحاديث نبوية أو بعض أجزائها أو معانيها هو ٢٤ عبارة ويبينها الجدول التالى :

(العبارات التى تتضمن الأحاديث النبوية أو بعض أجزائها أو معانيها)

العبارة	رقمها فى الملحق رقم (١)
١ ـ اتق الله حيثما كنت .	٤
٢ ـ اثنان فى النار الحاسد والحاقد .	٧
٣ ـ احفظ الله يحفظك .	١٠
٤ ـ إذا استعنت فاستعن بالله .	١٣
٥ ـ إذا سألت فاسأل الله .	١٨
٦ ـ إذا سألت فاسأل الله .	١٩
٧ ـ ازهد فيما عند الناس يحبك الناس .	٢٨
٨ ـ اعقلها وتوكل على الله .	٣٤
٩ ـ إغاثة الملهوف صدقة .	٣٥
١٠ ـ أكبر الكبائر سوء الظن بالله .	٣٩
١١ ـ التائب من الذنب كمن لا ذنب له .	٥٤
١٢ ـ الجنة تحت أقدام الأمهات .	٦٣
١٣ ـ الصدقة لا تزيد المال إلا كثرة .	٨٧
١٤ ـ أنت ومالك لأبيك .	١٦٠
١٥ ـ ثلاثة سيئة : الكذب والكسل والتشاؤم .	١٧٨
١٦ ـ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا .	١٨٤
١٧ ـ خيركم من تعلم القرآن وعلمه .	١٩١

ولعل القارىء أن يكون قد لاحظ ، كما لاحظت ، تكرار حديث (أو بالأحرى جزء من حديث) « إذا سألت فاسأل الله » مرتين ، وحديث (فى الواقع مأخوذ من حديث ليس بلفظه) « مجلس العلم روضة من رياض الجنة » مرتين أيضاً ، وكان ضمن العبارات حديث كامل هو « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » وآخر كامل هو « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

وتضمنت العبارات أيضاً بعض كلمات من الرسول ﷺ فى إحدى خطبه مثل « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » ، ومعنى لحديث هو « الصدقة لا تزيد المال إلا كثرة » ، فضلاً عن جزء من حديث بغير ألفاظه « ثلاثة سيئة : الكذب والكسل والتشاؤم » . أما باقى العبارات فهى تتضمن أجزاء من أحاديث نبوية .

وفى ضوء مّا سبق نجد أن العبارات التى تتضمن الأحاديث النبوية أو بعض أجزائها أو معانيها تدعو ، مثل بعض عبارات الآيات القرآنية أو أجزائها أو معانيها ، إلى الخلق الرفيع والخصال الحميدة ، فكلها من ورائها قيم دينية تهدف إلى صلاح الناس ونشر الدعوة . فهى تحض على التقوى وعلى الزهد وعلى التوكل على الله ، وعلى التوبة وعلى حساب النفس وعلى الأمانة وعلى

الرضا بما قسم به الله ، جل وعلا . وأكدت هذه العبارات على الاستعانة بالله وسؤاله وحده جل وعلا ، وتضمنت هذه العبارات بعض النصائح والتعاليم منها عدم سوء الظن بالله وأن الجنة تحت أقدام الأمهات ، و « أنت ومالك لأبيك » ، والحض على التعليم فـ « مجلس العلم روضة من رياض الجنة » ، والحض على واجبات المسئول نحو رعيته ، وعلى الصدقة وعلى إغاثة الملهوف . . . إلخ .

رابعاً ــ وجود بعض العبارات التى تتضمن « المناسبات الدينية والقومية » .

وقد بلغ عدد هذه العبارات ٣٦ عبارة (انظر الملحق رقم «٢») .

ويوضح عدد العبارات المذكورة الجدول التالى :

العبارة	رقمها فى الملحق رقم (١)
١ ــ الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج .	٤٠
٢ ــ الاحتفال بليلة النصف من شعبان .	٤١
٣ ــ الاحتفال بليلة عاشوراء .	٤٢
٤ ــ الجمعة المقدسة عند الأقباط .	٦٢
٥ ــ الشعانين الكبرى عند الأقباط .	٨٣
٦ ــ الغطاس عند الأقباط .	١٠٧
٧ ــ المولد النبوى الشريف ــ عيد الميلاد .	١٣٠
٨ ــ المولد النبوى الشريف .	١٣١
٩ ــ أول صوم العذراء .	١٦٢
١٠ ــ أول فصل الخريف .	١٦٣
١١ ــ أول فصل الربيع .	١٦٤
١٢ ــ أول فصل الشتاء .	١٦٥

٣٦ ــ وفاء النيل .   ٣١٨

وفى ضوء ما سبق نلاحظ أن عبارات المناسبات الدينية والقومية السالفة الذكر قد تضمنت المناسبات الإسلامية والمسيحية (القبطية) فضلاً عن المناسبات العربية . والملاحظ أن « أول فصل الصيف » لم يذكر فى الجدول السابق ، ويرجع ذلك إلى أن اليوم كان أحد أيام شهر رمضان عام ١٤٠٢ ه واستبدلت بعبارته عبارة مواعيد السحور والإمساك بالقاهرة والإسكندرية . وأن تحية « كل عام وأنتم بخير » تكررت مرتين . والأخيرة ــ أقصد التحية ــ تقال عادة فى المناسبات المذكورة .

ومهما يكن من الأمر فإن الاحتفالات بهذه المناسبات ليس لها وظائف دينية أو قومية فحسب . بل لها أيضاً وظيفة أو وظائف اجتماعية ظاهرة ، ولها كذلك وظيفة أو وظائف اجتماعية كامنة تلك التى تعنى فى حقيقة الأمر روح التضامن ، التى تسود أعضاء الشعب المصرى مسلمين ومسيحيين فى نطاق المجتمع المصرى ، وهى تعنى أيضاً هذه الروح أقصد روح التضامن التى تسود أو يجب أن تسود العلاقات بين المجتمع المصرى وغيره من المجتمعات العربية والإسلامية الأخرى .

إن هذه المناسبات ليست فقط « محطات » للاستراحة أو الاستجمام وإنما هى أيضاً للتذكر والتفكير فى الحادثات التى نواجهها فى الحاضر ، وفى الحاضر الذى كان ، فضلاً عن الحاضر الذى سيكون .

خامساً ــ وجود بعض العبارات (الأخرى) وعددها ١٨٠ عبارة ، وهى تتضمن عبارات التوجيه والدعاء والتحذير ، ثم الترشيد ثم الرأى والنصيحة (انظر الملحق رقم «٢») . وعبارات التوجيه تتضمن

بعض العبارات مثل « طلب الغفران عند المعصية » و« لا تنفق إلا بقدر ما تستطيع » و« راحة القلب فى قلة الاهتمام » و« النزاهة أن تعمل أفضل ما فى نفسك » و« أغناهم من قنع بما تيسر له » و« القوة معناها الشجاعة والصمود » (انظر أرقام : ٢١٣ و٢٦٢ و١٩٥ و١٣٣ و٣٦ و١١٢ من الملحق رقم «١») .

وعبارات الدعاء تتضمن بعض العبارات مثل « اللهم ألهمنى رشدى واعذنى من شر نفسى » و« يارب إليك المستند وعليك المعتمد » و« يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » و« يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » و« اللهم اعطنى إيماناً صادقاً » .

(انظر أرقام : ١١٩ و١٢٠ و٣٢١ و٣٢٣ و٣٢٤ من الملحق رقم «١») .

ويتضمن باقى بعض العبارات (الأخرى) عبارات التحذير والترشيد والرأى ثم النصيحة . (انظر الملحق رقم «٢») . ونجد أن التحذير يتضمن عبارتين : « إياك وعرق الأجير » و« إياكم والطمع فإنه الفقر » . أما الترشيد فنجد أنه يتضمن عبارتين أيضاً : « التأمين ضمان الأسرة وعز المجتمع » و« ليست الثروة فى المال ، بل فى الصفات الحميدة » . والرأى يتضمن عبارتين كذلك : « المال كله من الرجل لكن كله للمرأة » و« الذكاء : ميزة . . إنما الجمال امتياز » . والنصيحة : عبارة عن عبارة واحدة : « ولا تخش إلا الله » . (انظر أرقام : ١٦٨ و١٦٧ و٥٥ و٢٧٨ و١٢٣ و٧٦ و٣٢٩ من الملحق رقم «١») .

سادساً : أهم نتائج الدراسة :

(١) أن عددَ العبـارات التى تنـاولتها الدراسة الحالية هو ٣٢٧ عبارة فقط وليس ٣٦٥ عدد أيام عام ١٩٨٢ . وذلك لأن ٣٨ عبارة تضمنت أيام شهـر رمضـان وأيام عيد الفطر وأيام عيد الأضحى ومواعيد السحور والإمساك بمحافظتى القاهرة والاسكندرية وغيرها من العبارات التى لا تهم الدراسة الحالية .

(٢) إن اهتمامى بمحاولة المقارنة بين ما يكتب من عبارات فى أسفل نتيجة الحائط فى أيام الشهور الميلادية ، وما يقابلها من أيام الشهور الهجرية لم يجدِ نفعاً .

(٣) إن تكرار بعض العبارات أثبت أهميتها ، ومع ذلك فإننى لاحظت أن تقسيم وحدات أسلوب تحليل المضمون إلى حكم وأقوال مأثورة ، فضلاً عن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، لم تكن له ضرورة ملحة . فقد لاحـظت ، وأرجـو أن يكـون القـارىء قد لاحظ أيضاً ، أن معانى العبارات مستمدة من التراث الدينى والثقافى المصرى ، الذى يدعو إلى الخلق الطيب وفعل الخير ومخافة الله ، ومن يخفْ الله ينْأَ بالضرورة عن أخلاق الأرذال .

(٤) وقـد لاحظت أن العبارات السابقة قد هدفت إلى وعظ قارئها ، وأن الوعظ وحده مع أهميته ، لا يجدى كثيراً ، وأن العبرة كل العبرة فى أن يعيش الفرد منا معانى هذه العبارات ولا يكتفى بالاستماع لها .

(٥) أما العبارات التى تتضمن « المناسبات الدينية والقومية » وقد بلغ عددها ٣٦ عبـارة فقط ، لم تكن فى رأيى مجرد عبـارات من هذا القبيل .

فوظيفتها أو وظائفها الاجتماعية الظاهرة قد تكون دينية وقومية أما وظيفتها أو وظائفها الاجتماعية الكامنة فهى أعمق من ذلك . وإننى أراها تحقق بين صفوف أعضاء المجتمع المصرى مسلمين ومسيحيين روح التضامن التى يجب أن تسود العلاقات بين هؤلاء الأعضاء ، وحتى بين غيرهم من أعضاء المجتمعات العربية والإسلامية الأخرى .

وكما ذكرت من قبل فإننى أرى أن هذه المناسبات ليست فقط « محطات » للاستراحة أو الاستجمام ، وإنما هى أيضاً للتذكر والتفكير فى الحادثات التى نواجهها فى الحاضر وفى الحاضر الذى كان فضلاً عن الحاضر الذى سيكون .

(٦) والعبارات الباقية تتضمن عبارات توجيهية نحو الأفضل ، وتتناول عبارات الدعاء والتحذير والترشيد والرأى والنصيحة . ومعظم معانى هذه العبارات إن لم يكن كلها مستمد من التراث الدينى والثقافى المصرى ، مثلها مثل العبارات التى ذكرتها فى بند ٣ السابق .

(٧) إن قارئى البيانات التى يتضمنها مجال الدراسة الحالية ــ أى فى خلال عام ١٩٨٢ ، أقصد العبارات المكتوبة فى أسفل صفحات نتيجة حائط هذا العام (١٩٨٢) ــ عديدون ، فقد يبلغ عددهم حوالى ١ ٣٥٠ ٠٠٠ شخصاً . والملاحظ أن نقطة ارتكاز الدراسة الحالية هى نتيجة حائط بعينها قد توزع فى الحضر أو فى الريف أو هما معاً . أى أننا بصدد « جهاز ثقافى إعلامى مصرى » له خطره وخطورته فى محيط عدد كبير جداً من أعضاء المجتمع المصرى سواء أكانوا رجالاً أم نساء أم شباباً أم أطفالاً ، مع ملاحظة أن معانى مضامين العبارات المشار إليها

قد فرضت على قارئيها فرضا ، ولم يكن لهم فى اختيارها خيار ؛ لأنها فرضت من أعلى .

(٨) وقد حاولت ــ تيسيراً للقارىء الكريم ــ أن أضم إلى الدراسة الحالية ملحقين : أحدهما يتضمن جميع العبارات المكتوبة فى أسفل نتيجة الحائط عن عام ١٩٨٢ مرتبة حسب الحروف الأبجدية (٣٢٧ عبارة) ، وثانيهما يهتم بتبيان مضمون العبارات حسب عددها ونسبتها المئوية (٣٢٧ عبارة) . فضلاً عن بعض الجداول التى تبين العبارات المكتوبة المكررة (٤٩ عبارة) ، والتى تبين العبارات التى تتضمن الآيات القرآنية أو بعض أجزائها أو معانيها (٢٦ عبارة) ، والتى تبين العبارات التى تتضمن الأحاديث النبوية أو بعض أجزائها أو معانيها (٢٤ عبارة) ، والتى تبين العبارات التى تتضمن المناسبات الدينية والقومية (٣٦ عبارة) .

(٩) إن العبارات موضوع الدراسة الحالية لم يوجد من بينها مثل شعبى واحد بالمعنى الذى تبنته الدراسة والذى ذكرته فى حينه من قبل .

(١٠) إن معانى العبارات موضوع الدراسة الحالية تناولت أمانى القارئين ، والطريق الذى يجب أن يسلكوه فى حياتهم الدنيوية والأخروية . وفى ضوء المجال الزمنى للدراسة أود ، وألح فى هذه الرغبة ، التأكيد على عدم إسراف فى التعميمات . ولعل القارىء الكريم قد لاحظ ذلك من ثنايا ما عرضته فعلاً فى متن هذه الدراسة .

ملحق رقم (١)

يتضمن جميع العبارات المكتوبة فى أسفل نتيجة الحائط عن عام ١٩٨٢ مرتبة حسب الحروف الأبجدية (٣٢٧ عبارة)

رقم مسلسل	١٩٨٢ م		١٤٠٢ هـ
١	٨/١٦	ابتسم تبتسم لك الدنيا .	٢٦ شوال ١٤٠٢
٢	٩/١٤	ابتسم عند الهزيمة وتواضع عند النصر .	٢٦ ذو القعدة ١٤٠٢
٣	٢/٢١	ابتسم يبتسم لك العالم .	٢٧ ربيع ثان ١٤٠٢
٤	٢/١٩	اتق الله حيثما كنت .	٢٥ ربيع ثان ١٤٠٢
٥	٣/١١	اتق شر الحليم إذا غضب .	١٥ جماد أول ١٤٠٢
٦	٥/ ٨	اتق شر من أحسنت إليه .	١٤ رجب ١٤٠٢
٧	٢/٢٤	اثنان فى النار الحاسد والحاقد .	٣٠ ربيع ثان ١٤٠٢
٨	٩/ ٢	اثنان لا يشبعان . طالب علم وطالب مال .	١٤ ذو القعدة ١٤٠٢
٩	١١/٢٣	أحسن إذا أردت أن يحسن إليك .	٧ صفر ١٤٠٣
١٠	١١/ ٧	احفظ الله يحفظك .	٢١ محرم ١٤٠٣
١١	٧/٣١	أدب المرء خير من ذهبه .	١٠ شوال ١٤٠٢
١٢	١/١٦	إذا أردت أن تطاع اطلب المستطاع .	٢١ ربيع أول ١٤٠٢
١٣	١/٣٠	إذا استعنت فاستعن بالله .	٥ ربيع ثان ١٤٠٢
١٤	٥/٢١	إذا بلغت غاية الأمل فاذكر الموت .	٢٧ رجب ١٤٠٢
١٥	٥/٢٨	إذا تداعت أخلاق أمة عاجلها الفناء .	٥ شعبان ١٤٠٢
١٦	٤/٢٣	إذا تم العقل نقص الكلام .	٢٩ جماد ثان ١٤٠٢
١٧	١٠/ ١	إذا حسن البدء حسن الختام .	١٤ ذو الحجة ١٤٠٢
١٨	١/٢٩	إذا سألت فاسأل الله .	٤ ربيع ثان ١٤٠٢
١٩	١١/ ٦	إذا سألت فاسأل الله .	٢٠ محرم ١٤٠٣

٢٠	٩/ ٣	إذا شاورت العاقل صار عقله لك .	١٥ ذو الحجة ١٤٠٢
٢١	٩/٢٥	إذا طلبت فاطلب من الله .	٨ ذو الحجة ١٤٠٢
٢٢	١/٢٣	إذا عظمت أقداركم فتواضعوا .	٢٨ ربيع أول ١٤٠٢
٢٣	٨/٣٠	إذا كان القلب نقياً كان الخلق كريماً .	١١ ذو القعدة ١٤٠٢
٢٤	١٠/ ٩	إذا كان القلب نقياً كان الخلق كريماً .	٢٢ ذو الحجة ١٤٠٢
٢٥	٥/١٨	إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت .	٢٤ رجب ١٤٠٢
٢٦	١٠/ ٤	اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب .	١٧ ذو الحجة ١٤٠٢
٢٧	١١/ ٢	ازرع الخير تحصده .	١٦ محرم ١٤٠٣
٢٨	٨/ ٨	ازهد فيما عند الناس يحبك الناس .	١٨ شوال ١٤٠٢
٢٩	١/ ٦	استعفف عما عند الناس يحبك الناس .	١١ ربيع أول ١٤٠٢
٣٠	٧/٣٠	أطع والديك فإن طاعتهما من طاعة الله .	٩ شوال ١٤٠٢
٣١	٧/٢٩	اطلب العلم من المهد إلى اللحد .	٨ شوال ١٤٠٢
٣٢	٤/١٣	اعتمد على الله ثم على نفسك .	١٩ جماد آخر ١٤٠٢
٣٣	١٢/٢٩	أعظم انتصار للمرء انتصاره على نفسه .	١٤ ربيع أول ١٤٠٣
٣٤	١/٢٧	اعقلها وتوكل على الله .	٢ ربيع الثانى ١٤٠٢
٣٥	٣/ ٥	إغاثة الملهوف صدقة .	٩ جماد أول ١٤٠٢
٣٦	١٢/ ٦	أغناهم من قنع بما تيسر له .	٢٠ صفر ١٤٠٣
٣٧	٨/ ٥	أقل الناس قيمة أقلهم علما .	١٥ شوال ١٤٠٢
٣٨	١١/ ٩	أقواهم من قوى على نفسه .	٢٣ محرم ١٤٠٣
٣٩	١١/٢٠	أكبر الكبائر سوء الظن بالله .	٤ صفر ١٤٠٣
٤٠	٥/٢٠	الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج .	٢٦ رجب ١٤٠٢
٤١	٦/ ٦	الاحتفال بليلة النصف من شعبان .	١٤ شعبان ١٤٠٢
٤٢	١٠/٢٦	الاحتفال بليلة عاشوراء .	٩ محرم ١٤٠٣
٤٣	٩/٢١	الأدب خير ميراث .	٤ ذو الحجة ١٤٠٢
٤٤	٣/ ٩	الأدب وسيلة لكل فضيلة .	١٣ جماد أول ١٤٠٢

٤٥	١/٢٦	الأزمات هى أوقات الامتحان لنفوس الرجال .	أول ربيع الثانى ١٤٠٢
٤٦	١/٢٠	الاعتبار للرجال وليس للمال .	٢٥ ربيع الأول ١٤٠٢
٤٧	١١/١٨	الاعتبار للرجال وليس للمال .	٢ صفر ١٤٠٣
٤٨	١١/٢٢	الالتجاء إلى الكذب مظهر من مظاهر الجبن .	٦ صفر ١٤٠٣
٤٩	٦/ ٩	الأم تعطى الدفء والأب يعطى النور .	١٧ شعبان ١٤٠٢
٥٠	٨/١٣	الإنسان أرجوحة بين ابتسامة ودمعة .	٢٣ شوال ١٤٠٢
٥١	٥/١٩	الإنسان الحر أساس المجتمع الحر .	٢٥ رجب ١٤٠٢
٥٢	٩/ ٤	البخيل حابس نعمته وخادم ورثته .	١٦ ذو القعدة ١٤٠٢
٥٣	٤/٢٤	البيوت بدون الأمهات الصالحات قبور .	٣٠ جماد آخر ١٤٠٢
٥٤	١١/ ٨	التائب من الذنب كمن لا ذنب له .	٢٢ محرم ١٤٠٣
٥٥	٣/٣١	التأمين ضمان الأسرة وعز للمجتمع .	٦ جماد آخر ١٤٠٢
٥٦	٥/٢٥	التعاون يؤدى إلى الرخاء .	٢ شعبان ١٤٠٢
٥٧	١٢/١٩	التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر .	٤ ربيع الأول ١٤٠٣
٥٨	١/١٥	التفكير فى العمل خير العوامل القوية لانجازه .	٢٠ ربيع الأول ١٤٠٣
٥٩	٣/٢٧	الثبات عنوان النجاح .	٢ جماد آخر ١٤٠٢
٦٠	١٠/١٢	الثروة ليست لمن يجمعها ولكن لمن يستمتع بها .	٢٥ ذو الحجة ١٤٠٢
٦١	٦/ ٨	الثقة بالنفس طريق النجاح .	١٦ شعبان ١٤٠٢
٦٢	٤/١٦	الجمعة المقدسة عند الأقباط .	٢٢ جماد آخر ١٤٠٢
٦٣	١/١٠	الجنة تحت أقدام الأمهات .	١٥ ربيع الأول ١٤٠٢
٦٤	٢/٢٧	الحذر لا يمنع القدر .	٣ جماد أول ١٤٠٢
٦٥	١٠/١٩	الحذر لا يمنع القدر .	٢ محرم ١٤٠٣
٦٦	١١/ ٥	الحرية . . . شجرة تروى بالدماء .	١٩ محرم ١٤٠٣
٦٧	١٠/٢٧	الحق أحق أن يتبع .	١٠ محرم ١٤٠٣
٦٨	٨/٢٣	الحق قوة باطلة فى يد الضعيف .	٤ ذو القعدة ١٤٠٢
٦٩	٦/١٠	الحياة أمل ومن فقد الأمل فقد الحياة .	١٨ شعبان ١٤٠٢

٧٠	٥/١٤	الخضوع عند الحاجة ذكاء .	٢٠ رجب ١٤٠٢
٧١	١٢/١٦	الخلق الحسن عماد الدين .	أول ربيع الأول ١٤٠٣
٧٢	٥/٢٩	الخمر مفتاح كل شر .	٦ شعبان ١٤٠٢
٧٣	٨/٢٤	الدموع النقية تطهر العين .	٥ ذو القعدة ١٤٠٢
٧٤	٨/٢١	الدنيا دار العمل والآخرة دار الحساب .	٢ ذو القعدة ١٤٠٢
٧٥	١٢/ ٢	الدهر يومان : يوم لك ويوم عليك .	١٦ صفر ١٤٠٣
٧٦	١١/٣٠	الذكاء ميزة . . إنما الجمال امتياز .	١٤ صفر ١٤٠٣
٧٧	٩/١٢	الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل .	٢٤ ذو القعدة ١٤٠٢
٧٨	١٢/ ٨	الرجوع إلى الحق فضيلة .	٢٢ صفر ١٤٠٣
٧٩	٣/٢٦	الرد اللين يصرف الغضب .	أول جماد آخر ١٤٠٢
٨٠	٥/١٥	السعادة الكاملة هى راحة الضمير .	٢١ رجب ١٤٠٢
٨١	٢/ ٩	السعيد من اتعظ بغيره .	١٥ ربيع الثانى ١٤٠٢
٨٢	٣/١٢	الشباب هم وقود الأمة فى نضالها .	١٦ جماد آخر ١٤٠٢
٨٣	٤/١١	الشعانين الكبرى عند الأقباط .	١٧ جماد آخر ١٤٠٢
٨٤	٢/٢٨	الشكوى لغير الله مذلة .	٤ جماد آخر ١٤٠٢
٨٥	٤/ ٤	الصبر مفتاح الفرج .	١٠ جماد آخر ١٤٠٢
٨٦	٢/١٧	الصدق لغة الأقوياء والكذب وسيلة الجبناء .	٢٣ ربيع الثانى ١٤٠٢
٨٧	١١/٢١	الصدقة لا تزيد المال إلا كثرة .	٥ صفر ١٤٠٣
٨٨	٨/٢٢	الصمت رداء يخفى ضعف صاحبه .	٣ ذو القعدة ١٤٠٢
٨٩	٨/٢٦	الصمت رداء يخفى ضعف صاحبه .	٧ ذو القعدة ١٤٠٢
٩٠	٥/ ٥	الظلم أسرع الوسائل لزوال النعم .	١١ رجب ١٤٠٢
٩١	٥/٣١	العاقل من جعل للدهر حساباً .	٨ شعبان ١٤٠٢
٩٢	٨/ ٦	العالم والمتعلم شريكان فى الخير .	١٦ شوال ١٤٠٢
٩٣	١/١٢	العدل أساس الملك .	١٧ ربيع الأول ١٤٠٢
٩٤	١٠/ ٧	العظمة لله والكبرياء للشيطان .	٢٠ ذو الحجة ١٤٠٢
٩٥	١٠/٢١	العظمة لله والكبرياء للشيطان .	٤ محرم ١٤٠٣

٩٦	٧ /٢	العفاف زينة الفقر .	١٣ ربيع الثانى ١٤٠٢
٩٧	٢/٢٣	العفة مع الفقر خير من الغنى مع الفجور .	٢٩ ربيع الثانى ١٤٠٢
٩٨	٧ /١٢	العقل السليم فى الجسم السليم .	٢١ صفر ١٤٠٣
٩٩	٨/٢٧	العقل كالمال لا يملكه الجميع .	٨ ذو القعدة ١٤٠٢
١٠٠	٨/٢٩	العقل كالمال لا يملكه الجميع .	١٠ ذو القعدة ١٤٠٢
١٠١	١٠/١٦	العقل كالمال لا يملكه الجميع .	٢٩ ذو الحجة ١٤٠٢
١٠٢	٤/٢٨	العلم كالذهب ثابت فى كلّ مكان .	٤ رجب ١٤٠٢
١٠٣	٩/١٦	العلم والإيمان طريق الحياة الحرة الكريمة .	٢٨ ذو القعدة ١٤٠٢
١٠٤	١٠/١٧	العمل الناجح يفرض نفسه .	٣٠ ذو الحجة ١٤٠٢
١٠٥	٦/١٢	الغالب بالشر مغلوب .	٢٠ شعبان ١٤٠٢
١٠٦	٣ /١٠	الغضب ريح تهب ــ فتطفىء سراج العقل .	١٦ ذو القعدة ١٤٠٢
١٠٧	١/١٩	الغطاس عند الأقباط .	٢٤ ربيع الأول ١٤٠٢
١٠٨	٢ /٢	القناعة كنز لا يفنى .	٨ ربيع الثانى ١٤٠٢
١٠٩	٤ /٢	القناعة كنز لا يفنى .	١٠ ربيع الثانى ١٤٠٢
١١٠	٩ /٥	القناعة كنز لا يفنى .	١٥ رجب ١٤٠٢
١١١	٢ /٨	القليل إلى القليل كثير .	١٢ شوال ١٤٠٢
١١٢	١٢/٢٨	القوة معناها الشجاعة والصمود .	١٣ ربيع الأول ١٤٠٣
١١٣	٨/١٨	الكريم يقول بعمله والبخيل يقول بلسانه .	٢٨ شوال ١٤٠٢
١١٤	١٠/٢٢	الكريم يقول بعمله والبخيل يقول بلسانه .	٥ محرم ١٤٠٣
١١٥	٣/٢٨	الكفاح نوعان : كفاح للبقاء وكفاح للخلود .	٣ جماد آخر ١٤٠٢
١١٦	٤/٢٥	الكفاح نوعان : كفاح للبقاء وكفاح للخلود .	أول رجب ١٤٠٢
١١٧	٥ /١	الكلام الطيب بلسم العقل المريض .	١٠ ربيع الأول ١٤٠٢
١١٨	٢/١٢	اللهم اجعل معونتك العظمى لنا سنداً .	١٨ ربيع الثانى ١٤٠٢
١١٩	١٢/١٠	اللهم اعطنى إيماناً صادقاً .	٢٤ صفر ١٤٠٣
١٢٠	٥ /٤	اللهم الهمنى رشدى واعذنى من شر نفسى .	١١ جماد آخر ١٤٠٢

١٢١	٥ /٢	اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم .	١١ ربيع الثانى ١٤٠٢
١٢٢	٩ /١	المال سلطان يمنح القوة .	١٤ ربيع الأول ١٤٠٢
١٢٣	٤/٢١	المال كله من الرجل ولكن كله للمرأة .	٢٧ جماد آخر ١٤٠٢
١٢٤	٧ /٩	المال والبنون زينة الحياة الدنيا .	١٩ ذو القعدة ١٤٠٢
١٢٥	٢ /١٠	المحن هى وقت الامتحان لمعادن الرجال .	١٥ ذو الحجة ١٤٠٢
١٢٦	٤ /٣	المرء قليل بنفسه كثير باخوانه .	٨ جماد آخر ١٤٠٢
١٢٧	٣/١٨	المستحيل كلمة فى أفواه المجانين .	٢٢ جماد أول ١٤٠٢
١٢٨	٨/١٤	المغرور إنسان ينتهى إلى لا شىء .	٢٤ شوال ١٤٠٢
١٢٩	١٠/٢٠	المغرور إنسان ينتهى إلى لا شىء .	٣ محرم ١٤٠٢
١٣٠	٧ /١	المولد النبوى الشريف ــ عيد الميلاد .	١٢ ربيع الأول ١٤٠٢
١٣١	١٢/٢٧	المولد النبوى الشريف .	١٢ ربيع الأول ١٤٠٣
١٣٢	٥/١٧	المنافق يربح الناس ولكنه يخسر نفسه .	٢٣ رجب ١٤٠٢
١٣٣	**١١/١١**	**النزاهة أن تعمل أفضل ما فى نفسك .**	**٢٥ محرم ١٤٠٣**
١٣٤	٣ /٤	النظافة من الإيمان .	٩ جماد آخر ١٤٠٢
١٣٥	**٤ /١٢**	**النفاق طريق الضعيف .**	**١٨ صفر ١٤٠٣**
١٣٦	٥/١١	الوحدة خير من جليس السوء .	١٧ رجب ١٤٠٢
١٣٧	٣/١٩	الوقاية خير من العلاج .	٢٣ جماد أول ١٤٠٢
١٣٨	٣/١٣	الوقت أثمن ما ينفقه الإنسان .	١٧ جماد أول ١٤٠٢
١٣٩	٣ /١	الوقت كالمال لا يملكه الجميع .	٨ ربيع الأول ١٤٠٢
١٤٠	٩ /٤	آمال الإنسان وأخلاقه مرهونة بجده واجتهاده .	١٥ جماد آخر ١٤٠٢
١٤١	٦ /٤	إن الحسنات يذهبن السيئات .	١٢ جماد آخر ١٤٠٢
١٤٢	١ /٥	إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .	٧ رجب ١٤٠٢
١٤٣	٢/١٤	إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً .	٢٠ ربيع الثانى ١٤٠٢
١٤٤	٥ /١٢	إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً .	**١٩ صفر ١٤٠٣**
١٤٥	٥/٢٤	إن الله لا يحب المستضعفين .	أول شعبان ١٤٠٢

١٤٦	٤/٢٧	إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .	٣ رجب ١٤٠٢
١٤٧	٦/١٥	إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .	٢٣ شعبان ١٤٠٢
١٤٨	١٠/٢٥	إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .	٨ محرم ١٤٠٣
١٤٩	٣/١٠	إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .	١٤ جماد أول ١٤٠٢
١٥٠	٩/ ٦	إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه .	١٨ ذو القعدة ١٤٠٢
١٥١	١١/١٠	إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين .	٢٤ محرم ١٤٠٣
١٥٢	١/١٣	إن الهدى هدى الله .	١٨ ربيع الأول ١٤٠٢
١٥٣	١/ ٢	إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً .	٧ ربيع الأول ١٤٠٢
١٥٤	١٢/ ٣	إن ربك لبالمرصاد .	١٧ صفر ١٤٠٣
١٥٥	١١/١٧	إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء .	أول صفر ١٤٠٣
١٥٦	١٢/٢١	إن ينصركم الله فلا غالب لكم .	٦ ربيع الأول ١٤٠٣
١٥٧	٨/٣١	أنت بخير ما اتقيت الله .	١٢ ذو القعدة ١٤٠٢
١٥٨	٤/ ٨	أنت تريد وغيرك يريد والله يفعل ما يريد .	١٤ جماد آخر ١٤٠٢
١٥٩	٦/١٧	أنت تريد وغيرك يريد والله يفعل ما يريد .	٢٥ شعبان ١٤٠٢
١٦٠	٧/٢٧	أنت ومالك لأبيك .	٦ شوال ١٤٠٢
١٦١	٦/ ٢	أول الغضب جنون وآخره ندم .	١٠ شعبان ١٤٠٢
١٦٢	٨/ ٧	أول صوم العذراء عند الأقباط .	١٧ شوال ١٤٠٢
١٦٣	٩/٢٣	أول فصل الخريف .	٦ ذو الحجة ١٤٠٢
١٦٤	٣/٢٠	أول فصل الربيع .	٢٤ جماد أول ١٤٠٢
١٦٥	١٢/٢٢	أول فصل الشتاء .	٧ ربيع الأول ١٤٠٣
١٦٦	٤/٣٠	أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة .	٦ رجب ١٤٠٢
١٦٧	١١/ ١	إياكم والطمع فإنه الفقر .	١٥ محرم ١٤٠٣
١٦٨	٥/٢٢	إياكم وعرق الأجير .	٢٨ رجب ١٤٠٢
١٦٩	٦/ ٣	بالعلم والمال تبنى الشعوب أوطانها .	١١ شعبان ١٤٠٢
١٧٠	١١/٢٩	بالمثابرة تتحقق الأعمال العظيمة .	١٣ صفر ١٤٠٣

١٧١	٧/٢٨	بلاء الإنسان من اللسان .	٧ شوال ١٤٠٢
١٧٢	٢/١٠	تاج المروءة التواضع .	١٦ ربيع الثانى ١٤٠٢
١٧٣	١٢/١٢	تزاحم الأيدى على الطعام بركة .	٢٦ صفر ١٤٠٣
١٧٤	٣/١٥	تسلح للمستقبل بالعلم والمعرفة .	١٩ جماد الأول ١٤٠٢
١٧٥	**١٢/١٤**	**تعاونوا على البر والتقوى .**	**٢٨ صفر ١٤٠٣**
١٧٦	٨/ ٣	تفاءل بالخير تناله .	١٣ شوال ١٤٠٢
١٧٧	١٢/٢٠	تنظيم العمل يوفر نصف الوقت .	٥ ربيع الأول ١٤٠٣
١٧٨	٣/٢٤	ثلاثة سيئة : الكذب والكسل والتشاؤم .	٢٨ جماد أول ١٤٠٢
١٧٩	٩/١٩	ثلاثة مطلوبة : العلم والمال والصحة .	٢ ذو الحجة ١٤٠٢
١٨٠	٩/١٨	ثلاثة معظمة : الشرف والوطن والحرية .	أول ذو الحجة ١٤٠٢
١٨١	٥/٢٦	ثمرة العجلة الندامة وثمرة التأنى السلامة .	٣ شعبان ١٤٠٢
١٨٢	٤/٢٢	جمال الخلق أفضل من جمال الخلقة .	٢٨ جماد آخر ١٤٠٢
١٨٣	**١١/ ٤**	**جمال المرء فصاحة اللسان .**	**١٨ [illegible] ١٤٠٣**
١٨٤	٨/ ٤	حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا .	١٤ شوال ١٤٠١
١٨٥	**١٢/ ١**	**حسن السمعة ثروة .**	**١٥ صفر ١٤٠٣**
١٨٦	١٢/٣٠	حفظك لسرك أوجب من حفظ غيرك له .	١٥ ربيع الأول ١٤٠٣
١٨٧	٦/١٣	خدمة الوطن فرض على كل حر .	٢١ شعبان ١٤٠٢
١٨٨	٨/ ٩	خذ الخير من أهله ودع الشر لأهله .	١٩ شوال ١٤٠٢
١٨٩	٥/٢٧	خميس الصعود عند الأقباط .	٤ شعبان ١٤٠٢
١٩٠	٤/١٥	خميس العهد الجديد عن الأقباط .	٢١ جماد آخر ١٤٠٢
١٩١	٩/ ٨	خيركم من تعلم القرآن وعلمه .	٢٠ ذو القعدة ١٤٠٢
١٩٢	١٢/١٣	دواء الدهر . . . الصبر عليه .	٢٧ صفر ١٤٠٢
١٩٣	٦/٢٠	راحة الجسم فى قلة الطعام .	٢٨ شعبان ١٤٠٢
١٩٤	**١٢/٢٦**	**راحة الضمير . . . هى المتعة .**	**١١ ربيع الأول ١٤٠٣**
١٩٥	٧/٢٥	راحة القلب فى قلة الاهتمام .	٤ شوال ١٤٠٢
١٩٦	١/١٤	رأس السنة الجوليانية عند الأقباط .	١٩ ربيع الأول ١٤٠٢

١٩٧	١١/١٣	**راقب ربك فى عملك ينصلح حالك .**	**٢٧ محرم ١٤٠٣**
١٩٨	٧/٢٦	رب سكوت أبلغ من كلام .	٥ شوال ١٤٠٢
١٩٩	٢/ ١	رب مصادفة خير من ألف موعد .	٧ ربيع الثانى ١٤٠٢
٢٠٠	٢/ ٣	رب مصادفة خير من ألف موعد .	٩ ربيع الثانى ١٤٠٢
٢٠١	٢/١٦	رب مصادفة خير من ألف موعد .	٢٢ ربيع الثانى ١٤٠٢
٢٠٢	٥/ ٦	رب مصادفة خير من ألف موعد .	١٢ رجب ١٤٠٢
٢٠٣	٣/١٧	رحم الله من هدانى إلى عيوبى .	٢١ جماد أول ١٤٠٢
٢٠٤	٤/ ٢	سلامة الإنسان فى حلاوة اللسان .	٨ جماد آخر ١٤٠٢
٢٠٥	١٢/٢٥	سوء الخلق يعدى .	١٠ ربيع الأول ١٤٠٣
٢٠٦	٤/١٩	شم النسيم .	٢٥ جماد آخر ١٤٠٢
٢٠٧	٩/٢٤	شمعة الكذب لا تضىء .	٧ ذو الحجة ١٤٠٢
٢٠٨	٣/ ١	صوم الأروام عند الأقباط .	٥ جماد آخر ١٤٠٢
٢٠٩	١١/٢٥	صوم الميلاد عند الأقباط .	٩ صفر ١٤٠٣
٢١٠	٩/٢٠	طاعة الوالدين من طاعة الرب .	٣ ذو الحجة ١٤٠٢
٢١١	٤/٢٠	طريقان للنجاح . صدق دائم وعمل دائم .	٢٦ جماد آخر ١٤٠٢
٢١٢	٤/١٤	طعام السخى دواء وطعام البخيل داء . (أربع أيوب) .	٢٠ جماد آخر ١٤٠٢
٢١٣	٥/١٢	طلب الغفران عند المعصية .	١٨ رجب ١٤٠٢
٢١٤	**٥/١٨**	**طهارة النفس خير من طهارة البدن .**	**٣ ربيع الأول ١٤٠٣**
٢١٥	٣/٣٠	عظمة الرجل فى قيامه بعد فشله .	٥ جماد اخر ١٤٠٢
٢١٦	**١٠/٢٩**	**عقل المرأة نصف جمالها .**	**١٢ محرم ١٤٠٣**
٢١٧	٤/٢٩	عليك بصحبة رجل ينصحك بعمله لا بقوله .	٥ رجب ١٤٠٢
٢١٨	٦/ ٧	عند الامتحان يكرم المرء أو يهان .	١٥ شعبان ١٤٠٢
٢١٩	٦/١٩	عود لسانك الحق تسلم من الشر .	٢٧ شعبان ١٤٠٢
٢٢٠	٣/٢١	عيـد الأم .	٢٥ جماد أول ١٤٠٢
٢٢١	٤/ ٧	عيد البشارة عند الأقباط .	١٣ جماد آخر ١٤٠٢

٢٢٢	٨/١٩	عيد التجلى عند الأقباط .	٢٩ شوال ١٤٠٢
٢٢٣	٦/١٨	عيد الجلاء ـ ليلة النقطة عند الأقباط .	٢٦ شعبان ١٤٠٢
٢٢٤	٤/١٨	عيد الفصح عند الأقباط .	٢٤ جماد آخر ١٤٠٢
٢٢٥	٦ / ١٠	عيد القوات المسلحة .	١٩ ذو الحجة ١٤٠٢ .
٢٢٦	١٢/٢٣	**عيـد النصـر .**	**٨ ربيع الأول ١٤٠٣**
٢٢٧	٢/٢٢	عيد الوحدة ـ الصوم الكبير عند الأقباط .	٢٨ ربيع الثانى ١٤٠٢
٢٢٨	٨/٢٨	عيد انتقال العذراء عند الأقباط .	٩ ذو القعدة ١٤٠٢
٢٢٩	٧/٢٣	عيد ثورة ٢٣ يوليو .	٢ شوال ١٤٠٢
٢٣٠	٨ /٣	عيد ثورة سوريا .	١٢ جماد أول ١٤٠٢
٢٣١	١ /٩	عيد ثورة ليبيا ـ الفاتح من سبتمبر .	١٣ ذو القعدة ١٤٠٢
٢٣٢	٩/١١	عيد رأس السنة القبطية (١٦٩٩) .	٢٣ ذو القعدة ١٤٠٢
٢٣٣	١٠/١٨	**عيد رأس السنة الهجرية ١٤٠٣ .**	**أول محرم ١٤٠٣**
٢٣٤	١٠/٢٤	**عيد مدينة السويس والمقاومة الشعبية .**	**٧ محرم ١٤٠٣**
٢٣٥	٥ /٩	غش القلوب يظهر فى فلتات اللسان .	١٧ ذو القعدة ١٤٠٢
٢٣٦	٨ /١	غضب الأب من غضب الرب .	١٣ ربيع الأول ١٤٠٢
٢٣٧	١ /٨	فعل المرء يدل على أصله .	١١ شوال ١٤٠٢
٢٣٨	٤/٢٦	فى الأيام عظة لمن يتعظ .	٢ رجب ١٤٠٢
٢٣٩	١/١٨	قوة الإيمان الصبر على الشدائد .	٢٢ ربيع الأول ١٤٠٢
٢٤٠	٤ /٥	قوة الحق فيمن ينطق به .	١٠ رجب ١٤٠٢
٢٤١	٣/١٤	كثرة الضحك تذهب الهيبة .	١٨ جماد أول ١٤٠٢
٢٤٢	١ /٤	كثرة الضحك يميت القلب .	٧ جماد آخر ١٤٠٢
٢٤٣	٨ /٢	كل راع مسئول عن رعيته .	١٤ ربيع الثانى ١٤٠٢
٢٤٤	٤ /٦	كل شىء زائل إلا الحقيقة .	١٢ شعبان ١٤٠٢
٢٤٥	١ /١	كل عام وأنتم بخير .	٦ ربيع الأول ١٤٠٢
٢٤٦	١٢/٣١	كل عام وأنتم بخير .	١٦ ربيع أول ١٤٠٣
٢٤٧	٨/١٢	كن صادقاً تنجو من المهالك .	٢٢ شوال ١٤٠٢

٢٤٨	٩/١٥	كن فخورا بوطنك غيورا عليه .	٢٧ ذو القعدة ١٤٠٢
٢٤٩	٥/١٦	كن قدوة لغيرك فى عمل الخير .	٢٢ رجب ١٤٠٢
٢٥٠	٣/١٦	كن للظالم خصماً وللمظلوم سنداً .	٢٠ جماد أول ١٤٠٢
٢٥١	٩/١٠	كنوز الأرزاق فى سعة الأخلاق .	٢٢ ذو القعدة ١٤٠٢
٢٥٢	٢/٢٠	لا إيمان لمن لا أمانة له .	٢٦ ربيع الثانى ١٤٠٢
٢٥٣	٣/ ٦	لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد .	١٠ جماد أول ١٤٠٢
٢٥٤	٥/ ٣	لا تؤخر عمل اليوم للغد .	٩ رجب ١٤٠٢
٢٥٥	٣/٢٩	لا تدرك الراحة إلا بالتعب .	٤ جماد آخر ١٤٠٢
٢٥٦	٣/٢٣	لا تسرف فى وعد لا تثق فى الوفاء به .	٢٧ جماد أول ١٤٠٢
٢٥٧	١٠/٢٨	لا تسمع كل ما يقال ولا تقل كل ما تسمع .	١١ محرم ١٤٠٣
٢٥٨	٣/٢٢	لا تضيق الدنيا برجل كانت طباعه الكرم .	٢٦ جماد أول ١٤٠٢
٢٥٩	٢/٢٥	لا تعمل فى السر ما تستحى منه فى العلانية .	أول جماد أول ١٤٠٢
٢٦٠	١٢/٢٤	لا تغضب . . . فالصبر جميل .	٩ ربيع الأول ١٤٠٣
٢٦١	٤/١٢	لا تكن ليناً فتعصر ولا يابساً فتكسر .	١٨ جماد آخر ١٤٠٢
٢٦٢	٥/١٣	لا تنفق إلا بقدر ما تستطيع .	١٩ رجب ١٤٠٢
٢٦٣	٨/١٠	لا حليم إلا ذو عثرة ولا حكيم إلا ذو تجربة .	٢٠ شوال ١٤٠٤
٢٦٤	٨/١٣	لا حياة لمن لا حياء له .	٢٦ ذو الحجة ١٤٠٢
٢٦٥	٩/ ٩	لا خير فى صدقة يتبعها أذى .	٢١ ذو القعدة ١٤٠٢
٢٦٦	٢/١٨	لا دليل أهدى من توفيق الله .	٢٤ ربيع الثانى ١٤٠٢
٢٦٧	٢/٢٦	لا شىء أسرع لإزالة النعمة غير الظلم .	٢ جماد أول ١٤٠٢
٢٦٨	٢/١٣	لا قيمة للمرء إلا بما ينفع الناس .	١٩ ربيع الثانى ١٤٠٢
٢٦٩	٨/١٧	لا يذوق لذة الغنى من لم يذق مرارة الفقر .	٢٧ شوال ١٤٠٢
٢٧٠	١٠/٢٣	لا يذوق لذة الغنى من لم يذق مرارة الفقر .	٦ محرم ١٤٠٣
٢٧١	٦/ ١	لا ينظر الله إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم .	٩ شعبان ١٤٠٢
٢٧٢	٤/١٠	لعن الله قوماً ضاع الحق بينهم .	١٦ جماد آخر ١٤٠٢
٢٧٣	٤/١٧	لكل شىء طريق . وطريق السعادة الاستقامة .	٢٣ جماد آخر ١٤٠٢

٢٧٤	١/٢٨	لكل مجتهد نصيب .	٣ ربيع الثانى ١٤٠٢
٢٧٥	١٢/١٧	لكى يستمع الناس إليك استمع إليهم .	٢ ربيع الأول ١٤٠٣
٢٧٦	٥ / ١٠	لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع .	١٨ ذو الحجة ١٤٠٢
٢٧٧	٥ / ٦	ليس هناك مستحيل إذا وجد الأمل .	١٣ شعبان ١٤٠٢
٢٧٨	٣ / ١١	ليست الثروة فى المال ، بل فى الصفات الحميدة .	١٧ محرم ١٤٠٣
٢٧٩	١/٢٢	ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط .	٢٧ ربيع الأول ١٤٠٢
٢٨٠	٩/١٣	ما أكثر الكلام ولكن ما أحسنه إذا أصاب .	٢٥ ذو القعدة ١٤٠٢
٢٨١	١٢/١١	ما عرف الحق من لم يتبعه .	٢٥ صفر ١٤٠٣
٢٨٢	١/٢٤	ما لا ترضاه لنفسك لا ترضاه لغيرك .	٢٩ ربيع الأول ١٤٠٢
٢٨٣	٥/١٠	مال الإنسان لا يرافقه على قبره .	١٦ رجب ١٤٠٢
٢٨٤	١/٢١	مجلس العلم روضة من رياض الجنة .	٢٦ ربيع الأول ١٤٠٢
٢٨٥	٦/١٤	مجلس العلم روضة من رياض الجنة .	٢٢ شعبان ١٤٠٢
٢٨٦	٦ / ٢	مصائب قوم عند قوم فوائد .	٢٢ ربيع الثانى ١٤٠٢
٢٨٧	٥/٣٠	من أجل أن تعيش يجب أن تعمل .	٧ شعبان ١٤٠٢
٢٨٨	٦/١١	من أطاع هواه باع دينه بدنياه .	١٩ شعبان ١٤٠٢
٢٨٩	٩ / ١٢	من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه .	٢٣ صفر ١٤٠٣
٢٩٠	١٠/٣١	من بالغ فى الخصومة فهو آثم .	١٤ محرم ١٤٠٣
٢٩١	٢/١١	من ترك الشبهات عاش حزاً .	١٧ ربيع الثانى ١٤٠٢
٢٩٢	١١/١٤	من توكل على الله كفاه .	٢٨ محرم ١٤٠٣
٢٩٣	١١/٢٦	من جار على صباه جارت عليه شيخوخته .	١٠ صفر ١٤٠٣
٢٩٤	٣ / ٣	من جهلنا نخطىء ومن أخطائنا نتعلم .	٧ جماد أول ١٤٠٢
٢٩٥	١٠/١٤	من دخل مداخل السوء . اتهم .	٢٧ ذو الحجة ١٤٠٢
٢٩٦	٣/٢٥	من رد النصيحة ندم .	٢٩ جماد أول ١٤٠٢
٢٩٧	١١/٢٧	من رد النصيحة ندم .	١١ صفر ١٤٠٣
٢٩٨	١٠/٣٠	من رضى بالقضاء صبر على البلاء .	١٣ محرم ١٤٠٣
٢٩٩	١/١٧	من سار على الدرب وصل .	٢٢ ربيع الأول ١٤٠٢

٣٠٠	١/٣١	من صبر وتأنى نال ما تمنى .	٦ ربيع الثانى ١٤٠٢
٣٠١	١٠/١١	من طلب العلم سهر الليالى .	٢٤ ذو الحجة ١٤٠٢
٣٠٢	٨/٢٥	من عاش بوجهان مات ولا وجه له .	٦ ذو القعدة ١٤٠٢
٣٠٣	٨/١١	من عرف قيمة الحق عز عليه أن يكون مهضوماً .	٢١ شوال ١٤٠٢
٣٠٤	٣/ ٧	من عرف نفسه لم يضره قول الناس .	١١ جماد أول ١٤٠٢
٣٠٥	١٠/١٠	من غضب من لا شىء رضى بلا شىء .	٢٣ ذو الحجة ١٤٠٢
٣٠٦	١٠/١٥	من قل ورعه مات قلبه .	٢٨ ذو الحجة ١٤٠٢
٣٠٧	٣/ ٢	من كان عفيفاً عاش شريفاً .	٦ جماد أول ١٤٠٢
٣٠٨	٩/٢٢	من لانت كلمته وجبت محبته .	٥ ذو الحجة ١٤٠٢
٣٠٩	٨/٢٠	من نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره .	أول ذو القعدة ١٤٠٢
٣١٠	١/٢٥	من يبيع الآخرة بالدنيا يخسرهما جميعاً .	٣٠ ربيع الأول ١٤٠٢
٣١١	١٢/١٥	من يطارد عصفورين .. يفقدهما .	٢٩ صفر ١٤٠٣
٣١٢	٩/١٧	من يعمل ليس لديه وقت للدموع .	٢٩ ذو القعدة ١٤٠٢
٣١٣	٥/ ٧	مهما علا الباطل لابد للحق أن يعلو عليه .	١٣ رجب ١٤٠٢
٣١٤	١١/١٩	نصف رأيك مع أخيك .. فاستشره .	٣ صفر ١٤٠٣
٣١٥	١١/١٢	نية المرء خير من عمله .	٢٦ محرم ١٤٠٣
٣١٦	١١/٢٤	وبشر الصابرين .	٨ صفر ١٤٠٣
٣١٧	١١/١٦	وتلك الأيام نداولها بين الناس .	٣٠ محرم ١٤٠٣
٣١٨	٨/١٥	وفاء النيل .	٢٥ شوال ١٤٠٢
٣١٩	١/ ٤	وكلوا من طيبات ما رزقناكم .	٩ ربيع الأول ١٤٠٢
٣٢٠	٢/١٥	ولا تخش إلا الله .	٢١ ربيع الثانى ١٤٠٢
٣٢١	٥/٢٣	يارب إليك المستند وعليك المعتمد .	٢٩ رجب ١٤٠٢
٣٢٢	١/١١	يارب هيىء لنا من أمرنا رشدا .	١٦ ربيع الأول ١٤٠٢
٣٢٣	٥/ ٢	يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك .	٨ رجب ١٤٠٢
٣٢٤	٦/١٦	يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك .	٢٤ شعبان ١٤٠٢
٣٢٥	١٠/ ٨	يبدأ الطغيان حيث ينتهى القانون .	٢١ ذو الحجة ١٤٠٢

٣٢٦	١١/١٥	يعيش المحسن وإن مات .	٢٩ محرم ١٤٠٣
٣٢٧	١١/٢٨	يقسو على نفسه كل من يرحم عدوه .	١٢ صفر ١٤٠٣

ملحق رقم (٢)

مضمون العبارات حسب عددها ونسبتها المئوية
(٣٢٧ عبارة)

مضمون العبارات		العدد	النسبة المئوية
الحكم		١٣٢	٤٠,٤
الأقوال المأثورة		٩١	٢٧,٨
آيات قرآنية وأحاديث نبوية		٥٠	١٥,٣
مناسبات دينية وقومية		٣٦	١١,٠
عبارات أخرى :			
التوجيه	٦		
الدعاء	٥		
تحذير	٢		
ترشيد	٢		
رأى	٢		
نصيحة	١		
	ـــــ	١٨	٥,٥
المجموع		٣٢٧	١٠٠,٠

١٥ ــ قصص شعبية مصرية

لا يمكن إلا أن أتذكر عندما كنت أشترى سلعة من السلع التى يتطلبها أعضاء أسرتى الصغيرة ، ووجدت البائعة تترنح وهى تجهز لى السلعة المطلوبة على قصة شعبية من القصص التى نستمع لها فى هذه الأيام والمسجلة على « كاسيتات » . كانت البائعة تدير الكاسيت على « مسجل » . وكانت إذ تترنح لا تستمع لما أسمع فقط بل كانت تترنم بالقصة التى تستمع لها بألفاظها لفظاً لفظاً .

وتكررت هذه التجربة مرة أخرى ، عندما ركبت إحدى سيارات الأجرة لفترة طويلة ، فكنت أسمع قصصاً شعبية عديدة مسجلة على كاسيتات . كنت أستمع إليها بشغف تماماً كما كان يفعل سائق السيارة . ولأنى كنت أستمع لهذه القصص لأول مرة لم أحفظ منها كلمة واحدة ، على عكس السائق الذى كان إذ يترنح برأسه يترنم بالقصة التى كان يستمع لها ، تماماً كما كانت تفعل البائعة المذكورة آنفاً .

كان السائق والبائعة فى مقتبل العمر . ولذلك فقد أذهلتنى تجربتى التالية عندما رأيت رجلاً كبير السن يرقص مترنماً على أنغام إحدى القصص المذاعة من جهاز تسجيل يحتفظ به لأنه يملكه . ويرجع ذهولى إلى أن هذا الرجل كان موظفاً فى إحدى المؤسسات العلمية المرموقة ، ولم يكن الوقت الذى كان يدير فى خلاله جهاز التسجيل وقت فراغه ، بل كان وقت عمله !

وفى أحد النوادى الرياضية الاجتماعية الذى أنتمى إليه كعضو كنت جالساً وحدى وكان يجلس الكثيرون من حولى ، وفوجئت ، وأعتقد أنهم فوجئوا أيضاً ، بالاستماع لإحدى القصص الشعبية مذاعة من « بوفيه » النادى الذى كان يديره بعض العمال .

كانت هذه بعض التجارب التى مرت بى وعشتها فى الأونة الأخيرة ، أقصد فى خلال العقد الماضى . وتذكرت صباى منذ عدد كبير من السنين عندما كنا ، الأطفال وأنا ، نشاهد « سفيرة عزيزة » ونستمع لقصتها التى كان يرويها للرجل المسئول عما كان يعرف بـ « صندوق الدنيا » . وكنت أرى ولا أستمع لما يقوله « شاعر الربابة » فى المقاهى التى كانت تنتشر فى الحى الذى كان بيتنا يقع فى إحدى حاراته .

لم أكن أجرؤ وكذلك لداتى لم يكونوا يجرؤون على الجلوس على مقهى من هذه المقاهى للاستماع وشرب « المشروب » ! ولكنى عندما استطعت القراءة حرصت على شراء الكتيبات التى كانت تتضمن بعض ما كان يرويه شاعر الربابة من قصص وملاحم . وإذا كنت لم أجرؤ على الاستماع لما يقوله شاعر الربابة وأنا فى مرحلة الصبا ، فإننى كنت أشاهد « خيال الظل » مع عدد من الأطفال لكى نسمع ونشاهد عن طريق الشاشة التى كانت صغيرة ومن ورائها « لمبة جاز » ، بعض القصص الساذجة . وكان خيال الظل لا يعمل إلا ليلاً ، ولذلك كنت أذهب إلى الاستماع والمشاهدة خلسة حتى لا يعرف أحد من أعضاء أسرتى عن ذهابى شيئاً . وفى الموالد ، أقصد موالد الأولياء ، وفى الأعياد لم يكن تفوت صبيان الحارة وأطفالها رؤية « الأراجوز » والاستماع لقصصه الساذجة .

كان ذلك الذى كان ، ونحن الآن فى فترة أخرى فترة « الكاسيتات المسجلة » التى يستمع لقصصها العديدون من أعضاء المجتمع المصرى المعاصر . والفصل الحالى يحاول تسجيل بعض هذه القصص المسجلة على كاسيتات على أساس أنها تمثل عندى إحدى القنوات الثقافية الإعلامية المصرية ، والتى أصبح انتشارها بين الناس فى الحضر وفى الريف ملحوظاً .

وسأحاول فى هذا الفصل ليس مجرد التسجيل ولكنى سأجتهد للقيام بتحليل ما سجلت ثم استخراج بعض النتائج .

وأرجو أن يلاحظ القارىء أن القصص المسجلة فى المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى كثيرة ، ومن ثم فإننى اضطررت إلى اختيار بعض هذه القصص تيسيراً للقارىء ، وتحقيقاً للغرض الذى تهدف إليه الدراسة الحالية . وكان اختيارى للقصص متعمداً وذلك لأننى لا يمكن فى حدود وقتى ومالى الحصول على كل أجهزة الكاسيتات المسجلة عليها القصص الشعبية فى المجتمع المصرى المعاصر . وبالإضافة إلى ذلك فإننى حرصت على أن يكون مجال هذه القصص موزعاً جغرافياً بقدر الإمكان ، وأن لا تتكرر مضامين القصص المختارة وإن كان ذلك متعذراً . ومن ثم فإن عدد القصص الشعبية التى سجلتها فى هذا الفصل عشر قصص . منها ما أخذ من واقع المجتمع المصرى ثم أعطى إلى هذا المجتمع بعد صياغته درامياً ، ومنها ما أخذ من أساطير قديمة قدم الدهر وصيغ درامياً أيضاً لكى يتلقاه المستمعون وهم متأثرون وجدانياً بما يستمعون إليه .

والملاحظ أن صياغة هذه القصص على الرغم من ذلك قام بها أناس معروفون ، وعرضت فى ضوء ألحان تستهوى العديد من أعضاء مجتمعنا ، وكان أداؤها أداء محبباً وغير منفر . أى أن موضوع القصة قد لا يعرف له مؤلف ، ولكن الصياغة الجديدة واللحن الجديد والأداء يكون مؤلفوها عادة معروفين . ومع ذلك ، أو من أجل ذلك ، تجاسرت بوصف القصص المعروضة فى هذه الدراسة بالقصص الشعبية المصرية . وليغفر لى القارىء إذا كان رأيه يخالف ما وصلت إليه مجتهداً غير متعسف ، فقد أكدت لى صواب هذا الرأى اللغة التى سجلت بها هذه القصص فقد كانت لغة الشعب اللغة الدارجة فى معظم

الأحيان . ومع ذلك أيضاً ، أو من أجل ذلك ، أود أن أعترف أن قولى إن صياغة القصص المعروضة صياغة درامية ربما يكون فيه مغالاة .

أ ـ قصة حسن وحسين

هذه القصة تدور حول بعض الموضوعات ، أهمها موضوعا « الغربة » و « اليتم » . وهى تدور فى صعيد مصر فى « الواسطى » وفى « أسيوط » . والأبطال عديدون ولكن أهمهم العم وزوجته والطفلان حسن وحسين . وتعنى القصة فى مضمونها الدرامى بمعاملة العم وزوجته للطفلين وبخاصة بعد وفاة أبيهما الذى كان قد فقد أمهما من قبل . أى أن حسن وحسين أصبحا يتيمين من الأم والأب ، ولكن الأب ترك ميراثاً قدره عشرة من الفدادين ، وأصبح العم بالضرورة وصياً عليهما .

وكان العم شخصاً طماعاً وساعدته زوجته على ذلك ، أى أن العم كان يرى أنه أحق فى الميراث من حسن وحسين ، وكانت زوجته ترى نفس هذا الرأى فالميراث أولى بأن ينعم به أبناؤهما . وفى ضوء هذا نجد أن حسن وحسين أصبحا فى حالة يرثى لها . وكما تقول القصة « الظهر لطش معاهم وليلهم أصبح نهار » و « عاشوا مع عمهم وكأنهم أغراب » . وكان من رأى العم أن يعمل على تشتيت الطفلين فى البلاد . و « عمل حسابه مع مراته وشح عليهم » .

وانتهزت زوجة العم الفرصة عندما استيقظ حسين من النوم ـ الذى لم يكن نوماً ودموع عينيه على خديه ، فقرر أن يشتكى حاله وحال أخيه إلى علية القوم فى البلد ـ فأوغرت صدر زوجها ، عمهما ، فازداد الأخير طغياناً ، فما كان من حسين إلا أن ترك البيت ورحل إلى أسيوط . وفى هذه الأثناء ذاق

الجوع والعطش والتعب من السير على الأقدام . وكان من حظه أنه صادف سيدة مرموقة اجتماعياً ، وسألته عن حاله فأخبرها بما فعلت به الأيام . ورق قلب هذه السيدة التى لم تكن قد أنجبت من قبل واتخذته ابناً لها ولزوجها .

وأصبح حسين منذ ذلك الحين يعرف بين الناس بهذه المكانة الإجتماعية . وجاءته الفرصة فتعلم حتى نال « ليسانس الحقوق » . ولتفوقه عين مساعداً للنائب العام ثم وكيلاً « واللى انكتب انكتب للعبد من سعده » . ثم سعت أمه البديلة من أجل زواجه .

ثم نجد أن القصة ترجع إلى الوراء لتحكى عما حدث للطفل حسن منذ أن تركه أخوه حسين مشرداً . وذكرت أن حسن عاش فى مذلة فى بيت عمه وأن زوجته « الغبية وفعلها البطال قالت لجوزها أن ابن أخيك طول لسانه قوى وداير بيلعب شوفلك وسيلة معاه وما تقعدوش بطال » وصدع العم بها أمر ووجد له عملاً ليقتات منه ، و « يعمل بأكله » واختار له أن يعمل « جمالاً » . وقد أرغم حسن على هذا العمل الشاق وقال له العم « لو تدخل النار لازم كلمتى تمشى » . ومن حسن حظ الطفل حسن أن الجمل الذى كان يرعاه ويقوده « أحبه » . وعمل حسن مع هذا الجمل سبع سنين أو يزيد و « حسن صبح فى الجمالة له مقام فى وسط البلد » .

ونلاحظ أن القصة اتجهت نحو حسن وابنة عمه التى أحبته قبل أن يحبها وكانت « فى الديار وياه بالكمال » . وذكر حسن لابنة عمه مصارحاً « أبوك غدر وياما شوفت العذاب منه ، ولكن الصغير يكبر ولم عدت أخاف منه » . واصطحب بعض أعيان البلد ليخطبها من عمه الذى قال لهم بخبث « حسن ابن أخويا أحسن من الأغراب » . ولكن زوجة العم لم يرضها هذا الكلام وصممت على الغدر والخيانة وطلبت من ولديها السعى من أجل موت حسن

و « مادام فتح ما يستناش » . واتفق الولدان على قتل حسن « وقاموا وعملوا للأسى عدة ، واليوم عدى وبكـره يموت ، وقاموا قوام الفجر وخشوا المناخ وتغلبـوا عليه وكتموا نفسه وكان لوحده ومعهشى صديق » . ثم رأى الجمل ما حدث ففزع قائماً بعد أن كان « باركاً » وسد باب « المناخ » « وماهانشى عليه جّماله » . وهجم حسن على ابنى عمه وذبح كلا منهما . وعندما رأت أمهما زوجة العم ما حدث انهلع فؤادها وخصوصاً عند رؤيتها لـ « دمهم يجرى زى النيل » .

وتنتهى القصـة بعـد أن وصل « للحكومة » الخبر ، وبعد أن قال وكيل النيابة المحقق زميل أخيه حسين « الاله أنقذ حسن بالحق » . وإن « إرادة الحق بتساعد المظلوم » وجرد العم من جميع أملاكه وما كان منها وصياً عليها وقابل حسين حسن بعد طول الغياب ، وبنت عم حسن قالت « حسن مظلوم وأبويا غدار وابن عمى كان عايش ذليل مظلوم » . ثم ختمت القصة ببعض النصائح منها : « اخلص ضميرك ومشى فى الطريق مضبوط » و « النبى طه البشير وصى كتير على الغرب والأيتام » .

ب ـــ قصة أم اليتامى

بدأت القصـة بالتحذير من ظلم الناس للآخرين ، فالظلم حرمه رب الناس على عباده . وتدور موضوعات القصة حول موضوع « يتم الأطفال » ومـا يلاقـونـه من أذى بسببـه . وأبطال القصة هم الأم الأرمل وابنها وبنتها الطفلان ، والزوج الذى تزوجته من أجل ستر عرضها وتربية طفليها ، وأخيراً الرجل الطيب الذى أنقذها وأنقذ طفليها من قبل .

ترملت الأم وكانت فى ريعان شبابها حلوة المقاطع ، وترك لها زوجها بعد

وفـاته طفلين ، هما ولد فى سن الخامسة وبنت فى سن الرابعة . وكان أبوهما صالحاً ، ولكن الأم « استسلمت لله وقعدت تربى اليتامى » . وهى كسيدة أرمـل وشـابـة وجميلة بدأ الناس من حولها يتكلمون عنها كلاماً لا تقوى فيه ولا إيمان . وعلى الرغم من أنها كانت سيدة مستقيمة فإنها بسبب هذا الكلام « جسمها استوى » . فما كان منها إلا أن تزوجت من أول رجل توسمت فيه الإخلاص وخصوصاً عندما قال لها « اللى راح يتعوض وأنا راجل غنى وجمالك يقعد فى البيت وتربى اليتامى » . ولكن لم يمر شهر فقط على زواجها من هذا الـرجـل حتى « ظهر على حقيقته » وطالبها بالنقود التى عندها وصار يعذب الطفلين ويعاملهما معاملة قاسية .

ولما كانت الأم « كان قصدها تربى أولادها فى ضل راجل يصونها ويحافظ على أولادها » فإنها لبت طلب هذا الزوج وأعطته كل ما معها من نقود . وتمادى الرجل فى قسوته على الطفلين وطردهما من البيت . ولما ذكرت الأم زوجها بالآية القرآنية الكريمة « . . وأما اليتيم فلا تقهر » لم يأبه الزوج ، وعندما هددته بترك البيت قال لها إن فعلت ذلك « فأنت طالقة » وتركت البيت فعلاً عندما تذكرت طفليها وقالت « ولادى صغار ما يعرفوا حاجة ومشيو لا معين لهم إلا الله » .

وذهبت إلى دروب الحياة تروح وتجىء وكأنها كانت تدور حول نفسها . ثم وجهت كل كيانها إلى الله داعية « يارب لا تذل الضعيف وأنت قوى ، وتصلح حالى ويسر لى كل أمر عسير » .

ثم تعود القصة إلى الطفلين بعد أن تركا البيت وتحاول وصف ما حدث لهما . ولما كانت تقاسيم وجه كل منهما جذابة ظهرا وكأنهما من أسرة ذات مكانة اجتماعية عالية . وقابلهما « قاطع طريق » وطمع فى مال أبيهما ظاناً أنه بالضرورة رجل ذو ثراء . ولكن خاب أمل قاطع الطريق بعد أن سجنهما فى حجرة مظلمة

وسمع الولد يقول « قاسى علينا الزمان وحرمنا من أبونا ، وأمى اتجوزت راجل غير أبونا » ثم بكت البنت وأخوها بكاء مراً . وقرر الطفلان الهرب وهربا فعلاً .

وتعود القصة إلى الأم لتحدثنا عما حدث لها . وكانت الأم تسير على الأقدام « فى البلد دى تشتغل وفى البلد دى تمشى » . وجاء الظلام فنامت الأم واستيقظت وهى جزعة إذ رأت أمامها « قاطع طريق » هددها وطلب منها ما تحمله ولم يكن معها سوى مصاغها فأعطته له وأنقذت نفسها من شروره . ولم تجد شيئاً تفعله سوى أن تقول « حسيبك للزمن !! » . ثم جالت فى الفيافى وهى تتذكر طفليها وتتساءل « ياترى انتو فين يا أولادى . مشيو اليتامى يبكوا جعانين وعطشانين ولا يوم هنا اتهنوه ! ماهومشى بيت يروحوه . ما حد أبداً فتح بيته دخلوه » .

وكان الطفلان فعلاً « يسيرون بلا هدف يبكون من الجوع وعلى الخدود الدموع » .

وفى يوم وجدوا حديقة يجلس على مقاعدها الآباء والأمهات وحولهم أبناؤهم يرتعون ويلعبون . فما كان من الطفلين إلا أن هيئا مأوى لهما بجوار إحدى أشجار الحديقة وعاشا عيشة ضنك . ورآهما شاب وشابة دخلا الحديقة وهما فى حالة يرثى لها « نايمين على الأرض لا فرش ولا غطا والهدوم دابت والجمال راح » . وكان الشاب والشابة أخوين فذهبا إلى أبيهما فدعا الأب الطفلين ليعيشا معه ومع ولديه اللذين كانت أمهما متوفاة ، واستبدل بحالهما السىء حال حسن . وعاش الطفلان فى عز بعد ذلك . وكان هذا الرجل الطيب دائماً مريضاً . « كان الرجل ده غنى لكن علته مرضه . . وكرامة للأيتام ربنا شفاه من مرضه . . ولما طاب قال فاعل الخير ربنا ينوله طلبه » .

ووصلت الأم وهى ترحل فى البلاد إلى « بركة سبع » حيث يعيش الرجل الطيب الذى ذكرته آنفاً . ولم يعرف أهل البلد عن الأم شيئاً « أتاريها كانت أم الأولاد . . ماشية تدور فى البلاد » .

وتختم القصة بأن الأم عرفت مكان ابنها وبنتها وأنهما يعيشان فى بيت الرجل الطيب . وتزوج ابنها بنت هذا الرجل كما تزوجت ابنتها ابنه وتزوج الرجل الأم وعاش الجميع فى هناء وسعادة . وقالت الأم « وقلعت توب الفقر ولبست توب العز » .

جـ ــ قصة عاصى الوالدين

بدأت القصة بمخاطبة أهل الكمال ، وبالدعاء إلى الله بالتوفيق ، وبمدح النبى طه ﷺ . كما بدأت ببعض النصائح التى تتضمن أن المستمع يجب عليه أن يوحد ربه ولا ينساه ولا يعبد إلا إياه ، فضلاً عن التحـ [illegible] عصيان الوالدين « آه ياويل عاصى والديه » . وأبطال القصة الأب والأم والابن ثم الزوجة التي تزوج منها الابن .

وكان الأب رجلاً صالحاً . وكان رأس ماله « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وكان يعيش الأب مع زوجته (الأم) وأنجب منها ابناً وبنتين . ويبدا أن سلوك الابن كان على عكس سلوك أعضاء الأسرة وعلى رأسهم الأب الصالح . كان لا يستذكر دروسه ويترك فروض الله « لا دراسة ولا إيمان ولا شىء يرضى الاله » . وسلم الأب أمره إلى الله ربه حتى انتهى عمره « مات مغلوب على أمره » . وترك الأم وابنتيها اللتين أصبحتا فى عداد اليتامى والابن العاصى الذى لم تستطع الأم أن تروضه .

وذكرت الأم لابنها عندما أصر على بيع ما يملكه من ميراث فى البيت الذى

تركه أبوه ويترك البلد الذى يعيش فيه لكى يذهب إلى المدينة الكبيرة مدينة القاهرة قائلة « راعى اليتامى ياابنى وانت الوحيد وعاوز تفوتنا » . فلم يهتم بما قالته الأم . وطلبت الأم من عمه الكبير أن يسدى إليه النصيحة ولكن بلا جدوى . ولم يهتم الابن لكلام الناس من الجيران ومن غيرهم وقالوا لأنفسهم « نسى الحنان والعطف ونسى أنهم ربوه . يا عاصى ارجع لربك ، ده الأدب فيه السعادة وقليل الأدب مكروه » و « كان أبوك من أهل الصلاح منتش طالع له يا صلاح (اسم الابن) ليه انت طالع كده سفاح ما تقوللى ماشيك يعجب مين ؟ » و « ليه انت طالع كده عاصى وعلى الولايا قلبك قاسى . . وعلى الحالة دى منتش راسى عيب وخللى عندك دين » .

ولكنه لم يسمع لأحد وأخذ نصيبه من الميراث و « على مصر سافر يا حاضرين يسهر ويبذر القرشين » . وفى أثناء إقامته فى مصر (القاهرة) قابل الابن ثلاثة من الشبان يكونون عصابة فانضم إليهم وصار واحداً منهم يفعل كما يفعلون .

وأقحمت القصة واقعة أن الأم رأته على هذه الحال فكررت نصائحها وقالت له « ارجع عن غيك » . وتحدثت إلى نفسها قائلة « قول ياعينى على اللى يقضى العمر وحدانى ــ الناس عايشة فى نعيم وحبايبى ناسيانى » وتخاطب الزمن قائلة : « دانت زمن غدار » ثم عادت وكأنها تولول قائلة « ليه الحبايب نسيونا بعد المحبة هجرونا » . ثم سالت دموعها غزيرة على خديها . وقالت وكأنها تنصح الابن : « اللى يحب الحلال ليه الحرام تراعيه ــ أصل الحرام يهد العالى ويوطيه » و « دا اللى بيزرع شوك بايديه راح يجنيه واللى بيمشى عدل يحتار عدوه فيه ــ واللى بيحب الرسول ربنا يعليه » .

ومع العصابة بدأ الابن يرتكب الجرائم ، وقبض عليه وسجن ولكنه بدا

عليه الاستهتار ولم يبحث عن الصديق المخلص . ومع ذلك فقد أحس الابن (كما تقول القصة) بالإهانة فى خلال سجنه (قضى السجن ندمان وطلع من السجن متهان » ، وصمم على ترك العصابة ، وسار فى البلاد على غير هدى « ماشى سواح فى البلدان ــ حزين ما يعرف رايح فين » !

وفى أثنـاء الطريق وجد بنية تقود رجلاً ويتسولان . كانت الصبية جميلة وكان الرجل ضريراً . فما كان من الابن إلا أن سار وراءهما وبدا الأسى يطل من عينيه . فلما رأياه « حلفوا لم يفوتوه وعلى البيت معاهم دوغرى خدوه » . واقترح الرجل الضرير وهو أب البنية أن يزوجها للابن ظاناً أنه شاب نشأ فى طاعـة الله . وبعـد شهر مات أبو الصبية فاقترح الأبن أن تترك زوجته حرفة التسـول إلى التجارة . فالتجارة كلها بركة . ووافقت الزوجة الشابة تواً فقد أصبـح الابن ، أى زوجها الشخص الوحيد الذى يرعاها . وكانت الزوجة تعمل فى محل التجارة وهو جالس فى البيت « وشغلته الشاى والتدخين » . وبعد فترة اقنع الابن زوجته باعطائه نقود التجارة ويتركان البلد إلى بلد آخر . ونفدت النقود فتركها الابن وذهب فى سبيله وحده حيث التقى بسيدة بدت له أنها ثرية فصمم على سرقتها بعد قتلها . وقتلها فعلاً . .

وتنتهى القصة بعد أن وصل الحكومة الخبر وتم القبض على الابن وحقق معه ثم حوكم وحكم عليه بالإعدام الذى نفذ فيه بعد أن ترك جنيناً فى بطن زوجته سيولد بالضرورة يتيماً !

د ــ قصة الوصية

بدأت القصة من النهاية . وهى تهدف إلى الاهتمام بتحقيق ما أوصاه أب لابنه الأكبر على رعاية أخيه الصغير . وأبطالها : الابن الأكبر والابن الأصغر وزوجة الابن الأكبر .

كان الابن الأكبر يعمل فى التجارة ويغيب عن البيت فترات من الوقت من أجل تحقيق حاجات أخيه الصغير الذى أوصى أبوه قبل أن يموت بأن يهتم به « وأنا وصيتى أن تاخد بالك من حسين (الأخ الأصغر) . وانتهى أجل الأب بعد ذلك مباشرة . « والأب أجله انتهى والأمر أمر الله . . وكل شىء فى الوجود جارى بأمر الله » .

ومرت الأيام والأخ الأكبر فنى نفسه من أجل الصغير « كان يجوع علشان الأخ يشبع » وكبر الصغير وصار شاباً مليحاً ، وكان يتبادل مع أخيه الأكبر الحب والاحترام والاكبار . وفى ذات يوم اقترح الأخ الصغير الذى كبر على أخيه الأكبر بعد أن صار عمره قد بلغ الخامسة والأربعين ولم يتزوج ـ اقترح عليه الزواج . وألح عليه فى ذلك حتى لا يحرم نفسه من متعة الزواج . وتردد الأخ الأكبر « بعد السنين اللى فاتت مين ترضى بى » ، « ده يهون العمر علشانك وفى الوصية أبوك وصانى علشانك . . انت أخويا الصغير ومهمتى أراعيك وأعيش حياتى كده أو كده علشانك » . ولكن الأخ الصغير رد عليه أن يترك الأوهام وأن « أهم شىء الرجولة والشهامة » .

وكانت الزوجة المرشحة من بيت طيب ، وكانت جميلة وشابة . « ولما جاء النصيب فرحت وقالت قوموا افتحوا له الباب » . ومرت السنون الحلوة على الأخ الأكبر فى الفترة الأولى من الزواج « ومرت الأيام والزوجة مستحية ولكن الأخ الأكبر كان هو الضحية ، مرة تبكى ومرة عينيها لم تنام » . ودخل الشيطان بين الأخ الأكبر وزوجته ليفرق بينه وبين أخيه الأصغر « أنا معرفتش أفرق بين الأخين وهما مع بعض فلابد أن أفرق بينهم عن طريق الزوجة » ووسوس الشيطان قائلاً لها « انت حلوة وزوجك كبير وبيكبر وأخوه الصغير انت أولى بيه . . دانت بينك وبينه (أى زوجها) السنين ياما ـ وأخوه أهو جنبك والميه ما تمشيش على عطشان » .

وخططت الزوجة الطريقة التى تحقق بها هدف وسوسة الشيطان . وغاب الزوج فى تجارة وعندما عاد بعد أسبوع قال لها « افتحى النهاردة يوم سعيد أسبوع كأنه سبع سنين » ووجدها تبكى وادعت أن أخاه الأصغر راودها عن نفسها « دور عليه تحت الشجر تلاقيه ولا ترجع إلا إن قتلته والتراب يتاويه . ده كان عاوز يخونك ولازم تاخد بتار شرفك » ثم قالت الزوجة لزوجها إنه لا ولد لها وان أخاه إذا عاد يرث كل شىء تقريباً مما تملك . ثم طلبت من الزوج أن يكتب لها نصيبه وأن يعطيها أمواله . وإذا كان الشيطان قد وسوس لها فانها هى ، أى الزوجة ، أصبحت شيطاناً ، ومهما يكن فان « عمر الخسيس لو طال لابد يجى يوم والطبع بيخونه » .

وفى ذات ليلة قامت الزوجة وكان زوجها الأخ الأكبر نائماً ، ولكنه استيقظ على حركتها وأحس بها أنها خرجت فقام وتبعها . وفى الطريق مرت على مكان الأخ الأصغر « وخبطت عليه وقالت ارحم الأحباب » « دى خبطت على الباب علشان يفتح وزوجها كان من وراها بيسمع » وقالت « فيه ناس بتشترى وناس تبيع ، وأنا شارياك ، زوجى لا يحبك وهو اجوزنى وأنا قد أولاده » . فرد الأخ الأصغر قائلاً « أخويا غالى ولا يمكن أن أخونه . . أخويا أغلى شىء عندى وعمرى ما أخونه ودى الحقيقة وده آخر كلام عندى » . وعندئذ تدخل الأخ الأكبر (الزوج) فتخابثت الزوجة وقالت « أنا جيت علشان أصالحك مع أخيك » قال لها « روحى بحالك وحالك وكفاية أخويا أشيله برموش عينى » و « رضا الوالدين رحمة وهداية وكرامة . . والحرام موجود والحلال موجود » . وقال الأخ الأصغر « فوقى يازوجة أخى إيه اللى بتقوليه . . يارب لاجل النبى دبرنى أعمل إيه ، أخويا كان من الممكن يجوز وأنا صغير أما انت محتارة أقول معاك إيه » .

ثم اختتمت القصة بقول الأخ الأصغر :

« ولأول مرة لا دخل البيت ديا   شى الله ياأسيادنا ياأوليا »

هـ ــ قصة نطق الجمل

بدأت القصــة بالصــلاة على الحبيب النبى « كنـز الأرامـل والـوليات والغريب » . ثم الطلب من الله جل وسما أن يكون للسامعين نصيب فى زيارته ﷺ و« نشـاهـد الحجرة والأرض البقيع ونطوف بالحجرة والكل الجميع » . ودخلت القصــة فى الموضوع ذكرت « أمدح نبى راحله الجمل قالوا الشفاعة يا حبيب القلوب اشفع لنا يوم الكروب » . ويبدو أن أبطال القصة هم النبى ﷺ والجمال صاحب الجمل والجمل نفسه . وانها أى القصة حدثت والنبى ﷺ على قيد الحياة ، ومكانها الجزيرة العربية ..

ويـدأ حديث القصـة بأن أعرابياً كان يملك ناقة لم تلد له منذ عشرين عاماً ، وأن هذا الأعرابى رأى فى المنام أنه زار النبى ﷺ وـام من النوم « فرحان بطه الزين ومحبته . . ودمعته من صحن الخد تجرى قناة » . وقال لقومه ما رأى بعد أن سألوه « على اللى جرى ولا تخبى » . ومن يوم رؤيته المنامية صار « قلبه متولع بزيارة طه الزين » ، وقال يدعو الرب سبحانه وتعالى « يامن رفعت سماك من غير عمـد ولعتنا بالزين توريه لنا » . ولكن كان الأعرابى لا يملك جملاً يحمله إلى مسافات بعيدة « سفر النبى شهرين » وفجأة نجد أن القصة تذكر أن الرجل صاحب الناقة فك قيودها وتركها بين الجمال « يافرحته لما على ضهرها » ثم وهبته ابنها لزيارة النبى ليسافر به « أوفت شهورها الناقة وجابت بعير» . وفرح الأعرابى فى ليلة ولادته وسمعت الزغاريد فى كل مكان . و« قعد يكلف البكر خمس سنين وحط الحمل ولاقاه يميل ــ صبر عليه سنة وحط الحمل وفك القيود » .

وتهيأ صاحب الجمل للسفر « وصار يجد السير فى وسيع الجبال يادمع عينه سال وبـل الـرمال » . وما أن جاء وقت العصر إذا بثلاثة أشخاص قابلوه ، « ثلاثة من اليهود الله ينكد على الحسود » . وأرغموه على أن يشتركوا معه فى الجمل بالزور والبهتان . ووجدوا الجمل « يبرك » . « وكان النبى جالس ومعه صحبتـه » . وقـال الجمّال متذكراً « آدى المنام اللى رأيته لقيته وفرح الأعرابى (صاحب الجمل) بلقا الزين » ، واشتكى واحد من اليهود لسيدنا محمد ﷺ وقال « يامحمد شوف اللى جرى . . وإن الأعرابى عاب فى حقنا » ، « قام النبى قال بسرعة وسكته ـ انت معكشى بينة ـ لا توجد اثنين شهود يثبتو قولك » . ثم ذهب اليهودى وأحضر زميليه شاهدين شهادة زور وحلفوا اليمين . ولكن الجمل تقدم إلى النبى ﷺ وقال « السلام عليك » وقال النبى للجمل « عليكم السـلام ياجمل » ، وقال الجمل « اسمع لقولى أنا . . مادقنا هنانا إلا هنا ـ أمـا الأعـرابى ده صاحبى عن يقـين ويوم الوعد يسألنى ربنا » . قال النبى للجمـل « كلام الجمل تمام والكذب كله ضلال لكن العدل نور » . وهرب اليهود فارين منكسى الرؤوس وبان على وجوههم كذبهم وبهتانهم .

وختمت القصة بالدعوات : « أول كلامى بالصلاة على الحبيب ـ يارب يجعل لينا لزيارته نصيب » .

و ـ قصة صابر وصابرة

بدأت القصة بالدعوة إلى الصبر فـ « الصبر من الإيمان » والصابر يعيش سعيداً . ثم دعت القصة إلى توحيد الإله الكريم المتعال « وحد إله الكون وكن راضى باللى يكون » ، ثم الصلاة على النبى المختار « وصلى على المختار تملى باستمرار يشفـع إليك بالنـار » . وتضمنت القصة أبطالها : صابرة الزوجة

وزوجها صابر وابن أخ صابر وطفل وطفلة وأب بديل للطفلين ، وأم بديلة لهما وأحد أعداء الأب البديل وابنة الأخير وابنه .

وتدور القصة حول صابرة وصابر المحرومين من الإنجاب ، على الرغم من غنى الزوج « تملى عال العال غنى وعنده مال » . وكان الزوج تقياً يؤدى فروض الله يصلى ويؤدى الزكاة ويؤمن بالله وباليوم الآخر وأدى فريضة الحج . ولكنه كان حزيناً فلما سألته زوجته صابرة عن حزنه قال « الناس فاكرين أننا أسعد ناس والحمد لله وصحتنا عال ، أنا غير سعيد من كثرة المال ايه فايدة المال وأنا من الخلف محروم ـــ حداى المـال كتير بالكوم » . وخاف الرجل من الغرور « الغنى يجلب الغرور » .

وفى إحـدى الليالى كانت صابـرة تسير فى أرجاء البيت فوجدت زوجها يصلى . وقالت له « ياصابر ليه بتبكى لأن يمكن ربنا يكرمنا وننجب » ، فما كان منه إلا أن رفع يديه إلى السماء ودعا رب السموات والأرض . وذكر إحدى آيات من القرآن الكريم تتعلق بالنبى يحيى بن النبى زكريا عليهما السلام . ورزق بولد وبنت « ورزقت بعيال ارزقنى برزق حُلال ـــ يارب خذ المال وهات بداله عيال » . وبعد أن رزق بالطفلين فرح كثيراً ولكن « ماالحقشى يفرح . وأبوهم مات وهما صغار » . وصابرة الزوجة كانت امرأة مؤمنة فقالت « يارب لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه » .

وحاول ابن عم صابر زوج صابرة المتوفى أن يتزوجها « أنا عاوز أحل محل ابن عمى وأجوزك » فردت « لا أمير حجوزه ولا خفير أجوزه » و « ايه فايدة اللى يعيش لجمالى ومن جمالى ينـظلم حالى وفى الحالة دى بقى يتبهدلوا عيالى » . وحاول ابن عم زوجها أن يتقول عليها ويهينها من أجل أن يذلها ويحرمها من « اللقمة » ، ولكن « ما طال منها سماح » . و « بسابت البلد باللى فيها ومشيت

فى وسط الجبال لا أكل ولا مية » ثم تفاجىء القصة القارىء ويتلو المؤدى آيات من القرآن الكريم :

« إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ويعلم
ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ،
وما تدرى نفس بأى أرض تموت » .

ثم نجد أن القصة تذكر أن الأم (صابرة) ماتت وتركت الطفلين « ربنا يرعاهم » . وعلى الرغم من أن جثة الأم قد ماتت فإن ثدييها كانا حيين . وكان الطفل الابن يرضع من ثديها اليمين وأخته الطفلة ترضع من ثديها الشمال . « والجثة ميتة ومازال اللبن نازل بإذن الله » . وناجت القصة الله خالق السموات والأرض « يارب دى حكمتك وأنت حنانك يزيد على حنان الوالدة لولادها . وأنت الحبيب اللى حبك يكفى كل الناس » .

وفى هذه الأثناء تذكر القصة أن الله الكريم بعث برجل كان فى زيارة الحرمين . ومن بعيد رأى الطفلين وهما يرضعان من ثديى الجثة « ركب الجواد ووصل لقى العيال يمصون فى الأبزاز » و « العيال بتمص فى عظم (من هيكل عظمى) . وتأمل الرجل وكان من العرب فى القدرة الإلهية» ، « يارب ياللى خلقت الحى من الميت ورزقت أطفال لبن من جسم أمهم ميت » . وما كان منه إلا أن أخذ الطفلين معه على الدار ونظر إلى الوراء رأى جسد الأم « لاقاه بسرعة تم بلاه » . وما كان منه إلا أدى واجب دفن الجثة « ثم ترنم ذاكراً « لو أخلص العبد لله لقال للشىء كن فيكون » .

وفى البيت أحس أن حب الطفلين « خش فى قلبه » ، ولما كان لم ينجب قامت الزوجة وهى فرحة « شيلاهم على صدرها » ولما كان الطفلان لم يتما

الرضاعة ، فإن الزوجة ما لبثت أن أحست « بأبزارها يمتلآن باللبن » . ثم ذكرت القصة بأن « سيدنا محمد النبى ما رضعش من أمه » . وصارت الزوجة أماً بديلة للطفلين . أما الرجل الذى أنقذهما فأصبح أباً بديلاً « ونام سعيد (اسم الأب البديل) بالليل لقى حلم جميل جاله النبى فروى شوقه وغرامه » وأدى الأب البديل واجبات الأبوة فأطعم الطفلين ورباهما تربية صالحة . وسمى الولد « رضوان » وأخته « راضية » . ثم أقحمت القصة بعض العبارات منها « ربنا ما يحرمناشى من شفاعة النبى » وأن النبى وصى سعيد فقال « أنا شفت النبى فى النوم بينادى وقلت لبيك وقال تصون الأمانة » .

وكان الأب البديل له عدو الذى كان قد أنجب ابناً « حسان » وابنة « حسنة » . وطلب رضوان من أبيا البديل الذهاب إلى هذا العدو لإزالة العداوة وإعادة الصفاء . وذهب رضوان على غير موافقة من والده البديل خشية أن يناله سوء . وعندما دخل البيت على حمدان (اسم عدو ابيه البديل) عرف حمدان أنه رضوان فقال له « موتك حل » . « البخت لو مال ماتقدر تعدله بايدك ــ وإن لم يعدله الآله ماتقدر تعدله بإيدك » . ثم نادى حمدان على ابنته حسنة وقال لها « أقطعى رقبة رضوان » واعطاها سيفاً ثم تركها . ولكن « تعلق الحب بين حسنة وبين رضوان وكان الكلام بالعيون والقلب والوجدان » . ولما لم يسمع أب حسنة صرخات فتح الباب ووجد حسنة جالسة بجوار رضوان ثم ترنمت :

« حبيت رضوان رضوان رضوان والنبى رضوان »

وطردها أبوها ونادى ابنه حسان . وعندما دخل حسان على رضوان جلس بجواره . ثم ترنم حسان بنفس صيغة العبارة المذكورة أمام أبيه . واعترف عدو الأب البديل بأنه ظلم أباه البديل

وانتهز رضوان الفرصة وطلب صحبة حسان له للذهاب معه إلى بيت أبيه البديل عنواناً على تأكيد السلام والصفاء بين الأسرتين . وقبل أن يبرحا المكان جرت حسنة وقالت لرضوان « أنا حبيتك يارضوان » فرد عليها قائلاً بحرارة « الصبر لو له تقاوى لازرعه فى دارنا » .

وانتهت القصة بزواج رضوان من حسنة وزواج حسان من راضية ، وتم السلام والوئام بين أسرتى سعيد وحمدان .

ز ـ قصة العبيد وجليلة

بدأت القصة ببسم الله الرحمن الرحيم . وتتضمن العديد من التجارب والمعانى . ويعتبر أبطال القصة وهم عديدون ، فى رأيى العبيد (بضم العين) والتاجر يعقوب وزوجته ، وجليلة ، والأم والأب .

وتذكر القصة أن الأب ترك العبيد فى الطريق وحده ، وكان مازال طفلاً فرآه التاجر يعقوب يبكى وسأله « سبب البكا إيه جرالك إيه ياولدى ، أنت أبوك مين وبلدك فين ياولدى » فأخبر العبيد التاجر ما حدث له ، فرق قلبه وأخذه معه إلى بيته ، وسألت زوجة التاجر عن الطفل الذى معه فقال الزوج « مالوش أم ولا أب وجوز أمه سابه فى الطريق ـ والخيرة فيما اختاره الله » . وزاد عطف التاجر يعقوب عليه . وكبر الطفل و« المولى من عليه بالعزة والمعرفة والكل بيحبوه . ده ولد عقله متزن ونبيه وربك بالهداية باليه » . وفكر التاجر السفر إلى الحجاز هو وزوجته بقصد أداء فريضة الحج

وأن يترك تجارته وأمواله للعبيد يرعاها فى أثناء غيابه . وفعل ذلك فعلاً .

ولكن القصة رأت على الرغم من ثقة التاجر فى العبيد وفى إيمانه ومحافظته على الفرض ــ رأت أن يبتلى العبيد بصحبة السوء « وابتعد العبيد عن الخير وصرف الفلوس بتاعة التاجر ــ يصرف ويشرب الخمر ــ لا يعرف حرام ولا حلال ــ سرق مرة واثنين وثلاثة ولقى الحرام حلو ــ وبقى شيخ منصر » ، وترك العبيد المدينة إلى الجبل « وفى يوم بص نفسه فى يوم من الأيام لأجل حكمة ربنا » فوجد فتاة تسير وكان حسنها ليس له مثيل . وتصورت الفتاة أن هذا الشاب شهم فطلبت منه وهى خجلانة أن يقوم بحمايتها فقالت « خذنى يابطل إحنا بليل » . ولكن العبيد فار الدم فى عروقه واستمع لإغراء الشيطان فوافق على ذلك ، قالها تعالى معاى وخذها عنده وأغراه الشيطان » ، ومشت وراءه الشابة الحسناء وهى تظن أن له زوجة وأطفال تعيش بينهم . ثم صارحها العبيد بما انتوى أن يفعله وقال « لو امتنعت الموت قريب منك والليل دخل والجبل خالى من الإنسان » .

وظهرت من بعيد الوحوش التى جارت بأصواتها المزعجة فقالت الشابة للعبيد قاطع الطريق « خاف مولاك واستحى من الرحمن . مانتش خايف من الله يوم لا ينفع مال ولا بنون » . وقالت أيضاً « أنا جعانة وقعدنى فى الخزانة والجبل مليان وحوش » وتركها بعد أن هددها بأن خروجها إلى الجبل يعنى موتها صريعة الوحوش . ولكنها « خرجت ولكن خايفة مش عارفة تروح على فين » .

ثم تذكر القصة أن الشابة سارت فى طريق الجبل الوعرة ورأت من بعيد ذئباً يعوى ، وخافت أن تواصل سيرها ، ولكنها تذكرت شرفها و « السكة ماشية تجرى وشوية سمعت صرخة ديب وحش كبير وخطير جرى عليها قالت رحماك يامجير » . ولكن الذئب اقترب منها فقالت « يارب العرش » راعينى ويارب نجينى من الوحوش ياكاشف الظلم يارحمن تنجينى ، واستجاب الله دعاها « وانفتحت لها أبواب السماء — والديب قرب لها خاضع ذليل مختار كأنه حارس أمين يحميها من الأشرار » .

وعاد العبيد فلم يجد الشابة فجد فى السير فى أثرها حتى وجدها نائمة والذئب يمد أحد ذراعيه لكى تنام عليه . ولما رأى العبيد ما رأى أخذته الدهشة وعجب لما رأى « وتقول القصة ان العبيد صار يجرى من هنا وهناك وكان يدور حول نفسه « وبقى يجرى ويبكى والآسى فى عينيه » ، وقال للشابة « أنا شفت منك عجب سر العجب ده إيه » فقالت له « أصلحت ما بينى وبين الله ومن حبّه الإله يعطيه » . وقال العبيد « أنا عبد بين إيديك واللى هداك بحق الزين يهدينى » . وقرر العبيد التوبة على يدى الشابة « وحكون خدامك حتى أدلك على بيتك » وعندما ذهبا إلى البلد وجد « ناس قاعدين فى لجنة ، وسمعا سيدة تناقش زوجها وتقول للحاضرين جحد على ابنى العبيد وضحك علىّ ولا طلت مالى ولاطلت ابنى » . فرد رجل يجلس مع الحاضرين فقال لها « وديت بنتى فين » ، وحكت حكاية مقتضاها أنها اضطرت إلى بيع ابنتها الطفلة فرباها الشارى حتى إذا كبرت ونضجت « اتحول من أب إلى راجل عاوز يبيع جسدى للناس » ، واضطرت الشابة إلى تركه وهى تسير على غير هدى حتى لقيت العبيد قاطع الطريق الذى تاب إلى الإله وأناب على يديها . وتعرفت الأم على ابنتها وهى « جليلة » . وقالت الأم وهى تشير بأصبعها إلى الرجل الذى كان

يجادلها وكانت تجادله « ده أبوك وظالم وخاين العهود ، وأغرانى بالمال وأنا تحت أمره » فرد الرجل كاذباً « وتركت ابنى العبيد لأمه اللى باعته » .

ونظرت جليلة إلى العبيد وهى شبه غاضبة « اتارينى أختك ياوحش ــ اللى عمل كده مش أنا ولا أنت هو الحنان الكريم » .

وتختتم القصة بأن العبيد رأى من بعيد يعقوب التاجر ففر هارباً ، فناداه قائلاً إن ما فعلته ياولدى فعلته أنا من قبل و « دقة بدقة وكما تدين تدان » . وانتهى عهد البكاء والحزن وعمت السعادة والهناءه بين الجميع ومهما كان اللى كان كله بأمر الله » .

ويبدو لى أن وقائع هذه القصة حدثت فى ريف صعيد مصرنا الخالدة .

ح ــ قصة نهاية البخيل

بدأت القصة بالدعاء « يارب نورك فى قلبى مانطفاش ولا يوم نور بصيرتى » و « سألتك يارب الحبيب النبى وباب رحمتك ياكريم توفى ذنوبى وذنوب القوم ويبقى يوم القيامة أسعد يوم » . وأظهرت القصة أن أبطالها رجل بخيل من الأعيان (الزوج الأول) والزوجة الشابة والزوج الثانى لها وأمها وأم الزوج الثانى .

وتضمنت موضوعاتها أنه كان بين الناس (أهل البلد) رجل بخيل ويملك سبعين فداناً وكان مرابياً ، وكان هذا الرجل من الأعيان كان معروفاً عند الجميع أنه كان يبخل ليس فقط على المساكين ولكن على نفسه أيضاً . « كان يكره الفقير والمال عنده كثير» . وفكر فى الزواج من شابة حسناء مرات ومرات ، ولكنه كان يقول لنفسه « عيش النسوان خراب ــ الزوجة تأكل كثير

وعاوزة كسوة حرير » . ومكث سنين عديدة حتى وقعت عيناه على شابة حسناء وكـان أبوها فقيراً وفاقد البصر « وافتكر إنها حترضى بقليلها وتأكل أى شىء كان ، وإن البنت حلوة صبية من عيلة فقيرة شوية ، حترضى بالقليل وفقيرة مالها مثيل » .

وتضرعت الشابة الحسناء إلى أبيها وأمها وطلبت منهما عدم الموافقة على هذا الزواج وقالت لأبيها « جوزنى يابا واحد يكون فقير وحياة النبى » ، ولكن الأب اقنعها بالزواج من الرجل البخيل لأنه بلغ من السنين عدداً كبيراً وفضلاً عن ذلك فهو ذو مال وفير . ولكن هذا الزوج لم يكن فقط بخيلاً ولكنه كان « لئيم وهى مش لئيمة » .

وتـزوجت الشـابـة من البخيل العجـوز وعـزمت على أن تكون الزوجة الصالحة . وحدث فى « ليلة الدخلة » أن أحضرت الزوجة العشاء لتأكل ومعها زوجها ، وكان ضمن المأكولات دجاجة ، قام الزوج بتقطيعها وأعطى زوجته قطعة منها ، وإذا بهرة شمت رائحة الطعام وجرت حيث يأكل الزوج وزوجته ، فما كان من الـزوجـة إلا وأعطت « نايبها للقطة » . وغضب الزوج من هذه الفعلة وأنبها أقصد الزوجة تأنيباً عظيماً . وبعد تناول الطعام بدأ يملى الزوج البخيل أوامره « وحذرها أن الباب مهما خبط عليه أحد لا تفتحه » . وفى فجر يوم « الصبحية » دق على الباب شخص وقامت الزوجة وفتحت الباب فوجدته سائلاً يطلب حسنة وقالت لزوجها « اعطى له صدقة ده سائل طالب مروءة » . وثار الزوج ثورة عارمة وطردها وقال لها « روحى طالقة » . وعندما ذهبت إلى بيت أهلها استنكرت الأم ما فعلته ابنتها وقالت لها إنها لفضيحة أن تخرجى ولم تتمى ليلة واحدة مع زوجك « لازم ترجعى لبيتك » وإلا « اخرجى روحى فارقينا » .

وتركت الزوجة الشابة المطلقة البلد « سابت بلاد أهلها وقالت بلاد الله لخلق الله ، وسكنت بعيد عنهم » ثم قامت « وصلت ورضيت بحـالهـا » . ومكثت تعمل شبه خادمة من بيت إلى بيت لتأكل قوت يومها بشرف مدة تربو على الثـلاث سنوات . وكانت « غريبة ولا حبيب ولا حبيبة » . وسمعت فى أحـد الأيام دقات على باب « عشتها » وفتحت فوجدت سيدة « طالبة شىء لله » ، فأعطتها عن طواعية ، وتركتها السيدة داعية لها بعد أن صلت على النبى محمـد ﷺ وقالت « الله يعوض عليك بزوج عريض الجاه » ، وبعد هذا الدعاء قالت « سلام الله » .

وتذكر القصة إن دعوة السيدة « ربنا أجاب دعوتها » . وسمعت الشابة الزوجة المطلقة دقات على الباب وعندما فتحت وجدت سيدة عجوز « سمعت خبط على الباب وجدتها واحدة عجوز جت تخطبها لابنها » فقالت لها الشابة المطلقة « أنا مليش حد ـــ وابنك كريم ولا بخيل » . ذكرت الأم الخاطبة أن ابنها تاجر ولديه « من الذهب ألوفات » ، ولقد وصانى أن لا اتركك . وافقت الشابة على هذا الزوج بعد أن عرفت الزوج الجديد (الثانى) عندما رآها يقول بعد أن « شرط عليها شروط ما تردى السائلين ـــ المال حدانا كثير للفقراء والمساكين » .

وعاشت مع الزوج الثانى « هو يعطى وهى تعطى ومالهم كله بقى لله » . ثم لاحظ الزوج وجود أحد الفقراء يطلب من أهل البيت (شىء لله) . وطلب الزوج الثانى من زوجته أن تذهب إليه . وعندما فتحت الباب عرفته ووجدته الزوج الأول . ثم احضرت له طعاماً ليأكله وقدمت له زوجها الثانى له قائلة « ده جوزى » .

واختتمت القصة بمواعظ صيغت فى أشعار أ ومايشبه الأشعار وبالدعاء

إلى الله جل وعلا والتوسل إليه وطلب بركة الحبيب النبى . واتضح أن « الشحات الأول » الذى دق الباب فى ليلة « دخلتها » أصبح الزوج الثانى . أمّا الزوج الأول « البخيل » فقد من عليه الزوج الثانى بعمل .

« أوعى تكون بخيل لا تعيش بقى عليل
وتعيش بقى فى الوبل وتخسر الأخيرات »
و « عمر الحرام ما دخل فى بيت ويعمر »

ط ـ قصة زيدان الغنام وأحلام

بدأت القصة كغيرها بالبسملة والحمد لله والصلاة على النبى ﷺ . وهى تحاول أن تتحدث عن أشياء كثيرة منها الإيمان والصبر والحب والزواج والغيرة والحقد وحالة اليتامى . ويمكن اعتبار أبطال القصة الأم وزوج الأم وضرتها وزيدان وأحلام اليتيمة بنت زوج الأم وأبنة هذا الزوج من الـ [illegible] (اسمها ياسمين) .

وبدأت القصة تذكر أن الأم كانت جميلة وتعيش مع زوجها الغنام (أب زيدان) حياة عزيزة . وبعد أن مات هذا الزوج ترك أغنامه كما ترك بيتاً يملكه . وأصبح زيدان يتيماً . وكان الجميع يشتغلون ويعيشون فى الريف ولم تذكر القصة فى أية ناحية . والأم مع موت زوجها أبى زيدان كانت « لسه شباب » . وابتدأ طفلها (زيدان) « يكافح مع الأيام وعايش مع الأيتام » . ثم اشتغل غناماً مثل أبيه المتوفى « والشغل مش عيب وبالصبر ينال الخير ــ صبر النبى على الأسى لما اشتغل غنام » . وفى ليلة بعد أن أدى زيدان فريضة الصلاة أمه نادته وقالت له « تعالى يازيدان أبوك مات وإزاى نعيش فى وسط عباده واحنا ما نملك حاجة ؟ » ثم حاولت أن تقنع ابنها بأن يبيع الغنم التى

يرعـاهـا ، ثم هددته بالدعاء عليه ، كأم ، إذا لم ينفذ طلبها . « والأم اللى تدعى على ابنها ربنا مايفتحشى عليه » . وطلب زيدان من أمه الرجوع عن هذا الـطلب ولكنهـا أصرت عليه . « الأم لسـه شبـاب والـواد كبر بقى له أصحـاب » . وباع زيدان الغنم و« الدموع نزلت من عينيه » وقال « الدنيا محكمة والحاكم الديان ــ واللى انظلم كسبان » .

وبعـد أن باع زيدان الغنم أعـطى النقود لأمه التى بذرتها فى الموبقات « بقت تصرف وبقت تشرب الخمر » ، وكان يصاحبها شخص غريب فى شرب الخمـر ، وعنـدمـا رآه زيدان فجـع من المنـظر « سيبتم المسـاجـد وعمـرتم ملاهيكم » . وعزمت الأم على الزواج من هذا الشخص وطلبت من ابنها أن يبيع البيت الـذى تركـه أبـوه المتـوفى . وأحضر الشخص الذى كان يزورها ويشرب الخمر فى صحبتها « المأذون وتم كتب الكتاب » .

وكان هذا الرجل من الأغنياء « وكان مجوز اتنين وله جاه وميراث . . راجل كبـر اسمه مطاوع » وقال زيدان لأمه يعاتبها « لما انتى ناوية الجواز بيعتينى الغنم والبيت ليه ؟ أنا صغير من أصغر الأعمار » ثم ناجى نفسه قائلاً « أمرك غريب يازمن يارب إهديلى عقلى على الدنيا بقيت محتار » .

وبعـد الـزواج عاشت الأم مع زوجها كما عاش زيدان . وكان مطاوع (زوج الأم) يعامل زيدان « زى العبد الخدام » وكان زيدان « صابر على ذل جوز أمه حتى بلغ من السن ١٧ سنة » .

وكان يعيش مع أم زيدان وزوجها وزوجة أخرى (اسمها ثريا) ، وتعيش معهم بنتـان الأولى واسمها (أحلام) والثانية واسمها (ياسمين) . وكانت أحلام « أمها تركتها صغيرة » وكانت تعشق زيدان عشقاً روحانياً . أما ياسمين

فقد كانت تعيش فى كنف أمها ثريا وأبيها مطاوع وأحبت زيدان حباً جسدياً . وفى إحدى الليالى ذهبت ياسمين إلى حيث ينام زيدان ودقت على باب غرفته ، ثم بعد فتح الباب لم يجعلها تدخل الغرفة وسألها زيدان عما تزيد ؟ فعرضت ياسمين عليه « الهرب ونكتب الكتاب ونسافر فى أى بلد » ، « أتارى أمها ثريا كانت واقفة وسامعة » فأخبرت ثريا زوجها بما حدث فما كان من الزوج إلا أنه قال لزيدان « مادام فتحت الباب لبنتى أخرج من البيت » . وصدع زيدان بأمر زوج أمه و « راح الغيط وعمل عشة فى الغيط ــ وسرح بالغنم « التى يملكها زوج أمه كالمعتاد . ولكن ثريا ، وقد ملأها الحقد ، جهزت طعاماً ووضعت فيه السم « حطت سم فى الطعام علشان تدارى بلوتها ونادت لبنت ضرتها أحلام عطوفة وبنت حلال ــ ليّه طلب توفى الطلب فى الحال ــ وابعت لأخوك زيدان الأكل ده مع مين وياسمين تعبانة ــ روحى أنت وديه ــ وأحلام اليتيمة شالت الأكل وراحت فى الغيط ــ كانت جميلة والشعر زى الحرير يجرى كما الأنهار ــ لو تبتسم تضحك لك الدنيا وبتحب طه النبى » .

ولما ذهبت إلى الحقل حيث يعيش زيدان نادت عليه فجاء إليها وجالت نظراتها إليه « بتبص له كأنه غزال ــ كأنه حلم فى أحلى منام » . وتناول زيدان الطعام من أحلام وجلسا تحت ظل شجرة ليأكلا وما أن ذكر الله لكى يأكل إذا به « سمع نعجة من بعيد بتصرخ وقبل ما يأكل قاموا الأثنين افتكر ديب جاء الغنم » . وعندما عادا وجد كلب الحراسة لا حراك فى جسده « والكلب بتاع الغنم أكل الأكل كله ومات » . وعندما شك زيدان فى أحلام قالت له كنت أنت وأنا المقصودين . وكل ما حدث من فعل ثريا أم ياسمين وضرة أمك ، ثم قالت أيضاً « دا حبك يازيدان مجننى شغل فؤادى وفى الأحلام بيغتنى ــ هو القمر يازيدان ونوره ــ إحنا يتامى ياحبيبى على طريق النبى ماشيين » .

أما ياسمين فإنها لم تستطع أن تصبر وقالت « لأزم أروح له وراحت على الغيط » وألهم الله زيدان بالخروج مع أحلام إلى الجبل حتى يتسنى لهما أن يعبدا الله ويسجدا له شاكرين حامدين . ولكن الأب زوج الأم وزوجته ثريا قررا بعد أن حمل الزوج سكيناً « إذا وجدوه مع بنتهم (ياسمين) يقتلوهم الاثنين » . ولكن ياسمين تعبت من السير والبحث عن زيدان « وخد ياسمين النعاس وغلبها النوم والراجل افتكر زيدان هو اللى نايم ــ أتاريها دى بنته ياسمين » . وقتل ابنته ياسمين .

واختتمت القصة بأن البوليس تم إبلاغه بما حدث ، وحوكم مطاوع وزوجته ثريا وحكم عليهما بالسجن « خمسة وعشرين سنة على طول » . ثم ترنم راوى القصة ذاكراً « الراجل بيشبع من الخير ولا يطلشى يستاهل أكتر من اللى وقعه القاضى » .

ى ــ قصة ميمونة

بدأت القصة بالسعادة بميلاد النبى محمد رسول الله « ليلة ميلاد النبى نوره بدا كله يافرحة القلب لما الكون صفا كله » ، ثم حفزت السامعين ليصلوا على النبى المختار « صلوا ياحضارات على النبى المختار » ــ والقصة تدور حول شدة الإيمان بالله والولع بحب رسول الله ، وأبطالها هم ميمونة الجارية وشخص يهودى (الشارى الأول) وشخص يهودى آخر (الشارى الثانى) الذى كان يعيش مع ولديه والمداح ثم شخصية الزين محمد ﷺ .

والقصة من سياقها يعرف المستمع لها أنها وقت أيام كان سيدنا محمد ﷺ مازال حياً . ويبدو أنها وقعت فى الجزيرة العربية .

وتذكر وقائع القصة أن اليهودى الشارى الأول للجارية ميمونة اشتراها من

السوق ولم يكن يعرف أنها كانت عاشقة لرسول الله . ودهش اليهودى مالك الجارية عندما رآها تصلى صلاة المسلمين ، ولكنه أنذرها أن لا تفعل ذلك . « أنا لا أخاف منك وأخاف من الله » . ثم عرجت القصة على الحب ويبدو أنها تقصد الحب العذرى فتسمع مثلاً « ياقلبى خايف عليك من الحب وأنت صغار ده الحب يشبه بحر غريق ما له قرار » . ثم حاولت الجارية أن تقنع سيدها فقالت « أمشى فى طريق النبى ياما فى دين النبى دخلت فيه كفار.. وبعد نوم الحرير ناموا على الأحجار » .

وصمم مالك ميمونة الجارية اليهودى على أن يبيعها فى السوق . وقال للمشترين إن ميمونة « عشقت جمال النبى وما تحبش غير الهادى » . وكان يهودى آخر واقفاً فى السوق فوجد ميمونة مع زميله اليهودى ، ولما وجدها جميلة سأله لماذا تبيع الجارية « أنت بتبيع الجارية ليه ؟ » فرد عليه بأنها « جميلة وشاطرة ولكنها بتحب محمد » فاشتراها اليهودى الأخر « على عيبها » . وسارت مع المشترى الجديد فى طريقهما إلى بيته وقال لها الأخير فى خبث « البيت بيتك ومالى تحت أمرك وحبى محمد على كيفك » . وعندما وصلا إلى البيت دق اليهودى على الباب ففتح ولداه الباب « لاقوا معاه جارية وباين عليها مسلمة » ، طلب المالك من الجارية ميمونة إحضار الطعام وقال لولديه : أنا أغريها بالمال علشان تسيب محمد « وعندما عادت بالطعام » أعطاها صرة مال علشان خاطر جمالك فقالت له « إن كنت غاوى المال فى القبر روح شوف تلاقى العضم انتهى وبقى مكشوف » .

وخرج اليهودى لكى يرعى أعماله وإذا برجل « مداح » يقف على باب البيت وفضل يمدح ويقول يوصف فى الرسول ، ومن مديحه قال « أنا بمدح على اللى مشى على الرمل ما علم وفى صخور الجبل قدمه الشريف علم ــ

والضب والحجر وياه اتكلم » . فما كان من ميمونة إلا أن أعطته « صرة المال » . وأخبره ولداه بما فعلت وعنفها وأذاها وقال لها غاضباً حانقاً « خده واحد فقير بيصيت فى محمد » . ثم تكاثر عليها وولداه معه و « كتفوا الجارية وسألها اليهودى إيه السبب أن محمد ساحرك كده ؟ » . قالت « فى المصطفى روحى وهبت ما أملك حتى كمان روحى » . قام الشقى الملعون (كما تذكر القصة) « بقى شبه المجنون ـ خبطها بايده وجاب حسام بتار قطعلها الأيدين والرجلين وقلع العينين » . ومثل اليهودى يساعده ولده بميمونة « تمثيل ما له مثيل » و « شالوها على حتة خشبة وتنهم ما شيين وحدفوها فى الجبل » . وبدل الله الوحوش الضارية حراساً أمناء لها . وقالت ميمونة وهى على هذه الحال « يارب يامن تقول للشىء كن فيكون » .

وتذكر القصة أن ميمونة سمعت من جاءها وقال لها « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » وسألت ميمونة الرجل « وحياة النبى محمد أنت مين » ، فرد قائلاً « أنا محمد » « بقى استاهل أن محمد يجى فى هذا المكان » . وكل عضو ، كما ذكرت القصة من جسد ميمونة المقطوع رده النبى بسلام ، وصارت سليمة « قوام » . وطلب النبى منها أن تعود إلى بيت اليهودى وولديه « تلاقيه على طول واقف فى صحن الدار » . وعندما ذهبت ميمونة سليمة صحيحة تملؤها العافية وتحيط بها هالة الجمال إلى بيت اليهودى « بيبص لقى ميمونة على هذا الحال » وسألها كيف حدث ذلك ؟ حكت له ما فعله النبى قال اليهودى « خدونى للنبى الغالى قلبى مولع بحب الزين أنا مكنتش أعرف » ، وأوجست منه لؤماً وخبثاً كما فعل بها عندما اشتراها من السوق « أنا لا آمن لك إلا إذا نطقت بالشهادة ونطق بالشهادة » . . ثم ترنمت الجارية وقالت « الكافر والنبى ده أسلم والنبى ـ ده أسلم ـ ده أسلم وخدته من إيديه وسافروا للنبى ﷺ ومعاه أولاده

الاتنين » . وعندما ذهبوا جميعا لاح لهم بيت الرسول فوجده اليهودى بيتا متواضعاً وتساءل فردت ميمونة قائلة « مايهمش البيت المهم إللى ساكن فيه والورد لما دبل تلقى عبيره فيه ــ وطه عاش فقير وبيحب كل فقير » . وبعد أن نطق بالشهادة هو وولداه أمام النبى ﷺ اختتمت القصة بما يلى :

الفقر مش عيب مادام ربنا راضى
والندل مهما على منفوخ على الفاضى

ولعل قارىء القصص العشر المذكورة أن يصل إلى بعض النتائج منها :

(١) إن قيم الإيمان وحب النبى ﷺ والصبر على المكاره وغيرها من القيم الدينية والاجتماعية تتخلل مضامينها ، وتحاول القصص بطريقة أو بأخرى أن تغرس هذه القيم فى نفوس المستمعين لها .

(٢) إن اليتامى لهم نصيب كبير فى ثنايا هذه القصص ، وكذلك الفقراء من الناس « الفقر مش عيب مادام ربنا راضى والندل مهما على منفوخ على الفاضى » .

(٣) إن بعض مضامين القصص المذكورة ينفر من البخل والبخلاء ، وكذلك من الكسب الحرام .

(٤) إن الجمال سواء أكان مادياً أم معنوياً وكذلك الحب المعنوى والمادى تهتم مضامين القصص بهما اهتماماً كبيراً . ولذلك كان للأبطال الذين فى عمر الشباب أدوار كبيرة فى هذه القصص .

(٥) إن الأحلام فى المنام وبخاصة التى تتضمن رؤية النبى ﷺ لها شأن وأى شأن فى بعض القصص المذكورة . « وقام من النوم فرحان بطه الزين ومحبته ودمعته من صحن الخد تجرى قناة » !

(٦) إن بعض القصص المذكورة حدثت كما يبدو فى حياة الرسول عليه الصلاة وأزكى السلام (انظر قصة نطق الجمال وقصة ميمونة مثلاً) . وبعض القصص حدثت فى صعيد مصر وجباله وأخرى حدثت فى المدينة الواسعة (القاهرة مثلاً) .

(٧) إن مضامين بعض القصص تخللتها أنواع عديدة من الخيالات أو ربما المعجزات (التى لم أقرأ عنها) منها قصص نطق الجمل وقصة صابر وصابرة (حيث نجد أن طفلى صابرة كانا يرضعان من ثدييها وهى جثة هامدة) قصة حسن وحسين .

(٨) إن دور زوجة الأب (الأم البديلة) أو زوج الأم (الأب البديل) كان دوراً منفراً فى معظم الأحايين حيث الطمع والجشع كانا هدفهما .

(٩) قطع الطريق والقتل بالسم برزا فى بعض القصص المذكورة . وهما يبرزان عادة فى ريف الصعيد أو ريف الوجه البحرى فى الكثير من الأحيان .

(١٠) وقد تضمنت القصص المذكورة فى ثناياها وسوسة الشيطان ، والخيانة الزوجية ، وصحبة السوء ، وإغراء المال ــ كما تضمنت الناس الطيبين الصالحين من الرجال ومن النساء ومن الأقارب ومن الأغراب .

(١١) وتخللت مواقف القصص المذكورة مواقف الدموع والبكاء ، ووجود الجوارى وما كان يلاقين من ويلات وعذاب . كما تخللتها بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأزجال وبعض الأمثلة الشعبية المصرية .

(١٢) ولاحظت أن نهايات القصص المختارة كلها أو معظمها نهايات سعيدة ، أى نهايات تنصف المظلوم وتحقق الأهداف السامية وتنتهى

بزواج المحبين . . . . إلخ .

(١٣) ولاحظت أيضاً أن المؤدى لبعض القصص المختارة قد يكون منفرداً فى بعض الأحيان ، وإنـه فى أحيان أخرى كان يؤدى والنظارة من حوله يستمعون له وتراهـم يهللون ويكبرون ويطلبون منه الإعادة مرة ومرات .

(١٤) وقد أحسست فى بعض الأحيان وأنا أستمع لبعض القصص المختارة أننى واحد من المستمعين لأحد الدروس الدينية فى مسجد من المساجد على الرغم من أن ألواناً من الألحان الموسيقية كانت تملأ المناخ فى أثناء الأداء .

(١٥) ولاحـظت ذكـر أعـمال اليهود المستقبحة وتفكيرهم ومعاملتهم السيئة للمسلمين من أبطال بعض القصص المختارة . كما لاحظت دور بعض الحيوانـات فى ثنايا بعض هذه القصص مثل الجمل والذئب والكلب و « النعجة » والأغنام .

« الخاتمة »

إذا كانت الدراسات التى يضمها الكتاب الحالى « قراءات فى موسوعة المجتمع المصرى : دراسات عن ألوان من الثقافة فى حياتنا » ، قد تمت ، فإنها لم تستكمل . وأرجو من القارىء الكريم أن يلتمس لى العذر فى هذا التقصير كما ذكرت فى المقدمة .

وقد تضمنت المقدمة ، ضمن ما تضمنت ، مفهوم « أعضاء المجتمع المصرى من الكادحين » وأقصد بهذه العبارة الأعضاء الذين يعيشون فى الطبقة الدنيا والطبقة الدنيا العليا من العمال والفلاحين وموظفى الدولة والمؤسسات فى الدرجات المنخفضة ، وبخاصة الذين تفشت فيهم الأمية بأنواعها ، ذكوراً كانوا أو إناثاً . إنهم غالبية جماهير المجتمع المصرى فى الوقت الراهن .

وأؤكد للقارىء أن الكتاب الحالى هو واحد من كتب عديدة جداً لا حصر لها ، يجب أن يقوم بها مصريون باحثون . وإذا كنت قد خطوت هذه الخطوة الجريئة مجازفاً فلن تكون كلمتى فى هذا الموضوع هى الكلمة الأخيرة أبداً .

فالملاحظ أن موسوعة المجتمع المصرى فى مسيس الحاجة إلى اهتمام مراكز البحوث العلمية المصرية بقراءاتها وإلى اهتمام الجامعات المصرية بتأليف الرسائل الجامعية وإجراء البحوث والدراسات عنها . وذلك عن طريق اتخاذ المنهج العلمى وسيلة لتحقيق هذا الهدف الذى هو فى ضوء ظروفنا الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتاريخية هدف الأهداف .

وإننى أوكد مراراً بأننى لا أتواضع إذ أذكر هذه الآراء ولكنى أذكرها وأنا على يقين من صحتها . فقد كان بودى فى الكتاب الحالى أن أدرس مع وظيفة المسجد وظيفة الكنيسة المصرية (انظر الفصل الرابع رقم ١٣ من هذا الكتاب : مركز اشعاع دينى مصرى) . وكنت أود أن أدرس ما يكتب على بعض نتائج الحائط التى تصدرها المطابع الكنسية المصرية (انظر الفصل الرابع رقم ١٤ من هذا الكتاب : جهاز ثقافى إعلامى مصرى) حتى تتيسر لى فرصة المقارنة إن وجد مجال لهذه المقارنة . ومهما يكن من الأمر فإن عدم قيامى بهذه المهمة يعد قصوراً أرجو أن أتلافاه فى دراساتى القادمة إن شاء الله تعالى .

من الانتاج العلمى للمؤلف

أولاً : باللغة العربية :

(١) (مقرر) بحث ودراسة حالة موارد المياه وطرق صرفها فى حى بولاق ، جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق ، القاهرة ١٩٥١ .

(٢) مذكرات يوغوسلافية : انطباعات وحقائق وآراء ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة عام ١٩٦٤ .

(٣) من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الامام الشافعى ، القاهرة ، دار مطابع الشعب ، عام ١٩٦٥ .

(٤) الخلود فى التراث الثقافى المصرى ، القاهرة ، دار المعارف بمصر عام ١٩٦٦ .

(٥) الخدمة الاجتماعية ودورها القيادى فى مجتمعنا الاشتراكى المعاصر . القاهرة ، دار المعارف بمصر ، عام ١٩٦٦ .

(٦) (مترجم) ثورة الزنوج ، تأليف لويس لوماكس ، القاهرة ، الدار القومية عام ١٩٦٦ (كتب سياسية ــ ٣٨١)

(٧) محاولة فى تفسير الشعور بالعداوة ، القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر عام ١٩٦٨ .

(٨) حديث عن الثقافة : بعض الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، عام ١٩٧٠ ، رقم الايداع ١٩٨٩ / ١٩٧٠ .

(٩) هتاف الصامتين : ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات فى المجتمع

المصرى المعاصر ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثة عام ١٩٧١ ، رقم الايداع ٥٧٧٢ / ١٩٧١ .

(١٠) الخلود فى حياة المصريين المعاصرين : نظرة القادة المثقفين المصريين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، عام ١٩٧٢ ، رقم الايداع ٤٥٢٤ / ١٩٧٢ .

(١١) نشأة مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر : تاريخ شخصى ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثة ، عام ١٩٧٣ ، رقم الايداع ٢٣٣٣ / ١٩٧٣ .

(١٢) عطاء المعدمين : نظرة القادة المثقفين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، عام ١٩٧٣ .

(١٣) (بالاشتراك) معجم العلوم الاجتماعية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عام ١٩٧٥ ، رقم الايداع ٣٦٩٩ / ١٩٧٥ .

(١٤) حديث عن المرأة المصرية المعاصرة : دراسة ثقافية اجتماعية ، القاهرة ، مطبعة أطلس ، عام ١٩٧٧ ، رقم الايداع ٤٨٥٠ / ١٩٧٧

(١٥) رسائل إلى الامام الشافعى : ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشافعى ، دراسة سوسيولوجية ، الطبعة الثانية القاهرة ، الكويت ، امستردام ، دار الشايع للنشر ، ١٩٧٨ .

(١٦) تجربة فى التنمية الحضرية المحلية : جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

(١٧) الابداع الثقافى على الطريقة المصرية : دراسة عن بعض القديسين والأولياء فى مصر ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٨١ .

(١٨) التاريخ الذى أحمله على ظهرى : دراسة حالة (الجزء الأول ، الأرض والبذور) ، دار الهلال ، سبتمبر ، ١٩٨٥ .
(١٩) الازدواجية فى التراث الدينى المصرى : دراسة ثقافية اجتماعية تاريخية ، دار الموقف العربي ، ١٩٨٥ .
(٢٠) التاريخ الذى أحمله على ظهرى : دراسة حالة (الجزء الثانى ، ماء الحياة) ، دار الهلال ، سبتمبر عام ١٩٨٦ .
(٢١) التاريخ الذى أحمله على ظهرى : دراسة حالة (الجزء الثالث ، الثمار) ، دار الهلال ، نوفمبر عام ١٩٨٧ .
(٢٢) نظرات باحث علمى اجتماعى مصرى : دار روز اليوسف ، الكتاب الذهبى ، يناير ١٩٨٨ .
(٢٣) قراءات فى موسوعة المجتمع المصرى : دراسات عن بعض ألوان من الثقافة فى حياتنا (الجزء الأول) (تحت الطبع) .

ثانياً باللغة الأجنبية :

Cllaborator: 1. (Trouble Children in Egypt), in justice and Troubled Children Around the worid, Vol. 1, V. Lorne Stewart ed. (New york: New york University Press, 1980), p p. 37-47.

2. (Developments in Criminoloqy in Egypt), in International Handbook of Criminoloqy, edited by Elmer H. Johnson, (West-port: Green wood Press), 1983, p p. 185-196.

3. (Croyances Populaires en Egypte), Mythes et Croyances du monde entier. Tome II le monothéisme, Paris, Lidis-Brepols, 1985, p p. 335-369.

محتويات الكتاب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠١/١٣٦٦٧

I.S.B.N 977 - 01 - 7446 - 7